مسالك الثقافة الإغريقية
إلى العرب

تأليف

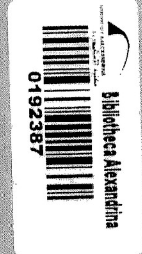
أوليري

نقله إلى العربية

دكتور تمام حسان

المدرس بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)



مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب

تأليف

أوليري

نقله إلى العربية

دكتور تمام حسان

المدرس بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عمارة [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى الثقافة العربية ازدواج من نوع معين ، يلمسه المرء فى الفرق بين ما يقوم من العلوم على خدمة اللغة والدين ، وبين ما يقوم منها على خدمة الحياة والعقل . وهذا الازدواج لا يزال ملموسا فى حياتنا الثقافية المصرية بوجه خاص ، حيث ترى طابعا خاصا يطبع المعاهد التى تقوم على خدمة اللغة والدين ، وطابعا آخر مختلفا لتلك المعاهد التى تخدم الحياة والعقل . ولست أريد هنا أن أخلق مقابلة ، أو أن أدعى تخارجا بين اللغة أو الدين من ناحية وبين الحياة أو العقل من ناحية أخرى ؛ بل المقصود هو النص على الطابع العام لنوعين من أنواع الثقافة ، يوجدان فى البيئة المصرية المعاصرة ، وكانا يوجدان فى تاريخ الثقافة العربية .

ومنشأ هذا الازدواج أن الثقافة العربية نشأت بنشأة الإسلام ، ونمت فى ظل القرآن ، ثم طرأ عليها بعد ذلك عامل أجنبى ؛ قضى بتعريب ثقافات وافدة ، وهضمها ، والإضافة إليها . القرآن نص لغوى أدبى ، قضت العناية به بالخوض فى دراسات لغوية وأدبية ، تطورت بمرور الزمان إلى ما نراها عليه الآن . وفى القرآن قصص عن السلف ، أوحى بدراسة تاريخية لماضى العرب ، فنشأ ما نعرفه الآن باسم التاريخ العربى والإسلامى . وكان لابد

والأمر كذلك أن ينشأ علم لتفسير القرآن ، ثم إن السنة النبوية تفصل عموم القرآن ، وتشرحه ، وقد قضت المحافظة على نقائها بالعناية بأسانيدها ، فنشأت عن ذلك دراسات الحديث المختلفة . ثم دخل المسلمون فى دراسة تفاصيل عباداتهم ومعاملاتهم ، على ضوء ما يقرره الكتاب والسنة ، وما يأتى به الأثر . وكان من نتيجة هذا الاتجاه أن تبلور نوع من الثقافة اللغوية والدينية ، قام ، ونشأ ، وترعرع ، وازدهر ، فى بيئة عربية ، وتوافر على إيضاح ظواهر من نتاج هذه البيئة .

واتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، ووجد العرب أنفسهم وجها لوجه مع شعوب لم يكونوا من قبل شديدى الصلة بحياتها ، ولا بثقافاتها العقلية ؛ شعوب تختلف عنهم من حيث الدين ، واللغة ، وطريقة المعيشة ، ومن حيث النظم ، والعادات الفكرية ، والاجتماعية ، والتقاليد ؛ شعوب تفضلهم من حيث الثقافة ، والتاريخ ، والقدرات الفلسفية . ومن ثم لم يجد العرب مناصا من الإعجاب بتركات هذه الشعوب ، إعجابا قادهم إلى الأخذ عنها بنهم فكرى لم يسبقوا إليه فى التاريخ . أخذوا عن الروم ، أو كما نسميهم نحن الإغريق أو اليونان، كما أخذوا عن الفرس، والهند ، والسريان، والمصريين ؛ وتعددت مسالك أخذهم ، ومنابع إمدادهم ، كما تعددت الدراسات التى أخذوها ، فكان منها الطب ، والفلك ، والمنطق ،والفلسفة ، والرياضيات ؛ والتنجيم ، فكان لهم من كل ذلك ثقافة حياة ،وغذاء عقل . هو الشطر الآخر من شطرى ثقافتهم ووجود هذين الشطرين هو الذى دعانا إلى القول بازدواج الثقافة العربية فى القديم ، كازدواجها المعاصر فى مصر .

وإذا كانت المكتبة غنية فى دراسة مواد اللغة والدين ، وحافلة بالكتب فى مواد الحياة والعقل ، فإننا مع الأسف نلحظ فيها فقرا واضحا فى الكتب

التى تدور حول اكتساب العرب ثقافة الشعوب المجاورة من ناحية ، وحول أثر ثقافة هذه الشعوب فى دراساتهم اللغوية والدينية من ناحية أخرى . أما الناحية الأولى فيرجع فقر المكتبة العربية فيها إلى تلبس هـذه الناحيه بتاريخ الكنيسة الشرقية ، وبتاريخ بعض الشعوب الأجنبية بصفة عامة ؛ وذلك حقل لم يكن محببا إلى القارىء العربى غير المتخصص فى يوم من الأيام ، ومن ثم لم يعن الكتاب العرب بكيفية اكتساب العرب لهذه الثقافة الوافدة . وأما فقر المكتبة العربية فى الكتب التى تعالج تأثير هذه الثقافات الوافدة فى دراسات اللغة والدين ، فهو راجع إلى نفس السبب الأول من جهة ، وراجع من جهة أخرى إلى أن انشغالنا بثقافة أوربا الحديثـــة ، وهى مبنية على ثقافات إغريقية ورومانية ماضية ، جعلنا نستغنى بالبحث فى صلتنا بهذه الثقافة عن تدارس تاريخ صلتنا بسابقاتها ونقنع بتقصى آثارها فى حياتنا فلا نحاول الكشف عن آثار هاتين الثقافتين الماضيتين فى تاريخنا وفى التراث العلمى العربى الذى فى أيدينا لغويا كان أو دينيا .

وهذا الكتاب الذى نقدمه إلى القراء العرب يقوم على بيان « مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب » ، فهو يخدم المكتبة العربية بأن يسد فراغا نحس به جميعا ، بتناوله كيفية اكتساب العرب للثقافة الإغريقية الوافدة ، ومن ثم يصلح عونا على سد الفراغ الآخر ، حين يراد البحث فى آثار الثقافة الإغريقية فى الثقافة العربية اللغوية والدينية . وسيجد القارىء هذه المسالك مشروحة شرحا وافيا فى ثنايا هذا الكتاب ، حتى إننى لأحس أن بعض القراء سوف يجدون فى أنفسهم شبه اعتراض على ما قد يعتبرونه استطراداً فى تاريخ غير عربى ، ومن ثم قد يكون غير متصل باهتمام القارىء ؛

ولكن هذا الإحساس بالرغبة فى الاعتراض مردود عليه بأن هذا مما يقتضيه الشرح والإبانة ، وهو شرح (أوسمه استطرداً إن شئت) يترك فى نفس القارىء صورة واضحة من التفاعلات بين الشعوب فى العالم القديم من جهة ، ويفسر بعض الظواهر المعاصرة من جهة أخرى .

ومؤلف الكتاب De Lacy O'Leary, D.D ، الأستاذ فى جامعة برستول Bristol فى بريطانيا ، مستشرق شديد الاهتمام بالدراسات العربية ، وله كتب أخرى فى هذا الحقل ، منها Arabic Thought and its Placc in History ، وكتاب يسمى Colloquial Arabic . ولست أجد فى نزاهته العلمية مطعنا ، إلا حين يتناول ناحية دينية إسلامية ، فهو يعالجها بروح الذى يحيد به التعصب الدينى عن التسامح ، والاعتراف بفضائل الآخرين . بل إن القارىء سيجد له تفسيرات لبعض آيات القرآن لا يمكن أن يحتملها النص ، كما حدث عند تفسير « وقال الذين كفروا إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا » ، حيث عاد بالضمير فى « جاءوا » إلى « قوم » ، لا إلى « الذين » ، يريد بذلك أن يستدر عطف القارىء على العبيد الأحباش المسيحيين فى مكة ، ويكون المعنى الذى قصد إليه : إن هؤلاء العبيد قد جىء بهم إلى مكة ظلما وزوراً .

ومثل ذلك يحدث حين يتكلم المؤلف عن الأخطل ، وعن مدى تطاوله على المقدسات الإسلامية ، ويتخذ من ذلك دليلا على تحلل المجتمع الأموى فى عمومه ، ناسيا أن الأخطل كان يتطاول على المقدسات المسيحية أيضا (راجع الديوان) ؛ وحين يقول إن الأخطل كان يقسم أيمانا مسيحية فى شعره ، فيوحى بأنه لا يقسم بأيمان إسلامية ، وقد أثبتنا له بعض هذا القسم

فى حينه ، كما أن القارىء سيجد له بعض الهفوات فى ذكر التواريخ والأسماء . على أن هذه الهنات لا تطعن فى قيمة الكتاب من حيث هو ، بل إنها تبدو صغيرة إلى جانب الجهد العظيم الذى بذله المؤلف فى جمع هذه المادة القيمة . التى نجد تاريخنا فى أشد الحاجة إليها ، ولا نجد بين أيدينا من المصادر والمراجع ما يختص بالبيئات الأجنبية المتصلة بالبحث ، والتى تناولها المؤلف ، أو لعلنا إن وجدنا هذه لم نجد العارفين بتناولها ، فهى مكتوبة بلغات مختلفة قل أن تجتمع عند أحد كتابنا بمفرده بنفس الدرجة من الجودة . والمعروف أن المصريين من الأمم التى لا تتعلم اللغات الأجنبية بكثرة وجودة .

سيرى القارىء أنه كلما اقتبس المؤلف من مرجع عربى بادرت إلى تحقيق هذا الاقتباس ، وقد نبهت فى موضعين ، أو ثلاثة ، إلى نواحى النقص فى الاقتباس ، ووضحت ذلك بقدر ما يسمح به المكان ، وسيرى القارىء كذلك أن أسماء الأشخاص والأماكن قد جرى ذكرها غير مقيد بالنطق العربى القديم ، إذا بدأ فى هذا النطق وجه للاعتراض ، ككونه ثقيلا ، أو مغربا مثلا ، وأذكر على سبيل المثال تفضيل استعمال كالسيدون بدل خلقيدونيا ، لضعف الفاصل الصوتى بين الخاء والقاف ، مع تقارب مخرجيهما ، وتفضيل ترجمة خلقيس إلى قنسرين ، لنفس السبب ، ولكون العرب أعرف بالاسم الأخير .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أعبر عن شكرى الذى لا يعرف الحدود لهؤلاء الأفاضل الذين أعانونى بأية كيفية على إخراج هذا الكتاب فى صورته الحاضرة ، فإن كان الكتاب فى شكله هذا مقبولا ، فالفضل يرجع بعد الله إليهم ، وإن بدا فيه نقص ، فذلك منى ، وأرجو أن أكمله فى طبعة

مقبلة ، والكمال لله وحده ، وأخص بالذكر من هؤلاء الإخوة الأستاذ الدكتور أحمد حماد ، رئيس قسم الرياضة التطبيقية بكلية العلوم جامعة القاهرة. ثم الدكتور محمد كمال عرفة ، والدكتور عطية عاشور ، المدرسين بنفس القسم . ثم الدكتور صلاح الدين حامد ، بقسم الفلك من نفس الكلية ، لتوجيهاتهم المنتجة الخاصة باصطلاحات الرياضة والفلك . وأشكر أيضا شقيق الأستاذ عبد الحكيم حسان ، المعيد بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، للشقة التى عاناها بعد سفرى ليكمل إخراج هذا الكتاب للناس .

والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب نافعا إنه سميع مجيب .

المعادى فى يونية سنة ١٩٥٧ م   تمام حسان

الفصل الأول

مقدمة

هناك شبه قوى بين المدنية والمرض المعدى ، فكلاهما ينتقل من مجتمع إلى آخر بالمخالطة ، وكلما انتشر أحدهما خطر توا على بالنا سؤال عن المكان الذى أتى منه ، وفى كليهما سؤال لم يجب عنه : هو أين يبدأ كل منهما ، وهل لانتشاره دائماً مصدر وبداية واحدة، أو مصادر وبدايات يستقل كل منهما عن الآخر ؟

وحين نقرأ السيرة التى كتبها لنفسه ذلك المستشرق الشهير السير دينيسون روس نجد، خطاباً أرسله سائل يحتوى على جملة تقول :كم يكون جميلا لو اكتشفنا بأى كيف وعلى أى شكل سلك تراث الكتاب الإغريق واللاتين طريقه إلى وعى طالب العلم العربى أو الفارسى أو التركى (١) . ولا يضع المؤلف أى تعليق على هذا الخطاب، ولكنه قد يحسن أن نشير إلى أن الطريق التى سلكها التراث الإغريقى إلى العرب والفرس، ثم إلى الترك ليست مجهولة المعالم كما قد يفهم من الخطاب ، وإلى أنها يمكن تتبعها مع درجة معقولة من الثقة ، كما نأمل أن يبدو ذلك فى الصفحات اللاحقة . ولا شك أن العرف الإنجليزى العام هو الذى دعا الكاتب إلى أن يجمع الكتاب الإغريق واللاتين فى مجموعة معاً ، فليس يبدو أن تراث الكتاب اللاتين قد سلك طريقاً إلى العرب أو المشارقة الآخرين ، ونقل

---

(١) Sir Denison Ross, Both Ends of the Candle. n.d., p. 286.

الثقافات القديمة إنما كان خاصاً بالإغريق فحسب ، ولم يكن الكتاب الإغريق الذين أثروا فى العالم الشرقى هم الشعراء أو المؤرخين أو الخطباء ولكنهم كانوا على وجه التحديد العلماء الذين كتبوا فى الطب والفلك والرياضيات والفلسفة ، أى فى ذلك النوع من التفكير العلمى الذى لا يأتى فى المقدمة حين نتكلم عن التراث القديم . لقد كان الفكر الإغريقى فى تلك الأيام التى ورث فيها العرب ثقافة اليونان القديمة مشغولا بالعلم أولا ، وحلت الإسكندرية محل أثينا ، وكونت الهيلينية(١) لنفسها أفقاً فكرياً حديثاً تماماً . وكان للإسكندرية وعلمائها صلة مباشرة بهذا الوضع ، ولكن هذا الوضع لم يكن قاصراً على الإسكندرية ، فلقد كان نتيجة منطقية لنفوذ أرسطو الذى كان ملاحظاً دءوباً للطبيعة قبل كل شىء ، ثم هو فى الحقيقة مؤسس العلم الحديث . وكان لهذا الوضع أصوله فى تفكير أقدم عهداً بلاشك ، كتأملات الفلاسفة الأولين فى أصل الخليقة والعالم وسكانه من الحيوان والإنسان ، ولكن أرسطو هو الذى جاء بما يمكن أن يسمى الطريقة العلمية .

وللدخول فى هذا البحث يجب أن نقدم أن هناك على الأقل خيوطاً ثلاثة متشابكة . فهناك أولا علماء الإغريق الذين ترجمت كتبهم إلى العربية ، وحفظها العرب واتخذوها موضوعاً للتعليق والتلخيص ؛ وعملية النقل فى هذه الحالة واضحة . ثم هناك نتائج وقواعد علمية تقبلها علماء العرب ونموها ، ولم يقولوا من أين جاءوا بها ، ولكنها لا تتضح إلا بالرجوع إلى أصل

(١) يقصد بهذا الإصطلاح الثقافة التى سادت العالم القديم بين حروب الإسكندر وبداية القرون الوسطى وهى إغرقية فى طابعها ولكنها لم تكن قاصرة على أمة بعينها (المترجم)

إغريقى (إسكندرى) . وهناك أخيراً مسائل ومشاكل تناولها العرب بطريقتهم الخاصة ما كانت لتخطر لهم على بال لو لم يثرها فى أذهانهم قدماء المفكرين من الإغريق ؛ إذ حاولوا أن يذللوا صعوبات شبيهة بها ، ولكنهم تقدموا لحلها بطريقة مختلفة .

لقد بقى التفكير العلمى الإغريقى فى العالم زمناً طويلا قبل أن يصل إلى العرب ، وانتشر فى هذا الزمن خارج بلاد الإغريق فى اتجاهات مختلفة فليس من العجيب إذاً أن يصل إلى العرب بأكثر من طريق واحد . فلقد أتى أولا فى أبسط المسالك عن طريق كتاب السريان المسيحيين وعلمائهم ؛ ثم وجه العرب أنفسهم إلى المصادر الإغريقية الأصلية مباشرة ، فبدأوا يتعلمون من جديد ما تعلموه ، فصححوا واستوثقوا من معرفتهم القديمة ؛ ثم جاء مسلك آخر من مسالك النقل غير المباشر عن طريق الهند ، بترجمة الرياضة والفلك اللذين تطورا تطوراً كبيراً على يد علماء الهنود ، ولكنه تطور مبنى على مادة حصلوا عليها من الإسكندرية أولا ، ووصلت هذه المادة إلى الهند بالطريق البحرى الذى ربط الإسكندرية بالشمال الغربى للهند . ثم كان هناك خط آخر للرحلة عبر الهنديبدو أنه كان يبدأ فى مملكة بلخ (Bactria) الإغريقية إحدى الولايات الآسيوية التى أسسها الإسكندر الأكبر ، وهو طريق احتفظ به زمنا طويلا مفتوحاً بين العالم الإغريقى وأواسط آسيا ، وعلى الأخص مدينة مرو ، وربما اتصل هذا الطريق بوسط بوذى كان وقتاً ما يتصل بالشرق والغرب ، مع أن البوذية باعتبارها ديانة كانت تجلو إلى الشرق الأقصى حين وصل العرب إلى أواسط آسيا . وهناك فى النهاية مصادر صغرى موزعة ، كمدينة حران مثلا ، وهى مستعمرة إغريقية عنيدة فى وثنيتها ، تقع فى وسط منطقة مسيحية ، وهى على ما يبدو

شاركت فى هذا الجهد ، وإن كان ذلك على نطاق أضيق .

ويجب أن يؤخذ الاصطلاح « عرب » بمعناه العام ، فهو لا يستعمل ليدل على الذين يجرى فى عروقهم الدم العربى ؛ وإنما يشمل كل هؤلاء الذين كانوا من الناحية السياسية تحت الحكم العربى ، وتكلموا اللغة العربية واعتنقوا دين العرب . لقد كان بعضهم كالفرس فى حكم العباسيين الأوائل فى القرن الثامن الميلادى ضد العرب بكل تأكيد ، ولكنهم عاشوا تحت راية العرب ، وكتبوا باللغة العربية ، وأظهروا على الأقل اعتناقهم لدين محمد . فلما كانت الحال كذلك شاركوا حكامهم العرب فى الحياة العامة التى اصطبغ بها الأدب والتعليم والمصالح بصفة عامة . وحتى لو أن الأدب الفارسى والديانة الفارسية انشعبا فى اتجاه خاص فإنهما بدآ فى نقطة بداية عربية . ولا تجرى الثقافة ولا اللغة على طريقة مطابقة لما تجرى عليه الروح الشعبية ؛ فالفتح ، والمدنية المتفوقة ، والحاجات الاقتصادية غالباً ما دعت المجتمعات إلى اتخاذ لغة جديدة وثقافة جديدة . ومع هذا كان للمجتمع الذى ضمه حكم الخلافة ارتباط يبرر اعتباره وحدة ، ولو أن كل أعضائه لم يجمعوا على خليفة واحد . ولقد أخذ الأمويون فى الأندلس صولجانهم من خلفاء العباسيين فى بغداد ؛ وأما الشيعة المنشقون فقد وافقوا أهل السنة على أن الإمام فى الدنيا يجب أن يكون وريثاً للنبى محمد ولكنهم اختلفوا على شخص الوارث الشرعى ؛ واتخـــذ الخوارج ، الذين لم يكونوا أقل إلحاداً من الشيعة ، إماماً من أنفسهم منتخبا فى حرية على أسس ديموقراطية ، ولكنهم إنما انتخبوه لاعتقادهم أنه خير من يتبع سنة محمد .

والأكبر خطورة من الوحدة السياسية أو الشعبية أو الدينيه أن هؤلاء

الذين اعتبروا هنا عرباً تقع الشركة بينهم فى التاريخ الثقافى ويتقاسمون تركة علمية مأخوذة عن العالم الهلينى(Hellenistic) . وكانت مدينة بغداد فى البداية مركز التوزيع ، حيث تتجمع المادة الإغريقية من أقاليم مختلفة كسوريا وبلخ والهند وفارس وغيرها . وانتشرت هذه المادة من بغداد فى شكلها العربى لكل المجتمعات الإسلامية . وعندما وقفت الاضطرابات السياسية والاقتصادية فى سبيل الحياة الثقافية فى بغداد فى وقت متأخر ، وبدأت إمبراطوية الخليفة فى الاضمحلال أو الانحلال الذى يشبه إلى حد كبير ذلك الذى مر بإمبراطورية شارلمان فى الغرب بدأت القيادة تنتقل من بغداد إلى حلب ، ودمشق ، والقاهرة وقرطبة ، وسمرقند .

ولكن العلم الإغريقى استقر بين العرب قبل أن يحدث هذا ، وبدأ حياة جديدة مستقلة فى جو عربى .

أما المادة العلمية الإغريقية التى تسلمها العرب ، فلم يسلموها على حالها إلى غيرهم ممن جاء بعدهم ؛ فقد كان لها حياة ونمو حقيقيان فى البيئة العربية . وإن النتائج التى وصل إليها علماء الإغريق والهنود فى الفلك والرياضيات قد أدمجت فكان من إدماجها تقدم صحيح . ويمكن أن يقال إن الجبر وحساب المثلثات بشكليه البسيط والدائر (Spherical) يعتبران تطوراً عربياً بهذه الدراسات . وكان العرب أذكياء فى ملاحظة الأفلاك وتسجيل هذه الملاحظات ، فلم يتم هذا التسجيل ما تسلموه من الإغريق فحسب ، ولكنه ألقى ضوءاً على المعلومات القديمة وصححها . وأدرك العرب ضعف الكونية البطليموسية ، وحاول الفلك الحديث فى القرن الثالث عشر عبثاً أن يصححها ، ولم يوجد الحل حتى ظهر كوبرنيق .

ولم يرض كل المسلمين عن التنجيم ؛ فقد رأى الكثيرون أنه مادام كل الحوادث يحدث بإرادة الله فلا يمكن أن تسيطر عليها حركات النجوم . فلما أقر هذا الرأى كان من نتائج إقراره أن أدخل تعديل على النظرية التنجيمية فى الإسلام، ولم تعد النجوم تعتبر حكاما كما كانت فى التنجيم الوثنى ؛ وإنما اعتبرت إشارات تدل على ما قضى الله به . ومع هذا عارض المتحرزون من علماء الدين التنجيم . فأصدر المنجمون كتبا يعتذرون بها ويدافعون عن علمهم . أما اليهود فقد اعترفوا صراحة بحكم النجوم استنادا إلى ماجاء فى سفر التكوين (١ ، ١٤ — ١٦) من أن الله قد أضاء السماء لحكم الأرض ، وتبعهم فى ذلك المسيحيون .

أما فى الطب فإن أطباء العرب كانوا دقيقى الملاحظة ؛ وقد أضافت مؤلفاتهم الإكلينيكية(*) كثيرا إلى ماتعلموه من الإغريق . وقد اخترعوا بعض الآلات الحديثة ، وتقدموا بالمعلومات الطبية فى كل الفروع ماعدا الجراحة . أما الجراحة فقد وقف فى طريقها القول بنجاسة الجثة ، ولو أن النجاسة يمكن إزالتها بالغسل ، ولكن الإعتقاد بأن الروح لاتغادر جسدها فور الموت ، وإنما تبقى قليلا بعده ، جعل التشريح يبدو وحشياً قاسياً . وقد تعلم العرب من أرسطو قوة الشبه بين أعضاء الإنسان والحيوان ، فوصلوا إلى درجة معينة من التقدم فى التشريح المقارن . ولكن نتائجهم فى الطب كنتائجهم فى الفلك أبطلتها اكتشافات ماكانوا ليعلموا بها . إن كشف هارفى عن الدورة الدموية ، والمعرفة التى جاءت نتيجة لاستخدام المجهر فتحا آفاقا جديدة للفكر غطت على أهمية المجهودات العربية . ومع هذا كان الأطباء العرب قرونا عديدة فى المقدمة فى الأعمال الطبية.وحين ظل

* نسبة إلى دراسة الطب فى المستشفيات إلى جوار سرير المريض

التقديم العلمى مستمرا ، لم يساهم عملهم الحيوى فى نقل أفكار غيرهم إلى العالم فحسب ، بل ساهم بتطور حقيقى مكنهم من أن يعطوا للأجيال المتعاقبة أكثر مما تسلموا هم من سابقيهم .

لقد ازدهر العلم العربى فى جو القصور ، فاعتمد العلماء على حماة أقوياء وأثرياء ، ولم يجذبوا انتباه رجل الشارع . ولعل ذلك لأن التأملات العلمية والفلسفية اعتبرت أميل إلى التفكير الدينى الحر ، ولهذا عد الفلاسفة نوعا من أنواع الملاحدة . ورضى الفلاسفة أخيرا بهذا الحكم ، واتخذوا لأنفسهم رأيا يقضى بأن الوحى القرآنى يناسب الحياة الروحية للعوام البسطاء ، ولكن المستنير يرى ماوراء الكلمة المكتوبة فيفهم الحق الباطن الذى لا يحسن أن يكشف عنه للعوام .

وكان للإسلام أثناء ذلك رجاله الحكماء الذين استوعبوا الفقه والحديث والقرآن ، كان هؤلاء موضع احترام الجميع احتراما مصحوبا بهيبة غير مضطغنة لم يحدث أبدا أن تمتع بها العلماء الذين احتملهم الناس من أجل حماتهم . ومما يعدل حكمنا على العلم العربى تعديلا كبيرا أن نذكر أن العلم والفلسفة كانا محصورين فى الوسط الممتاز .

الفصل الثانى

الهلينية فى آسيا

١ — تهلين سوريا[1]

كيف دخل غرب آسيا أو ما يسمونه الآن الشرق الأدنى تحت النفوذ الإغريقى ؟ نقطة البداية فى هذا هى غزو الإسكندر لبلاد الفرس عام ٣٣١ قبل الميلاد . لقد تفرقت مملكة فارس الشرقية العظيمة أيدى سبا بعد أن امتدت من نهر السند إلى البحر الأبيض المتوسط ؛ وكان تفرقها قبل هجوم هذا الأمير الذى كان يحكم إحدى الولايات المعاصرة الصغرى فى بلاد الإغريق . إن هذا المثل من الأمثال الكثيرة فى التاريخ التى تدل على أن كثرة العدد لا تغنى شيئا إذا جابهتها قوة صغيرة كاملة الاستعداد . وقد أتبع الإغريق هذا النصر بغزو لبلاد الفرس جعل جميعها بالتدريج تحت سيطرتهم ، ثم توغلوا بعد ذلك حتى البنجاب ، الذى كان يعتبر إقليما فارسيا . ولم يكن من نتيجة هذا الغزو السياسى أن أصبحت البلاد المفتوحة جميعها إغريقية ؛ فقد ظلت فارسية تحت الحكم الإغريق ، إذا أنشأ الإسكندر مستعمرات لها طابع الحاميات الإغريقية مبعثرة هنا وهناك فى الأراضى المفتوحة .

لقد مات الإسكندر وهو صغير السن فى يونية عام ٣٢٣ ، تاركا وراءه

---

(١) المقصود صبغ سوريا بالصبغة الهلينية (المترجم) .

طفلا ليرثه . وفى الحال بدأ قواده النزاع على هذه التركة ، ودامت الحروب الأهلية حتى عام ٣١٢ ، حيث وافق المتنافسون على تقسيم الغنائم . وقد حصل سيليوقوس فى هذا التقسيم على القسم الآسيوى الذى يكاد يشمل كل مملكة فارس القديمة . ولكن سيليوقوس كان يغار من قائد آخر هو بطليموس الذى ظفر بمصر ، فكان أكثر شغلا بتنافسه مع هذا الملك المصرى منه بالأمور الداخلية فى فارس . ثم بنى عاصمته الجديدة أنطاكية فى غرب سوريا حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد ، وترك القسم الرئيسى من أقاليمه الآسيوية فى يدى نائب عنه . . وقد انتهز أرساقيس Arsaces هذه الفرصة فاقتطع لنفسه مملكة بارثيا ، واستقل بها عام ٢٤٨ فكانت أصغر حجما من المملكة الفارسية القديمة ، ولكنها كانت مع ذلك قوة عظيمة ، لم يمض عليها زمن طويل حتى بدأت تقص أطراف تركة سيليوقوس . ثم زحفت بالتدريج مقتربة من البحر الأبيض المتوسط ، حتى التهمت العراق فى عام ١٥٠ قبل الميلاد ، فانتقصت إقليم سيليوقوس إلى ما يزيد قليلا عن سوريا . وهكذا لم يدم النفوذ الإغريقى إلا فى المنطقة المتاخمة للبحر المتوسط فحسب .

فما المدى الذى وصلت إليه هذه البلاد فى إغريقيتها تحت الحكم الإغريقى؟ يمكن إيضاح هذا خير إيضاح بالظروف المشابهة فى مصر . ففى الهواء المصرى الجاف الصافى بقى الكثير من وثائق العصر البطلى ، ومن هذه الوثائق نستطيع أن نتعلم الكثير عن تهلين هذه البلاد ، على حين تندر هذه الوثائق نسبيا فى الجو السورى الرطب . فنستطيع أن نعلم فى مصر أن كل الأعمال الرسمية كانت تجرى باللغة الإغريقية ، وكان من الضرورى لكل من رغب فى وظيفة مدنية أن يتعلم الإعريقية . ولا تزال المخطوطات باقية تعين الراغبين فى اكتساب معرفة الاغريقية ، ولا يزال لدينا مايدل على مدى

نجاحهم فى هذا الاكتساب . ويبدو أن المصريين وجدوا فى الإغريقية لغة صعبة غاية الصعوبة ، وكان حذقهم لها فى كثير من الحالات حذقا غير كامل .

وواضح جدا أنها لم تصبح فى الحقيقة لغة البلاد أبداً .

وكانت المصرية لغة البيت والسوق ، ولم يحاول حذق الإغريقية إلا هؤلاء الذين رغبوا فى الوظائف الحكومية . حتى فى الجاليات الاغريقية كما فى الاسكندرية وقفط (Coptos) ، حيث كانت الإغريقية لغة المواطنين ، بقيت طائفة عظيمة تقطن حيا خاصا فى الغالب ، تتكلم اللغة المحلية فحسب . وقد كان المواطنون فى المدن الإغريقية طبقة حاكمة ممتازة فقط ، وكانوا أقلية فى الغالب ، أما الأجانب الذين استوطنوا المدينة ، وأفراد الشعب المحكوم ، والعبيد فلم تكن لهم حقوق المواطنين . وهكذا انحصرت اللغة الإغريقية ، ومعها الثقافة والعادات والديانة الإغريقية ، فى الطبقة الحاكمة ، ولم يكن لها إلا أقل النفوذ على أهل القرى من الفلاحين ، وعلى المجتمع المحكوم بوجه عام . ثم كان هناك تزاوج بين الحاكمين والمحكومين ، ولكن العائلة فى هذه الحالة كانت أميل إلى الرجوع إلى الحياة المحلية عموما .

ويبدو أن الحالة كانت كذلك فى سوريا . تكلمت الطبقة الحاكمة فى المدن الكبرى اللغة الإغريقية ، كما استعملها الرسميون فى طول البلاد وعرضها ، ولكن ذلك لم يكن سوى قشرة إغريقية بقى الشعب مختفيا تحتها غير مبرأ من النفوذ الإغريقى الطفيف .

وكانت الآرامية هى اللغة العادية فى سوريا والعراق ، وهى لغة قريبة إلى العبرية ، ولكنها تغايرها . أما كلمة « آرام » فتدل على المرتفعات ، والآرامية عموما لغة المرتفعات الشمالية والأقاليم الداخلية ، على حين

استعملت العبرية فى المنخفضات ، واقتربت من اللغة الفينيقية المستعملة على الساحل . ولكن الآرامية تشعبت إلى لهجات كثيرة ، وانتشرت فى منطقة كبيرة . وانتشرت إحدى لهجاتها أو مجموعة من لهجاتها فى وقت متأخر بين السكان المسيحيين فى سوريا والعراق ، متخذة الرها مركزا لها ، وعرفت بالسوريانية . وكانت هذه السوريانية الآرامية هى الطريق الرئيسى الذى عبرته الثقافة الإغريقية إلى شعوب الشرق الأدنى .

ويتميز بعض المجتمعات عن بعض فى البلاد الشرقية باختلاف الطابع الدينى ؛ أما الأمم فهى مجتمعات موقته تشكلها الأغراض السياسية . وتكون الديانات مجموعات اجتماعية تشترك فى حياة ثقافية عامة ، وبناء اقتصادى وأدب ، وفن . والقاعدة أن الحاجز بين الأشخاص المختلفين فى الدين أكثر تميزا من الحاجز بين أشخاص من أقطار سياسية مختلفة .

وإذ قهر البارثيون العراق فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد تحللت الدولة التى أنشأها سيليوقوس ، حيث أرهقها النضال الفاشل الطويل فى سبيل السيطرة على مصر . ولم يتابع البارثيون غزوهم ، لأنهم وقعوا فى هذا الوقت تحت وطأة هجمات على الأقاليم الشرقية ، قامت بها القبائل المغولية ؛ ولم يكن لهم من المدد الحربى ما يمكن أن يبعثوا به إلى الغرب . ولكن دولة ثالثة قريبة استطاعت أن تنتهز فرصة ضعف سوريا ، هى أرمينيا فى حكم ملكها الطموح طغرانيس الذى فتح سوريا عام ٨٣ قبل الميلاد . وظهرت دولة جديدة فى ذلك الوقت على شواطىء البحر المتوسط هى الجمهورية الرومانية ، التى لم تكن دولة غازية كما كانت دولة الإسكندر ، بل كانت أشبه بديموقراطية ضيقة الأفق الفكرى ، همها الأول أن تنجح فى تجارتها ، وتضمن أمنها الداخلى .

ولقد غزا الرومانيون إيطاليا ليحافظوا على سلامتهم ، ثم حاولوا أن يفرضوا حماية على كل البلاد التى تقع على شواطىء البحر المتوسط لهذا السبب أيضاً ، وليصدوا كل من تحدثه نفسه بالعبث بسلامة تجارتهم . ولقد اضطرت روما اضطراراً إلى الغزو والتوسع بحكم الظروف ، حين هدد المنافسون الأجانب سلامة التجارة ، إما بالمنافسة التجارية كما فعلت قرطاجنة ، أو بالقرصنة فى البحار التى مرت بها التجارة الرومانية ، كما كانت الحال فى بلاد « بونتوس » فى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى .

ولأن إيطاليا شبه جزيرة طويل ضيق ممتد السواحل ، اعتمدت بالضرورة على قوتها البحرية لحفظ سلامتها وتجارتها الخارجية ؛ ولو أن هذا لم يعترف به فى روما إلا إعترافا بطيئا على مضض . وفطن الناس بالتدريج إلى أن حرية إيطاليا ورخاءها ، وهما يتضمنا حرية روما ورخاءها ، يتوقفان على السيطرة على البحر المتوسط ، ويجعلان من الضرورى مراقبة نشأة أية دولة عظيمة على شواطئه ، يمكن أن تقطع المواصلات البحرية ، ولقد حدثت محاولة لإنشاء مثل هذه الدولة عام ١٦٨ قبل الميلاد حين حال أنطيوكوس إيبيفانيس السيليوقى Seleucid Antiochus Epiphanes أن يغزو مصر . لحين عسكر تحت أسوار الإسكندرية ، وصل رسول من روما ينذره بالعودة ، ففعل ذلك متلكئاً ، لأن روما فى ذلك الوقت كانت قوة عملاقة . ومن هنا رأى السيليوقى من الحكمة ألا يتحداها .

ثم أحس « مثريداتيس السادس » ملك « بونتوس » فى نفسه مطامح الغزو ، فاحتل آسيا الصغرى ، وذبح عدداً من المواطنين الرومانيين ، ثم غزا بلاد الإغريق ، على حين انتشر القراصنة البونتوسيون فى شرق البحر الأبيض المتوسط ولم يكن للرومانيين رغبة فى التدخل فى السياسة

الشرقيه ؛ ولكن هذا أرغمهم على التدخل ؛ فبدأت الحروب المثريداتيسية التي انتصر فيها الرومان تحت قيادة بومبي عام ٨٣ قبل الميلاد . وقد أرغمت هذه الحوادث روما على الدخول في النزاع السياسي المتشابك فيما نطلق عليه الآن الهلال الخصيب ، وفي عام ٨١ قبل الميلاد جذبتهم الحوادث مرة أخرى إلى التدخل ، حين مات الإسكندر الثاني ملك مصر ، وأوصى بملكه أن يئول إلى الشعب الروماني .

وكانت سوريا في ذلك الوقت قد توقفت منذ زمن طويل عن أن تكون خطرا ، فقد انجلى النفوذ البارثي عن العراق وسوريا حين اضطر البارثيون أن يواجهوا الضغط على حدودهم الشرقية ، وكانت سوريا تحت حكم السيليوقيين المتحللين في حالة قريبة من الفوضى .

فكانت القبائل العربية هي السيد الحقيقي للبلاد ، حيث جاس أكثرهم خلال الديار يقطع الطريق ، واستقر آخرون في الأرض التي فتحوها ، وأسسوا بها ولايات محلية .

وكان بومبي قد أكمل الحروب المثريداتيسية ، وارتقى « انطيوكوس أسياتيكوس » آخر السيليوقيين العرش ، وظن أن من المناسب أن يحصل على اعتراف شكلي من روما . فأجاب بومبي على هذه الرغبة بأن روما لاتستطيع أن تعترف بأي ملك لايستطيع أن يحفظ الأمن في بلاده ، وكان من الواضح في ذلك الوقت أن السيليوقيين لا يستطيعون أن يفعلوا هذا . وهكذا ضمت سوريا في عام ٦٥ قبل الميلاد ، وجعلت أقليما رومانيا يحكمه نائب أول واجبه أن يحمي الحدود من هجمات البارثيين ، صمم بومبي على أعتبار نهر الفرات حدا معترفا به بين الدولتين . ولكن الولايات العربية

التى تكونت على حدود سوريا الشرقية تركت لشأنها ، كما تركت الولاية الكبرى المعروفه باسم بلاد النبط ، ولو أن پومبى فى عام ٦٣ قاد حملة ضد العاصمة النبطية « بطرة » . وبهذه الطريقة خرجت سوريا من السيطرة الإغريقية السيليوقية ، وأصبحت جزءا من الإمبراطورية الرومانية . أما من الناحية السياسية ، فقد كان هذا تغيرا ، ولكن لم يكن هناك أى تغير من الناحية الثقافية ؛ فلقد كان النفوذ الرومانى إغريقيا بكل تأكيد ، كما كان نفوذ السيليوقيين تماما . واستمرت الحياة الثقافية فى العراق وسوريا فى طريقها غير متأثرة بالتحويل السياسى . ومنذ ذلك الوقت أصبح الرومان أنفسهم جلاب النفوذ الإغريقى إلى الشرق الأدنى .

٢ — أقاليم الحدود

حين أصبحت سوريا إقليما رومانيا ضمنت سلامتها من جارتين شرقيتين خطيرتين ، هما بلاد البارثين وأرمينيا . ولقد حمت الأسلحة الرومانية الحدود ، وعبرتها أحياناً إلى أرض الأعداء فحالفها النصر . وبدأت بهذا سلسلة طويلة من الحروب بقيت حوالى سبعة قرون ، تداولت الحدود فيها الأيادى كما تقضى الحظوظ فى الحرب . وظلت هناك أرض بين الفرات وجبال لبنان موضع نزاع ، كانت تصبح حينا إغريقية رومانية ، وحينا بارثية أو فارسية ؛ وهذه التقلبات السياسية تركت أثرها على الحياة الثقافية لهذه المنطقة .

لقد اعترف الامبراطور أغسطس بالفرات حدا فاصلا ، وسمح للولايات العربية أن تبقى دون أن يتدخل فى شأنها ، وظلت الأمور كذلك

حتى ولى تراجان ؛ ولو أن الطريق التجارى عبر العراق كان مقفلا تقريبا ، لأن البارثيين لم يستطيعوا السيطرة على القبائل المقيمة على الحدود . فقرر تراجان أن يبسط السلطة الرومانية إلى الشرق ، وأن يصلح من شأن الفوضى على الحدود ، فغزا العراق عام ١١٥ من الميلاد لهذا السبب ، وجعله إقليما رومانيا ، ثم غزا پارثيا فى السنة التالية ، وتقدم إلى دجلة فاحتل أديابين فى شمال العراق ، وجعلها إقليما باسم آشور ، وأخذ سيليوقيا كبرى المستعمرات الإغريقية على دجلة . ثم أخذ طيشفون عاصمة البارثيين القريبة منها ، وبلغ فم دجلة ، ولكنه أرجعته أخبار ثورة العراق فى المؤخرة . لقد أخمد الثورة ، وأحرق سيليوقيا والرها ، ولكنه مات فى ثامن أغسطس عام ١١٧ من الميلاد . ورجع خلفه هادريان عن هذه السياسة ، فسلم العراق وآشور ، وأعاد الفرات حدا فاصلا ، على حين لم تبق أرمينيا التى ضمت إلى الحكم الرومانى إقليما رومانيا ، وإنما أصبحت دولة تابعة .

لقد غزا البارثيون أرمينيا عام ١٦١ حين مات أنطونيوس بيوس ، وأجلسوا على عرشها أميرا أرسا قيسيا ، ثم غزوا سوريا ، وهزموا الجيش الرومانى هناك . ودفع هذا الرومانيين إلى العمل ، وذهب ڤيروس الذى كان شريكا فى الحكم مع ماركوس أوريليوس إلى الشرق ، ليقود الجيش بشخصه عام ١٦٢ . ومع أن البارثيين دافعوا بعناد عن الفرات ، تمكن الرومان أخيرا من اختراق العراق والتوغل فيه ، وحاصروا الرها ودوسارة ، وتقدموا إلى قلعة نصيبين على الحدود ، ثم أخذوا العاصمة البارثية « طيشفون » وهدموها . ولكن الجيش المنتصر عاد بطاعون هلك به الكثيرون . وقد حصل الرومان فى آخر الحملة على الجزء الغربى

من العراق ، وأصبح امير الرها تابعا لروما ، وجعلت مدنية حران حرة تحت الحماية الرومانية .

وفى عام ١٩٤ دخل سبتيموس سيفيروس العراق بجيش رومانى ، وجعله جميعه إقليما رومانيا كما كان فى عهد تراجان ، واتخذ نصيبين عاصمة لهذا الإقليم ، واستبقى الرها ولاية تابعة لروما . ولكن البارثيين رجعوا إلى الحرب فى عام ١٩٨ ، وتوغلوا فى العراق آتين على كل ما يصادفهم ، حتى وصلوا نصيبين فضربوا حولها حصارا . وكان الامبرطور سيفيروس قد بدأ رحلته عائدا إلى بلاده ، ولكن ذلك دعاه إلى العودة ، فأنقذ نصيبين ، وتقدم إلى بارثيا ، فأخذ سيليوقيا وطيشفون التى فر عنها الملك البارثى مع عدد من فرسانه ، تاركا وراءه الكنوز الملكية للرومان .

وكان لهذه الهزيمة أكبر الأثر على البارثيين ، وكان من نتائجها ثورة نشبت حوالى عام ٢١١ انتهت بخلع أسرة الأرساقيسيين ، وإعادة الملك إلى فارس تحت حكم العائلة الساسانية ، التى تدعى صلة النسب بملوك الحخمانيين(١) . وللحركات السياسية فى الشرق غالبا صبغة دينية ، وهذه الثورة الساسانية كانت وثيقة الصلة بإحيـــاء الديانة المزدكية وإصلاحها . فقد كان ملوك الفرس فى القديم ينتمون إلى طبقة من رجال الدين ، واعتبرهم الشعب أصحاب روح مقدسة ، ولكن ملوك البارثيين لم يكونوا من هذه الطائفة الممتازة . ففى خلال القرن الأول المسيحى كما يبدو ، حاول بعض البارثيين أن يقوموا بإصلاح دينى ، ولكن انحطاطهم الطائفى حال بينهم وبين تنفيذ الفكرة . ومنذ هذا التاريخ ، تساهل الناس فى مراعاة السنن الدينية ،

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية مادة Achaemenes

فخمدت النار المقدسة (Moses of Chorene, Hist. Armen., ii, 94) ودنست النـار ، من حيث إن جثث الموتى لم تحرق على الطريقة التى يقضى بها القانون الدينى المزدكى (Herodian iv '30)، وساءت سمعة رجال الدين (Agathias, ii, 26) . وكان الرأى بلاشك أن إرجاع الملكية القديمة نصف المقدسة لابد أن يبعث المجد القومى .

لقد كان أزدشير هو الساسانى الذى جلس على العرش الفارسى ، وكان من أول أعماله أن عقد مجلساً ، لمعالجة الانقسامات الداخلية ، التى دعت إلى تشعب الديانة المزدكية إلى فرق كثيرة ، ولينشىء نظاما دينيا رسميا . أما من جهة ، فقد استكمل البعث الدينى الذى كان يجمع القوى منذ سنين ، وأما من جهة أخرى ، فقد تعهد الملك بإعادة الهيبة العسكرية للبلاد ، بعد أن عبث بها الأرساقيسيون .

اشتغل أزدشير بين سنتى ٢٢٤ و ٢٤١ بإخضاع أنصار الأسرة الأرساقيسية المخلوعة ، ولكنه فى أثناء هذه المدة ، بعث عام ٢٣٠ تحديا إلى روما ، يطلب فيه من الامبراطور سيفيروس أن يعيد إليه كل أرض كانت تحت الحكم الفارسى يوما ما ، مثل سوريا وآسيا الصغرى ومصر ؛ وجعل يعد فى نفس الوقت لغزو سوريا . وكان هذا بالطبع إعلانا للحرب . ولكن أزدشير لم يكن قادرا على البدء فوراً ، لأنه لم يكن قد أخضع حزب الأرساقيسيين تماما . وفى سنة ٢٤١ مات وترك الملك والحرب كليهما لابنه شاهبور (٢٤١ — ٢٧٢) . ولقد عجلت حوادث أرمينيا بنشوب الحرب ، إذ أن الملك خسرو (وهو أحد أعضاء الأسرة الأرساقيسية وقد جاء به الرومان إلى العرش الأرمنى) اغتيل على يد رسل شاهبور . ورفض علية

القوم فى أرمينيا أن يعضدوا شاهبور ، وأعلنوا ولاءهم لأصغر أبناء خسرو ، واسمه تيريداتيس ، وكان مواليا أشد الولاء للرومان . واحتل شاهبور أرمينيا ، وهرب تيريداتيس إلى الرومان . ثم جعل الفرس أرمينيا قاعدة غزوا منها العراق وكبادوشيا وسوريا ، حيث أخذوا أنطاكية وخربوها ، ولكنهم توقفوا أمام الرها . ثم زحف الإمبراطور جورديان على الفرس ، وهزمهم وجعلهم يرتدون . فنشر ذلك جناحى روما حتى دجلة ، فلما واصل جورديان تقدمه هدد طيشفون عاصمة الفرس، ولكنه قتل عام ٢٤٤ ، وصالح خلفه الفرس على أن يأخذوا أرمينيا ، وتأخذ روما العراق .

ونشبت الحرب مرة أخرى عام ٢٥٨ ، وكانت الأمبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت تحت حكم الامبراطور فاليريان وابنه جالينوس . فلما أعاد شاهبور حركاته السابقة ، أعد فاليريان لغزو بلاد الفرس ، فاحتل طيشفون وتراجع الفرس أمامه ، ولكن الطاعون حطم الجيش الرومانى وعطله مدة طويله عن دخول العراق . وفى وقت غير محدد حوالى ٢٥٩ — ٢٦٠ تقابل مع الفرس أمام الرها ، فانهزم شر هزيمة ، وأخذ أسيرا هو وجيشه . وبقى سجينا فى يد الفرس حتى مات عام ٢٦٧ . حينئذ زحف الفرس على سوريا ، فأخذوا أنطاكية وخربوها ، ولم يوقفهم إلا قائد نصب نفسه ، كان يسمى كاليستوس أبحر من سيليسيا ، وذهب لنجدة پومبيوبوليس التى كان الفرس يحاصرونها ، فقتل منهم عدة آلاف ، وأخذ حريم شاهبور . وذلك مما جعل ملك الفرس يعود أدراجه سريعاً إلى بلاده ، ملقيا على الرها كل نقمته على ما أصابه من الرومان جزاء توغله فى أراضيهم . وفى أثناء الرجوع هوجم الفرس ، وخسروا خسارة عظيمة

على يد أذينة ملك تدمر . وبعد ذلك تحلل قائدان من قادة الرومان من ولائهما لجالينوس ابن الامبراطور فاليريان ؛ أحدهما كاليستوس الذى أنجد پومبيوبوليس ، والثانى ماكريانوس صاحب خزانة الجيش .

وأعلن كلاهما ولاءه لابنى ماكريانوس ، وهما فولفيوس ماكريانوس ، وفولفيوس كييتوس ، باعتبارهما شريكين فى الحكم ؛ وقد اعترفت مصر والشرق بهما ، إلا تدمر ، فقد بقيت على ولائها لجالينوس . ولكن فولفيوس ماكريانوس ذهب إلى الغرب ، ووقع قتيلا فى معركة مع منافس آخر ، على حين خان كاليستوس ولاءه لفولفيوس كييتوس ، الذى قتله أذينه . وهكذا بدأت تدمر تحت حكم أذينة تصبح عاملا فى سياسة الشرق الأدنى ، دون أن يتوقع أحد ذلك .

٣ — تأسيس جنديسابور

أرسل كثيرون من السجناء الذين أخذهم الفرس من فاليريان ليعملوا فى بناء خزان عظيم يسمى شادوران ، على نهر الدجيل أسفل تستر ، حيث لا تزال أجزاء منه باقية إلى الآن . وقد عومل هؤلاء السجناء معاملة كريمة ، لأنهم كانوا على ثقافة أو مقدرة فنية ، ولأن شاهبور كان يعترف بتفوق الرومان فى هذه النواحى ، ويأمل أن يستخدم السجناء فى أعمال المهندسين والبنائين والأطباء والمساحين وغير ذلك . وقد أسكن هؤلاء الأسرى فى ثلاث مدن ، حيث سمح لهم بالحيـــاة طبقاً لقوانينهم الخاصة ، والكلام بلغتهم الخاصة ، واتباع ديانتهم الخاصة . وكانت إحدى هذه المدن قريبة من سوسة ، أو شوسان ، التى ورد ذكرها فى العهد القديم (سفر

دانيال ٨ — ٢ ، سفر نحمياء ١ — ١ ، استر Esther ١ — ٢) ، والتى كانت إحدى المنازل الملكية ، واتخذت بلاطاً شتوياً للملك . أما معسكر الأسرى الذى كان قريباً من سوسة فقد سمى (به آن أنديوى شاپور) ، أو الشاپورية التى تفضل أنطاكية (تاريخ الطبرى ٢ — ٨٦١ — ٨٦٦)[1] أو جنديسابور ، أى معسكر شاهبور . ولكن السوريين سموها « بيت لاپات » أى دار الهزيمة . « وعلى مسيرة ثمانية فراسخ إلى الشمال الغربى من من تستر ، على الطريق إلى « ديزفول » ، تقع خرائب تسمى الآن « شاه آباد » ، على موقع جنديسابور . وقد كانت جنديسابور عاصمة خوزستان فى حكم الساسانيين » (Le Strange, The Lands of The Easterm Caliphate,236) . وإذ كانت سوسة مقراً شتوياً لملوك الفرس ، نقرأ أن « كل ملوك الساسانيين الذين ذكرناهم حتى هرمز بن نرسى قد سكنوا جنديسابور فى خوزستان » (المسعودى ، مروج الذهب[2] ٣ — ١٥٧) .

ولكون الأسرى أحراراً فى اتباع دياناتهم الخاصة ، تمتعوا بحرية دينية تحت الحكم الفارسى ، أكثر مما سمحت لهم القوانين فى الامبراطورية الرومانية ، لأن من كانوا مسيحيين منهم سمح لهم ببناء الكنائس، والقيام عليها ، على حين كانت المسيحية لا تزال موضـــع اضطهاد فى القوانين الرومانية . وكان فى إيرانيشهر إحدى المدن المخصصة للاسرى كنيستان . أقيمت الطقوس فى إحداهما بالإغريقية ، وفى الأخرى بالسريانية (Chron. de Séert, ed. Scher, in P. O , iv, 220 — 2201) .

---

(١) فى الطبعة الحسينية ج ٢ ص ٦٧ أن هــذه المدينة كانت تسمى « ابرانخرهسابور » المترجم .

(٢) طبعة المطبعة البهية التزام عبد الرحمن محمد سنة ١٣٤٦ هـ (المترجم) .

وتروى احدى الروايات أن أسقف أنطاكية ، ديمتريانوس ، كان أحد الأسرى . وقد سأله زملاؤه أن يعمل أسقفاً ؛ وأن يحمل لقب أسقف أنطاكية ، ولكنه رفض ذلك . حينئذ جعله البابا البطريق أسقفا على جنديسابور ، وأعطاه المكان الأول عند تكريس أى بطريق Catholicus . وهذا لقب أعطى أولا لأسقف سيليوقيا ، باعتباره رئيساً للكنيسة الفارسية . ولكن هذه الرواية مبنية على ما ورد فى (More's Liber Turnis, P. 7.) ، وهو مؤلف متأخر فى الزمن « يحفل بالمفارقات والتواريخ المخلوطة » (Labourt, Le Christianisme dans l'empire Perse, 20, Note 1) . ويبدو الكاتب كأنه يفرض أن أسقف أنطاكية (الذى لم يكن قد سمى بطريقا) كان أحد أعيان البلاط الملكى ، وهو أمر ما كان ليحدث فى حكم ڤاليريان ، وأن الكنيسة فى ذلك الوقت السحيق كانت كاملة التنظيم ببطاريقها وأساقفتها ومطارنتها ، وهو تطور لم يحدث إلا بعد مؤتمر نيسين .

٤ — ڤاليريانوس وقسطنطين

أصبح الرومان بعد هزيمتهم فى عام ٢٦٠ محوطين بأعداء كثيرين ، فلم يستطيعوا أن يخطوا خطوة واحدة لاستعادة سلطتهم فى آسيا ، وأصبح لتدمر هيبة خاصة ردحا من الزمن . لقد كانت المدينة حليفا لروما ، ولكنها لم تكن تحت الحماية الرومانية . ووصلت المنطقة التابعة لها إلى الفرات ، فاشتملت معبر سوسا الهام . ومنذ عهد الفوضى الذى مر به حكم السيليوقيين ، أصبحت المدينة مركزاً تجاريا رئيسيا ، على الطريق التجارى بين العراق وسوريا . وهكذا كانت غنية جداً . ولقد توخت الفن والمعمار الإغريقى — الرومانى ، ولكنها ظلت إلى حد كبير دولة شرقية . وتندر الكتابات

الأثرية الإغريقية فى تدمر ، ولكن الكتابات الآرامية التى صدرت بها الأوامر العامة غالبا ما تكون لها ترجمة إغريقية ملحقة بها . وبقى المدينة آلهتها المحليون ، واستعملت تقويماً زمنياً يجرى على ما يعرف باسم الشهور الآشورية .

لقد اتخذ أذينة لنفسه لقب ملك بعد عام ٢٦٠ ، واحتل مركز نائب مستقل للامبراطور ، تحت سيادة رومانية اسمية على أى حال . وفى عام ٢٦٤ عبر الفرات لينجد الرها ، ويستعيد نصيبين وحران من الفرس ، ثم زحف على فارس وهاجم طيشفون . وكان فى ذلك الوقت مستقلا ، وفى غاية الأهمية ، غير خاضع لروما إلا من الناحية الاسمية . ولكنه قتل عام ٢٦٦ — ٢٦٧ ، لا بتحريض حكومة رومانية غيرى كما يروى البعض ، ولكن على يد حفيد خائن ، لضغائن خاصة .

وعند ما مات أذينة ، تولت حكم تدمر أرملته الزباء ، التى ادعت السيطرة على مصر وآسيا ، ولو أن سلطتها فى الحقيقة لم تتعد سوريا وبلاد العرب . وانها حاولت أن تفرض سلطانها على مصر ، فغزت البلاد برغم المقاومة الشديدة ، على حين بسطت حكمها فى آسيا على كالسيدون أمام القسطنطينية . ومهما كان هناك اعتراف بالولاء لروما ، فالحقيقة أن تدمر أصبحت دولة منافسة ومعادية . فلقد نجح أورليان ، الذى كان أميراً نشطاً قادراً ، فى طرد التدمريين من مصر، وذهب إلى سوريا زاحفاً فى اتجاه تدمر. فانهزم التدمريون مع خسائر فادحة، على نهر العاصى Orontes بالقرب من أنطاكية ، وكذلك بعد أن صمدوا فى حمص Hemesa ؛ وعندئذ زحف الرومان عبر الصحراء إلى تدمر نفسها . وهنا فقدت الزباء أعصابها وهربت تبتغى ملجأ عند الفرس ، ولكنها أخذت واستحضرت أسيرة ، وعندها ألقت

تدمر يد السلم . ثم ثارت فى العام التالى ، ولكن أورليان رجع إليها فى سرعة لم تخطر على البال ، فأخذ المدينة وخربها . وهكذا استتب الأمر للرومان فى سوريا .

ومات شاهبور الأول ملك الفرس فى ذلك الوقت (٢٧١) ، فخلفه ابنه هرمز الأول الذى لم يحكم إلا مدة قصيرة هى عام واحد وأيام عشرة ، فحكم بعده بهرام الأول (٢٧٢ — ٢٧٣) . وفى أيامه ظهر مانى الملحد مؤسس المذهب المانوى ، فقتله الملك باعتباره خارجاً على الديانة المزدكية . وهو إما أن يكون قد صلب فى جنديسابور ، أو أن جسده قد سلخ بعد الموت وعرض جلده المحشو على باب هذه المدينة . على أى حال كانت هناك صلة بينه وبين جنديسابور . (تاريخ الطبرى(١) ٢ — ٦٥ ؛ Scher, Chron. de Séert, P. O. iv, 228.) . وأرسل بهرام عام ٢٧٣ مدداً للزباء ، ولكن هذا المدد لم يكن كافياً لنجدتها . فأثار ذلك عداوة روما ، ولكنه لم يكن مستعداً للحرب فبعث بسفارة للمصالحة . وكان الإمبراطور أورليان (٢٧٠ — ٢٧٥) مصمما على الدخول فى حرب مع الفرس على أى حال ، ليمسح العار الذى جلبه ڤاليريان ، وقد كان ذلك موضع تحبيذ الشعب الرومانى ، ولكن أورليان قتل قبل البدء فى المعركة (٢٧٥) .

أما بهرام الأول فقد خلفه على العرش الفارسى ملكان يحمل كلاهما اسمه : هما بهرام الثانى (٢٧٣ — ٢٧٦) وبهرام الثالث (٢٧٦ — ٢٩٣) ثم خلفهما نارسى (٢٩٣ — ٣٠٢) Narsai .

وبعد تقلبات عديدة فى الامبراطورية الرومانية، أرتقى دقلديانوس العرش

(١) الطبعة الحسينية

الامبراطورى عام ٢٨٤ . وفى أثناء حكمه (عام ٢٩٦) أعلن فارسى الحرب على روما بحجة استرجاع العراق وأرمينيا . فبعث إليه دقلديانوس أحد زملائه واسمه جاليريوس ، فانتصر الرومان هذه المرة نصراً مؤزراً ، ثم جنح الطرفان إلى السلم ، واتفقا على جعل نهر الخابور Abora حداً فاصلا بين الدولتين . واستولت روما على أقاليم خمسة وراء دجلة ; وارتقى الأمير تيريداتس الموالى للرومان عرش أرمينيا .

أما قسطنطين الذى خلف دقلديانوس عام ٣٠٦ فقد حكم حتى عام ٣٢٧؛ ولقد لاحظ شاهبور الثانى (٣٠٩-٣٧٠) الذى أصبح ملكا على فارس أن صعوبات كثيرة قد تجمعت حول روما ، فغزا العراق عام ٣٥٩ ، وحاصر آمد (*) Amida ، فأخذها بعد حصار طويل . وكان من الضرورى لروما أن تتدخل مرة أخرى ، ولا سيما أن مجهودات قد بذلت للإستيلاء على قلعة نصيبين على الحدود . وفى عام ٣٦٢ غزا الامبراطور جوليان بلاد الفرس على رأس جيش عظيم ، ولكن هذا المشروع عاد بنتائج مخيبة للأمل فلقد ذبح هو ،وهزم جيشه،ولم يخلص خلفه جوفيان بقايا هذا الجيش إلا بصعوبة. وبعد هذه الكارثة اضطر الرومان إلى شراء السلام بشروط مجحفة جداً ، واسترجع الفرس الأقاليم الخمسة التى استولت عليها روما عام ٢٩٨ .

وفى حكم هرمز لم تعد جنديسابور مقراً ملكياً ، وصارت بالتدريج إلى أطلال . وأخذ خلفه شاهبور الثانى الذى صد غزوة جوليان أسارى كثيرين من حربه مع الرومان ، ، وترك أرض الروم آخذا معه أسرى أسكنهم فى أرض العراق والأهواز وفارس والمدن التى بناها أبوه . وقد

* هى ديار بكر الحديثة .

بنى هو ثلاث مدائن وسماها باسمه إحداها فى أرض ميسان Maisan ، وسماها سدساپور، واسمها الآن « دير محرق » ، والثانية فى فارس، ولايزال اسمها سابور ، وأعاد بناء جنديسابور بعد أن خربت وسماها أنتيسابور ، (أو أنطاكية شاهبور) ، والمدينة الثالثة على ضفة دجلة وسماها « مروهابر » واسمها الآن أكبورا Akabora . Scher, Hist. Nestonièanre (Chron. de Séert. P. O, iv, 221) والكتاب المتأخرون مثل أبى الفرج يشيرون غالبا إلى شاهبور الثانى باعتباره مؤسس جنديسابور ، ولكن الأصح على مايبدو أن المدينة قد أسسها شاهبور الأول ، ثم أهملت حين تركها بلاط الملك فى أيام هرمز الثانى ، وأنها قد أعيد بناؤها على يد شاهبور الثانى .

إلى هنا كان النهلين من عمل السيليوقيين ثم الرومان . ثم يبدو بعد ذلك عامل جديد ، فقد أصبح انتشار الهلينية إلى الشرق فى القرن الرابع عملا مقصودا ، تقوم به الكنيسة المسيحية ، التى اتحدت مصالحها فى ذلك الوقت مع مصالح الامبراطورية الرومانية . ومن هذه النقطة نطرح تاريخ روما السياسى جانبا ، ونركز اهتمامنا على انتشار المسيحية .

الفصل الثالث

تراث الإغريق

١ — العلم الإسكندرى

لقد دفعت الحوادث السياسية غربى آسيا دفعة كبيرة إلى النفوذ الإغريقى . فقد ظلت سوريا قروناً تحت سلطة ملوك السيليوقيين ؛ ومع أن المتأخرين من ملوك هذه الأسرة كانوا ضعفاء وغير أكفاء ، كان الأوائل منهم على العكس . وصرفت الشئون العامة باللغة الإغريقية ، واضطر كل من رغب فى المشاركة فى الإدارة أن يتعلم الإغريقية ويستخدمها . ولكن هذا التهلين كان سطحياً من غير شك ، ونحن نعلم أنه كان كذلك ، ولكنه ترك طابعاً خاصاً . ثم أتى الحكم الرومانى ، فلم يجلب معه ثقافة جديدة ، ولكنه قوى النفوذ الإغريقى الموجود بالفعل . وأخيراً جاءت الكنسية المسيحية ، فكانت أكثر إغريقية فى نفوذها من السيليوقيين أو من الدولة الرومانية . ولقد وضعت الكنيسة يدها فى يد الدولة الرومانية بعد أيام قسطنطين .

ولكن الثقافة الإغريقية التى كانا ينشرانها لم تكن وافدة من أثينا ، بل كانت بؤرتها الإسكندرية من بلاد مصر . ولم تكن ثقافة هلينية ، ولكنها كانت تدور فى فلك الهلينية . ولا شك أن ثقافة الإسكندرية

تعتبر تطوراً طبيعياً وضرورياً لثقافة الإغريق القدماء ، ولكنها اتخذت لنفسها إتجاها مختلفاً . أما الفلسفة فقد بدأت تتخصص من أيام أفلاطون فى الدراسات الطبيعية تحت قيادة أرسطو ، وقد ركزت جهودها من بعد فى الطب والفلك والرياضيات . وكانت النظرة إلى هذه الثلاثة تعتبرها أطواراً للدراسات الطبيعية ، وبقى للفلسفة أن تعالج الحقائق الكامنة وراء ذلك ، التى تعتبر هـــذه العلوم المتخصصة جهات لها . وكان من هدف الفلسفة أن تكشف عن مفتاح نظام الطبيعة الذى كانوا يعتقدون أنه مكون من كل ضخم متناسق ؛ أما الوسائل التى اتخذت لتستخدم فى هذا البحث ، فقد حددها على وجه العموم استخدام المنطق استخداما مدققاً . وكان من معانى ذلك أن الطرق التى استخدمت فى العلم كانت صالحة لأن تستخدم فى اللاهوت أيضا ، وقد دعى هذا الفرض الكنيسة إلى أن تصير مبشراً بالثقافة العقلية الإغريقية ، بقدر ما كانت مبشراً بالديانة المسيحية .

ولقد أسست مدينة الإسكندرية على يد الاسكندر الأكبر عام ٣٢٣ قبل الميلاد . وكان موقعها مشغولا من قبلها بمدينة راقودة المصرية (Rakote) ، فكان هذا هو الإسم الذى أطلق على الإسكندرية فى اللغة القبطية الدارجة . وحين قسمت امبراطورية الاسكندر بين قواده ، كانت مصر من نصيب بطليموس سوتر ، وظلت فى يد الأسرة البطلمية حتى أخذها الرومان . وقد اتخذ بطليموس سوتر الإسكندرية عاصمة له ، وفعل الكثير فى سبيل جعلهـــا بؤره الثقافة الإغريقية والتفوق العلمى . وأنشأ بها المتحف الذى أصبح بعد قليل جامعة هلينية تنافس المدارس الأثينية القديمة . ويبدو أنه كانت هناك طائفة من الحكماء من قبل ذلك فى معبد عين شمس ، فتحول هؤلاء إلى المؤسسة الجديدة ، فأصبحت

هذه المؤسسة بذلك وراثة لحكمة المصريين . ويبدو أن هذا العنصر المصرى قد تشربه الجو الإغريقى ، حتى لقد أصبحت الإسكندرية وريثة أثينا ، اكثر مما كانت وريثة عين شمس . ومع هذا فقد العالم الإغريقى الاسكندرى خصوصيته التى كانت طابع الفكر الأثينى ، فجعل لنفسه طابعا عالميا ، وأبدى من نفسه ميلا ملحوظا إلى الفكر الشرقى . وبالرغم من تلك الخصوصية التى باهت بها الثقافة الإغريقية القديمة ، لم تسلم هذه الثقافة من النفوذ الشرقى ، حتى إن الكثير فى الحياة والأفكار الإغريقية يمكن إرجاعه إلى مصر وبابل . ويجب أن نلاحظ أنه بالرغم من أن الاسكندرية أصبحت ظاهرة الأثر فى تنمية الفكر الإغريقى فى ذلك العصر المتأخر ، لم يكن ذلك الأثر مقصوراً عليها ، فلم يكن محليا ولا وطنيا ولكن عالميا . ولم تكن الإسكندرية فى نظر المصريين أنفسهم جزءاً من مصر أبداً ، بل كانت دائما مستعمرة إغريقية ، أو كانت مركز قيادة الجنس الأجنبى الذى احتل مصر وحكمها .

لقد بنى بطليموس سوتر المتحف ، وألحق به مكتبة ، ولكن كرم خلفه بطليموس فيلا ديلفوس (٢٨٥ — ٢٤٧ ق م) أغنى هذه المكتبة ، حتى أصبحت عظمى مكتبات العالم القديم . وهى بمفردها جعلت الإسكندرية كعبة العلماء .

هذه الحياة الإغريقية العالمية التى نمت بعد أيام الإسكندر كانت متعددة الجوانب . فكان لها أدب من طبقة خاصة ، ونقد أدبى علمى . وتطورت بالفلسفة فى اتجاهات جديدة ، وانتجت بحثا حديثاً فى الطب والفلك والرياضيات والفروع الأخرى من العلم . كل أولئك كان متشابك العلاقات ، متجانس

الروح ، ويمكن اعتباره تطوراً من ثقافة الإغريق القدماء . ولكن من مصلحتنا هنا أن تركز انتباهنا على فروع ثلاثة هي الفلسفة ، والطب ، والفلك والرياضيات، باعتبار الأخيرين فرعا واحداً ، لتحالفهما على يدى نفس الأشخاص .

٢ — الفلسفة

كان أرسطو الفيلسوف معلم الاسكندر ، ولكن حياته كانت أكثر صلة بأثينا منها بالإسكندرية ولقد نفذ أثره فى الفكر الإغريقى ، فكان هو المسئول عن توجيه وجهة الدراسات الطبيعية والرياضية ، ولو أن ميوله العلمية كان لها سوابقها فى الفلسفة السابقة .

وآخر نوع من أنواع الفلسفة الإغريقية ، أثر أثراً عظيما فى تفكير الإغريق حين وجدت الصلة بينه وبين العرب ، هو ذلك الذى عرف باسم الأفلاطونية الحديثة . وكانت هذه المدرسة الفلسفية مغرمة بإرجاع نسبها الفكرى إلى فيثاغورس الذى يعتبر نصف أسطورى (٥٨٠ — ٥٠٠ ق م) وينسب إلى جزيرة ساموس ، أو إلى صور ، وهو إذا لم يكن تلميذاً لطاليس فقد زاره وتأثر به على الأقل . ويقال إن طاليس درس العلوم الطبيعية والرياضيات فى مصر ، ويوصف فيثاغورس بأنه تبعه ، فذهب إلى مصر وتعلم على كهنتها ، وكان من بين ما تعلمه على هؤلاء الكهنة مذهب التناسخ (قارن هيرودوت ٣ — ١٢٣) فحين رجع إلى بلاده وجد أن ساموس قد استبد بها بوليقراط الطاغية ، ومن ثم هاجر إلى المدن الإغريقية فى جنوب إيطاليا ، واستقر فى « كروتون » . وهناك أنشأ

مدرسة فى صورة جمعية تجرى على سوابق مصرية . وقد كانت ممتلكات الجمعية شركة بين أعضائها ، وكانت تعاليمها سرية بالنسبة للعالم الخارجى فدعا هذا إلى الشك فيها ، والظن بأنها جماعة ذات ميول سياسية انقلابية . ولهذا وقع عليها اضطهاد ، فهرب فيثاغورس إلى « ترينتوم » ثم إلى « ميناپونتوم » وانحلت الجمعية ، ولكنها استمرت باعتبارها مجموعة فلسفية إلى ما يقرب من قرنين من الزمان ؛ على أنها لم تجعل آراءها سرية . وأول من خرق قانون السرية هو فيلولاوس (٤٠٠ ق م) ؛ وفى الحقيقة إن السرية كانت غريبة غرابة تامة على الأفكار الإغريقية . وبعد القرن الرابع قبل الميلاد ، حين كشف فيلولاوس عن مذهب المدرسة الفيثاغورية المستور ، لم يعد لهذه المدرسة ما كان لها من الأهمية . واتخذت المدارس أو النوادى الفيثاغورية فى المدن الإغريقية فى جنوب إيطاليا صبغة سياسية قوية العداوة للديموقراطية فى روحها . وفى وقت ما خلال القرن الرابع حدثت ثورة ضد الفيثاغوريين ، أصبحت المدن فى هذه المنطقة أثناءها مسرحاً للقتل ، والتمرد المسلح ، والفوضى من كل نوع (بولوبيوس ٣ — ٢٩ ، سترابو ٨ — ٧ — ١ ، جستين ٣٠ — ٤)، ويظهر أفلاطون ميوله إلى الأفكار الأورفية ، (١) ثم إلى الأفكار الفيثاغورية ، وعلى الأخص فى كتاباته المتأخرة . إن المدرسة القديمة كانت أكثر فيثاغورية من أفلاطون ، ولكن المدرسة الحديثة اتجهت اتجاها مخالفا . وليس من الواضح ما إذا كان مذهب خلود الروح قد وفد من مصر عبر وسط فيثاغورى ؛

---

(١) نسبة إلى أورفيوس الشاعر الذى قال بالتناسخ ودعا إلى التقشف لتطهير الجسم (المترجم) .

ولكن معظم الإغريق الذين تقبلوا هذا المذهب كانوا على صلة بالمذهب الفيثاغورى .

وفى حوالى ١٠٠ ق م حدث بعث للمذهب الفيثاغورى ، وظهر عدد من المؤلفات ذات الأسماء المستعارة ، تتضمن وصفا لتعليمات فيثاغورس وتشتمل على مجموعة من الأمثال الشعرية التى سميت « أشعار فيثاغورس الذهبية » ؛ ولا يبدو مطلقاً أن مدرسة فيثاغورس قد ثبتت أقدامها فى روما . وفى هذه التعاليم الأكثر نضجا نجد أن الروح مكونة من أجزاء ثلاثة ، لا خلود إلا لأولها فحسب ؛ تلك هى « نوس » (Nous) ، و « توموس » (thumos) ، و « فرينيس » (phrenes) . واعتبرت الطبيعة حية كلها ، تنبعث الحياة فيها من الحرارة ، فكانت الشمس والنجوم آلهة لكونها مركز الحرارة . أما حركات الأجرام السماوية فإنها تضبطها الأعداد ضبطاً منسقا — وهذه فكرة مصرية الأصل — ولهذا كان بعض الأعداد مقدسا فى طابعه ، كما هى الحال فى العدد ١٠ ، الذى يمثل مجموعا هرميا من أربع طبقات (٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ = ١٠)، ويخطر هذا الاعتبار للأعداد فى كتابات « فيلو » وبعض الفلاسفة المتأخرين . وتظهر كل هذه الأفكار مرة أخرى فى كتابات فلاسفة الأفلاطونية الحديثة بعدذلك، وهؤلاء يبدو نفوذهم على العرب واضحا. لقد كانت التعاليم الفيثاغورية منذ البداية تهتم كثيراً بالرياضيات ، أما القسط الهندسى من هذه التعاليم ، فقد جعل همه الأكبر فى قياس المناطق . ثم اتجه السوفسطائيون الأثينيون إلى هندسة الدائرة ، وكان الفيثاغوريون قد أهملوها ، وهذا البعث الفيثاغورى كان له أكبر الأثر على أثينا فى الأوقات اللاحقة ، ويبدو أنه كان ذا نفوذ على الاسكندرية كذلك .

وقد تعلم الأفلاطونيون المحدثون المذهب الفيثاغورى فى شكله هذا . فكتب « فورفوريوس » و « ياmليخا » (Iamblichus)، وكلاهما من قادة الأفلاطونية الحديثة ، سيرة فيثاغورس؛ وكانت الأفلاطونية الحديثة نفسها نمواً طبيعاً ومنطقيا للفكر الإغريقى ، ولم تكن ضيفا شرقيا عليه ، وهى انتقائية فى طابعها (eclectic). وكذلك كانت الفلسفات المتأخرة جميعا ، وتجمع النظم التى وضعها أفلاطون وأرسطو والرواقيون تحت حماية فيثاغورس ، ولقد لقيت أوضح تحديد لها فى تعليمات أفلوطين وتلاميذه .

أما نومنيوس الأبامى ، وهو فيثاغورى محدث (١٨٠ — ١٦٠ قم) ظهرت تعاليمه فى اقتباسات يوسيبوس (Praep· Evang, xi, 10, xviii, 22, xv, 17)ومراجع أخرى مثل(Porphyryin Stob. Fal- i, 83)، فيجب أن يعتبر مبشراً بالأفلاطونية الحديثة . فلقد كان أول فيلسوف إغريقى يبدى عطفاً على الديانة اليهودية ، فيصف أفلاطون بأنه موسى يتكلم باللهجة الأتيكية (Clement Alex-, Strom - i, 342, Eusebius Prap. xi 10) ، وهو يبدى ميلا شديداً إلى النقد الدينى ، كالذى تصطبغ به الأفلاطونية الحديثة ، ولا تختص به ؛ وفى الحق إن ذلك النقد يبدو واسع الانتشار فى القرن الثانى وما بعده .

وللأفلاطونية الحديثة سلف فى آمونيوس ساكاس ، أو ساكوفورس ، الذى سمى بذلك لأنه كان حمالا فى صباه . وقليل ما نعرفه عن حياته ، ومرجعنا الرئيسى إليه ما اقتبسه يوسيبيوس عن فورفوريوس (Hist. Eccl. 6, 19, 7) ، حيث يقول : إنه كان مواطناً اسكندرياً مسيحياً ، أخذ العقيدة عن أبويه ، ولكنه حين بدأ فى دراسة الفلسفة

غير آرائه ، فأصبح وثنياً ؛ مع أن يوسيبيوس ينكر هذه الدعوى الأخيرة (ib. 6, 19, 9) .

ولقد أشار بعضهم إلى أن يوسيبيوس يخلط بينه وبين آمونيوس آخر، معاصر له ، إسكندرى أيضاً ، كان هو المحرر لتوفيق بين الأناجيل ، يضع البشارة مطابقة لما فى متى ، ثم يرفق بها مقطوعات ذات صلة بها من الأناجيل الأخرى .

وقد اعتبر هذا أساساً لما عرف من بعد باسم مقطوعات آمونيوس . يقول هيرونيموس : « de consonantia Moysi et Iesu opus elegans et evangelicos canones excogitabirt» (de vir. illust. 55) فيبدو أنه كان هناك شخصان معاصران كلاهما من الإسكندرية ويسمى آمونيوس . ويرى لونجينوس وفورفوريوس أن آمونيوس هذا الذى تتكلم عنه لم يكتب أى كتاب ، كما فعل ذلك فيثاغورس ؛ أما أمونيوس الآخر فقد كتب كتباً كثيرة . ومن تلاميذ آمونيوس أوريجين ، وأفلوطين ، وهرينيوس ، ولونجينوس الناقد ، وهرقل ، وأوليبيوس ، وأنطونيوس ، ولكن ربما لم يكن هؤلاء جميعا تلامذة لآمونيوس واحد . ويقول فورفوريوس إن تعاليه قد ظلت سرية — وهذه فكرة فيثاغورية — وأنه قد أخذ المواثيق على تلاميذه ألا يذيعوها ، ولكن هذه المواثيق لم يبر بها إثنان من تلاميذه ، هما هرينيوس أولا ، ثم أوريجين . وكان هناك شخصان باسم أوريجين ، أحدهما الكاتب المسيحى المعروف ، والثانى فيلسوف وثنى ، ولكنهما كانا متعاصرين من الإسكندرية . ولكن أوريجين المسيحى ، وهرقل ، ربما كانا من تلاميذ آمونيوس الذى حرر التوفيق بين

الأناجيل . ويقول هيروكليس (apud Photius) : إنه حاول أن يوفق بين أفلاطون وأرسطو ، وقد فعل جميع الإسكندريين المتأخرين ذلك . ويأتى نيمينيوس ، أحد الأساقفة والأفلاطونيين المحدثين ، فى أواخر القرن الرابع باقتباسين ؛ أحدهما من نومينيوس وآمونيوس والآخر من آمونيوس على انفراد ؛ وكلا الإقتباسين يدور حول طبيعة الروح وعلاقتها بالجسد . فإذا كان آمونيوس لم يخلف وراءه كتباً حقيقة ، كان هذان الاقتباسان إشارة إلى رواية تعاليمه فحسب . ونسبتهما إلى آمونيوس هنا ذات دلالة معينة .

وكان أفلوطين مصرياً من ليكوپوليس ؛ أوسيوط ، التى تعرف باسم « أسيوط » ، حيث ولد حوالى عام ٢٠٠ بعد الميلاد (Eunatius, Vit. Soph. p. 6, Suidas, sub. voc. puts his birth at Nicopalis)
وقد التحق بمدرسة الإسكندرية فلم يعجبه التعليم بها ، حتى أخذه صديق له ليستمع إلى آمونيوس ساكاس ، فلما سمع محاضرته ، وقر فى نفسه أنه قد وجد المعلم الحقيق ، وكان حينئذ فى الثامنة والعشرين من عمره ؛ وبقى مع آمونيوس إحدى عشرة سنة . وكانت المقابلة بينه وبين آمونيوس نقطة تحول فى حياته ، حتى لقد حددت له نقطة البداية فى مذهبه ؛ ولكن آمونيوس لم يؤلف كتباً ولم يبذل مجهوداً لنشر تعاليمه ، مفضلا أن يعلم فى عزلة ، مع أخذ المواثيق بمراعاة السرية . ولقد كان من بين نتائج تعاليم آمونيوس أنها جعلت أفلوطين حريصاً على الوصول إلى معلومات أدق مما كان له عن معتقدات الهنود والفرس . وكان احترام الفكر الشرقى ، والاهتمام به ، إحدى خصائص مدرسة الإسكندرية التى ورثها الأفلاطونيون المحدثون

عنها . وصحب أفلوطين حملة الأمبراطور جورديان إلى بلاد الفرس ، ليشبع هذه الرغبة ، عام ٢٤٢ ، وهى حملة باءت بالفشل ، وكان من نتيجتها موت الأمبراطور . وقد وجد أفلوطين صعوبة فى الوصول سالماً إلى أنطاكية. ثم ذهب إلى روما وكان عمره حينذاك أربعين عاما ، فحاضر بها عشر سنين، وكان له مستمعون كثيرون ، وبعضهم من أعضاء مجلس الشيوخ ، وبعض آخر من قادة المواطنين . ولكنه اقتدى بآمونيوس مدة طويلة ، فعلم تلاميذه فى عزلة ، دون أن يكتب شيئاً أو ينشره . بيد أنه بدأ يكتب فى عام ٢٥٤ ، وفى عام ٢٦٣ أصبح فورفوريوس أحد مستمعيه ، قدمه إليه آميليوس الذى استمع له أربعة وعشرين عاما ، وبقى فورفوريوس معه ست سنين . وكان أفلوطين قد كتب واحداً وعشرين كتاباً من تساعياته (Enneads) حين التقى به فورفوريوس وكتب خلال السنوات الست التى اجتمعا فيها أربعة وعشرين أخرى ، يعتبرها فورفوريوس خير ما كتب ؛ وكتب فى البقية القصيرة من حياته تسعة أخرى . ثم مات فى عام ٢٦٩، بعد أن أكمل التاسعة والستين من عمره ؛ وحدث موته فى خلال دورة طاعون ، ولكنه لم يمت بسببه ، وإنما يبدو أنه مات لحرمانه من خدمات القائمين على خدمته ، إذ ماتوا فى هذا الطاعون . ولما وجد نفسه فريسة المرض ، ذهب إلى كامبانيا ، حيث أقام فى بيت وهبه له الطبيب العربى زيد (Zethus) ، الذى كان أحد تلاميذه ، وهناك قضى فى سلام .

وقد ربط الأفلاطونيون المحدثون أنفسهم فيما بعد ببعث الوثنية ، الذى كان نشطاً فى ذلك الوقت ، كما فعل آميليوس تلميذ أفلوطين ، ولكن أفلوطين ظل بمعزل من هذا . أما التساعيات ، فقد وصلت إلينا فى صورة أعيد ترتيبها ، وروجعت على يد تلميذه فورفوريوس ، الذى يعطى فكرة

عامة عن ترتيب آخر لهذه الكتب ، بحسب تواريخ ظهورها ، ويظهر نمو الفكرة الأفلاطونية فى هذا الترتيب أكثر وضوحاً .

ومع أن أفلوطين قد تعلم فى الإسكندرية ، فإن تعاليمه قد نمت وتلاقاها الناس فى روما . ولقد اعتبرت الأفلاطونيـــة الحديثة فى وقت ما اسكندرية الجوهر ، ولكن ذلك مبالغة ، إذا لم يكن خطأ ، على الرغم من أن هذا المذهب يحتوى على عناصر تظهر فى تعاليم فيلو اليهودى الاسكندرى ، والغنوصيين الذين يبدو أنهم كانوا مصريى الأصل ، وكلمنت وأوريجين المسيحيين الإسكندريين . فقد كانت هذه التعاليم حقاً إنتقائية ، برغم دعواها أنها أفلاطونية ، ولقد حوت نقداً دينياً يقرب مما يبديه پلوتارخ ، وماكسيموس الصورى ، كما يقرب مما يظهر شائعاً تماماً فى ذلك العصر .

وفى تعاليم أفلوطين يظهر الجوهر الفرد (Monad) فى صورة الإله الأعلى ، والمنبع الأول للخير والنظام . والله موجود ، ولكنه غير محدود ؛ وبين الله والعالم عالم من الأرواح ، يخلق فلا يكون خلقه خيراً دائماً ، ولا منظما دائماً ، على حين نجد عالم الظواهر نفسه غير مادى ولا ثابت . وهذا شبيه بموقف الغنوصيين من مشكلة الشر ، فالخالق الذى يخلق ما هو واضح النقص ، لا بد أن يكون ثانوياً ، لا إلهاً أعلى ، ومن ثم لا يكون كاملا . وربما تحصل المعرفة بالإدراك الحسى ، ولكن عليا المعارف وحسناها ما جاءت مباشرة عن طريق الوحى .

والأفلاطونية الحديثة التى هى فى جوهرها مذهب التساعيات التى كتبها أفلوطين وإن كان خلفاؤه قد زادوا عليها ، قد فرضت نفوذها القوى على العالم الإغريقى الرومانى قروناً عديدة .

وقد انتشر الكتاب الرابع والسادس من التساعيات فى صورة مترجمة إلى السوريانية ، تحت اسم لاهوت أرسطو ، بين المسيحيين الذين كانوا يتكلمون السوريانية ، وعلى الأخص اليعاقبة ، وقبلهما المتقدمون من علماء بغداد من عصر ما قبل الكندى باعتبارها من أعمال أرسطو ، واعتبرها الكثيرون من المتأخرين كذلك . ومن السهل أن نرى قدر مساهمة هذه المادة فى خلق نغمة فكرية حلولية وصوفية ، كالتى تبدو فى الفلسفة الإسلامية .

وكان فورفوريوس سوريا (ولد عام ٢٣٣ ومات بعد عام ٣٠١) ، وكان اسمه الأصلى ملخوس بمعنى «ملك» أو «ملكى» ، ولكنه غيره حسب نصيحة من معلميه إلى باسيليوس ، ثم إلى فورفوريوس . ولقد تعلم فى أثينا بين يدى لونچينوس تلميذ آمونيوس ، ثم فى روما عام ٢٦٣ بين يدى أفلوطين . وبعد زيارة إلى صقلية عاد إلى روما ، وألقى محاضرات استعرض فيها فلسفة أفلوطين ، وتزوج من مارسيلا أرملة أحد أصدقائه ، إذ كان يهدف بزواجها إلى تعليم أبنائها فحسب . وكانت توجد فى ذلك الوقت فرق كثيرة اختلقت كتبا عن الوحى ، أرجعوها إلى مصادر قديمة من الثقات الممتازين ، فناقشها فورفوريوس ، وعلى الأخص كتاباً منها نشر بعنوان « زوسيموس » ، قصد به أن يعطى فكرة عن المذاهب الدينية الفارسية . ولقد أوضح أن هذا الكتاب لم يكن إلا اختلاقا محدثا ، وقد فعل ذلك بتطبيق قواعد نقدية صائبة . وقاده هذا البحث إلى نقاش مع المسيحيين ، حتى لقد رأى المسيحيون فى مؤلفاته قرونا عديدة بعد ذلك أكبر هجوم وجه إلى العقيدة المسيحية . ولقد بقى القليل فحسب من مؤلفاته فى هـــذا الاتجاه فى كتابات المؤلفين المسيحيين المتذرين

(apalolgetical writers) ولكن من الواضح أن طريقته فى التناول كانت على طريقة النقد التاريخى ، الذى كان قد نما فى مدرسة الاسكندرية . وقد طبق فى أحد كتبه (De antro nympharum) طريقة الشرح بالوصف القصصى فى قصة زيارة يوليسيس لكهف المخلوقات الخرافية (nymphs) فى أوديسا هوميروس (١٣ — ١٠٨ — ١١٢) وامتاز فورفوريوس باعتباره كاتبا ذا بصيرة صافية فى فهم معنى النص الأدبى الذى يعالجه ، وكانت له طريقة فى نهاية المرونة فى تقرير هذا المعنى . أما كتابه إيساغوجى (Isagoge) ، أو مقدمة مقولات أرسطو ، فقد استعمل قرونا عديدة فى الشرق والغرب باعتباره أوضح المتون التى تتناول منطق أرسطو ، وأضبطها من الناحية العملية . حقا إن هذا المنطق قد لقى شهرة عظيمة بامتياز عرضه فى إيساغوجى . أما كتابه الجمل (Sententiae) فيستعرض أعمال أفلوطين بمرونة فى التعبير ، ولكنه يهتم بتعاليمه الأخلاقية. ولقد كتب تاريخا للفلسفة لا شك أن كتابه حياة فيثاغورس الذى لا يزال موجوداً قد كان جزءاً منه . وكان ككثير من الأفلاطونيين المحدثين نباتيا وزاهداً ، وهذا ما يطابق التقاليد الموروثة عن فيثاغورس ، كما تبدو فى حياة أبولونيوس التيانى ، وهو مصلح دينى وخلقى عاش فى القرن الأول . ويتناول أحد مؤلفاته (« الحمية » De abstinentia) المثل الزهدية ، وهو لا يوصى بالامتناع عن اللحم بالنسبة للجميع ، إذ يعترف أن ذلك لا يوافق الجنود والرياضيين ، ولكنه يوصى به المشتغلين بالفلسفة . وهو يستنكر تقديم القرابين الحيوانية ، إذ يعتبر ذلك بعثاً بربرياً للأيام التى كان للناس فيها أفكار خاطئة عن الآلهة ، وصدى للقرابين الإنسانية ، التى بطلت منذ أيام الامبراطور هادريان ؛ فالقرابين

الحيوانية فى كثير من الحالات بديل عن القرابين الإنسانية . وللحيوان قسط من العقل ، ومن ثم كان له قسط من الحقوق ، فهو لا يوجد لخدمة الإنسان فحسب . وكان الامتناع عن طعام اللحم من رياضيـــات فوقة البنائين من اليهود ، والكهنة المصريين ، وطائفة (Sarmanoi) الهندية ، ويقصد بها الكهنة البوذيون ، الذين أخذ معلوماته عنهم من برديزان السورى ، الذى اتصل ببعثة هندية ذاهبة إلى روما (فورفوريوس abstinentiae ٤ — ١٨) . وهو يرفض مذهب تناسخ الأرواح الذى جعل الفيثاغورية سخرية بالنسبة لكثير من الناس . ولقد ألف كذلك مؤلفات عديدة فى النفس والرياضيات .

وكان يمليخا (Jamlichus) السورى الذى مات حوالى ٣٢٠ تلميذاً لفورفوريوس فى روما ، وخلفه فى قيادة الأفلاطونيين المحدثين ، وقد نسبت إليه قوى خارقة للطبيعة ، فقد قيل أنه كان يرتفع فى الهواء أثناء عبادته ، وتتحول صورته ، وسأله تلاميذه عما إذا كان ذلك حقاً ، فضحك وقال : إن ذلك ليس له ظل من الحقيقة ـ وكان باعتباره كاتبا دون مستوى فورفوريوس ، إذ كانت له عيوب وغموض فى الأسلوب ، ولكن الامبراطور جوليان اعتبره قرين أفلاطون (« مفكر يصغره فى الزمن لا فى العبقرية ، أقصد يمليخا القنسرينى » (Julian Orat 4,o3 the Sun King 146 A) ؛ ويبدو أنه كان صاحب شهرة فى بعض الأوقات . ولقد كتب مؤلفا يستقصى الفلسفة من عهد فيثاغورس ، بقيت بعض أجزائه ، وفيها ترجمة لحياة فيثاغورس . أما كتابه (Logos Protreptikos) ، فهو دفاع عن الفلسفة ، يحتوى أغلبه على مقتطفات من

أفلاطون وأرسطو والأفلاطونيين المحدثين . وألف إلى جانب ذلك ثلاثة كتب في الرياضيات .

وقد تفرقت مدرسة يمليخا بموته عام ٣٣٠ ، ولكن آيديسيوس خلفه في برجاموم من بلاد ميسيا ، وكان مربيا لأبناء يوستاثيوس ، وهو نبيل روماني بعث به في سفارة إلى البلاط الفارسي . وكانت الامبراطورية الرومانية قد اعتنقت المسيحية في ذلك الوقت ، فاضطر الفلاسفه الذين بقوا على الوثنية أن يخفوا ميولهم الدينية . وكان الامبراطور چوليان من بين تلاميذ آيديسيوس ، فحاول أن يبعث الوثنية المتداعية ، ولكنه لم يأت بنتيجة حاسمة ؛ وتعلقت آمال الطائفة الوثنية بالأفلاطونيين المحدثين . ولقد شرحت هيباثيا (ماتت ٤١٥) مذهب الأفلاطونية الحديثة في الاسكندرية ، ولكن الفكر الاسكندري في الغالب لم يتعلق كثيراً بالأفلاطونية الحديثة . واستمر هيروكليس (حوالى ٤١٥ — ٤٥٠) في إلقاء هذه التعاليم من بعدها ، وكان تلميذاً من تلاميذ پلوتارخ الأثيني (مات ٤٨١) الذي يبدو أنه كان مسئولا عن بدء الأفلاطونية الحديثة في أثينا ، التي أصبحت منذ ايامه فصاعداً داراً لهذا المذهب . وقد خلف پلوتارخ في أثينا سريانوس الاسكندري ، وجاء من بعده پروكلوس (٤١٠ — ٤٨٥) من أبناء القسطنطينية ، بعد أن تعلم في الاسكندرية ، واستمر في تعلمه في أثينا بين يدي پلوتارخ وسريانوس . وقد ألف كتاباً عن اللاهوت الأفلاطوني ، وآخر يسمى العناصر اللاهوتية ، يشتمل على تعبير عن مذهب أفلوطين معدل في شكله ، استخرج منه اللاحقون من الأفلاطونيين المحدثين أفكارهم الفلسفية ، فعدوه لهذا تاليا في الأهمية لأفلوطين ، باعتباره حجة في نظريتهم . وكانت مدرسة أثينا ، وهي

فى ذلك الوقت دار الافلاطونية الحديثة ، وثانية فى السر ، وعلى وعى تام بضآلة التسامح الذى كانوا يعاملون به ؛ وكان من بين تلاميذه مارينوس الذى كتب سيرة حياته .

وآخر رئيس لأكاديمية أثينا داماسيوس ، وهو من أبناء دمشق كما يبدو من اسمه ، ولكنه تعلم فى الاسكندرية ثم فى أثينا ؛ ولقد أعلن أنه يقبل نظرية أرسطو فى خلود المادة ، معارضا بذلك العقيدة المسيحية فى الخلق ، ولهذا لم يرض عنه الامبراطور جوستنيان ؛ ولكن هذا كان قمة العداوة النامية فى صدور السلطات الامبراطورية لما أحست بصفة عامة من الميول الوثنية . وكان جوستنيان يتمثل لنفسه امبراطورية مركزة موحدة ، تتفق مع حاكمها فى الدين وفى كل شىء آخر . وقد أدى هذا الاستنكار الرسمى إلى نوع من الاضطهاد وقع على جميع الفلاسفة عام ٥٢٨ ، ثم أقفلت مدرسة أثينا فى السنة التالية ، وصودرت أوقافها . وقد هاجر سبعة من الفلاسفة المحرومين إلى فارس من بينهم داماسيوس ، فرحب بهم كسرى ، إذ كان من أشد الناس إعجابا بفلسفة الإغريق وعلمهم . ويبدو أن هذه الهجرة تمت فى عام ٥٣٢ . وقد توقع الفلاسفة السبعة أن يجدوا دولة مثالية تحت حكم ملك فيلسوف ، ولكن أملهم سرعان ما خاب ، واكتشفوا أن الطغيان الشرقى يستطيع أن يكون شراً من سلطة جوستنيان ، فتوسلوا أن يؤذن لهم بالعودة ؛ وحاول كسرى أن يغريهم بالبقاء ، ولم يرغمهم عليه ؛ فحين رجعوا عنوا بحشو مادة فى المعاهدة التى وقعها كسرى مع جوستنيان ، تضمن لهم حرية تامة للضمير ، وحماية من التحرش حيث يكونون فى ظل الحكم الرومانى . وكانت عودتهم عام ٥٣٣ .

وبالرغم من أن مدرسة أثينا كانت قد أقفلت ، استمر الفلاسفة الذين تعلموا فيها في المحاضرة ، وأنتج هم وتلاميذهم على السواء مؤلفات مكتوبة. ومن أظهر هؤلاء المتأخرين من الأفلاطونيين المحدثين آمونيوس ، ويوحنا فيلوبونوس . وكان آمونيوس تلميذ بروكلوس ، وقد وضع تعليقاً على ايساغوجي الذي ألفه فورفوريوس ، وقد أصبح مصدراً إغريقياً عاماً ، ورضيه النسطوريون فيما بعد . أما يوحنا فيلوبونوس (حوالى ٥٣٠) وهو تلميذ آمونيوس ، فقد كان فيما بعد من المعلقين على إيساغوجي ، وكان شرحه مفضلا عند اليعاقبة .

٣ — الرياضيات الإغريقية

إن شهرة إقليدس (قبل ٣٠٠ ق. م) أحد المتقدمين من علماء مدرسة الاسكندرية ساعدت كثيرا على جعل المتحف داراً للدراسات الرياضية . ويشمل «العناصر» ، وهو أهم كتاب له ، قسطاً عظيما مما ليس من ابتكاره ، ولكن هذا القسط ذو قيمة من حيث كونه ملخصاً لعلم الإغريق بالفلسفة ، منذ أيام فيثاغورس إلى أيامه هو ، مرتبا ترتيبا منطقيا منظما . وإنه ليعطى طريقة نموذجية للتعبير ، ولو أنها أكثر جمودا مما تعوده الرياضيون المحدثون. وتنسب إليه مؤلفات أخرى يشك في نسبة بعضها ، ومن بينها كتاب في البصريات ، ربما كان خاطىء النسبة ، أصبح فيما بعد يستعمله العرب .

أما أريسطارخوس الساموسى الفلكى (مات حوالى ٢٣٠ ق. م) ، فقد كان مدرسا في الإسكندرية . وكان أول من كشف عن طريقة إيجاد المسافات النسبية بين الشمس والقمر والأرض ، بواسطة المثلث الفيثاغورى.

على أن نتائجه لم تكن صحيحة حتى من الناحية التقريبية ، لعيب فى الآلات المستعملة . ثم إنه هو الذى جاء أيضاً بالفرض القائل إن الشمس لا الأرض هى مركز الكون ، وهى نظرية كوبرنيق فى القرن الميلادى السادس عشر . ولم يكن له أتباع فى فرضه هذا على ما يظهر ، ولكن فرضه لم ينس نسياناً تاما ؛ فقد ذكره البيرونى (حوالى ١٠٠٠ م) ، ولو أنه على أى حال لم يترسمه .

وكان إراطو سثينيس (الذى مات حوالى ١٩٤ ق . م) عالما ممتازا من علماء الإسكندرية ، وزعيم الجغرافيين فى العالم القديم . ولقد اخترع طريقة لقياس محيط الأرض وقطرها ، وضعت موضع التطبيق فيما بعد على يدى الخليفة المأمون عام ٨٢٩ ، ثم أعيد تطبيقها بعد ذلك ببضع سنين . ولتتم له هذه الطريقة لاحظ أن الشمس فى Syene أسوان عند الظهيرة كانت فى سمت الرأس مباشرة ، ولكنها فى نفس الوقت كانت فى الاسكندرية على ١٢ ، ٧° (سبع درجات واثنتى عشرة دقيقة) جنوب سمت الرأس ، واستنتج من هذا أن الاسكندرية تقع على ١٢ ، ٧° شمال أسوان على سطح الأرض . ولعلمه بأن المسافة بين هذين المكانين كانت ٥٠٠٠ غلوة (stadia) ، وأن ١٢ ، ٧° تعتبر واحدا على خمسين من محيط الأرض الذى هو ٣٦٠° ، استنتج أن محيط الأرض لابد أن يكون ٥٠ مضروبة فى ٥٠٠٠ غلوة ؛ أى أنه ٢٥٠٠٠٠ غلوة ؛ ولكنه غير ذلك إلى ٢٥٢٠٠٠ غلوة ، ليجعل لكل درجة ٧٠٠ غلوة بالضبط . وقدر بهذا أن قطرها يساوى ٧٨٥٠ ميلا بقياسنا ، وهذا صحيح بفرق يقع فى حدود خمسين ميلا . ثم قال إن المسافة بين المدارين $\frac{١١}{٨٣}$ احد عشر من ثلاثة وثمانين جزءاً من محيط الأرض ،

جاعلا انحراف سمت الشمس ٢٠"، ٥١'، ٢٣° (ثلاثا وعشرين درجة واحدى وخمسين دقيقة وعشرين ثانية) .

أما أرشميدس (الذى مات ٢١٢ ق . م) صديق إراطوسثنيس ، فلم يكن على صلة مباشرة بمدرسة الاسكندرية ، ولكن العرب عرفوا أعماله واستعملوها ، وعلى الأخص فى الرياضة :

وكان أپولونيوس البرجى (مات حوالى ٢٢٥ ق . م) ممن تثقفوا فى الاسكندرية ، وقد عنى بالقطاعات المخرطية ، فاستعمل فيها الأسماء الثلاثة الهليلجى أو (القطع الناقص(ellipse) والقطع المكافىء (Parabola) والقطع الزائد أو الطنب (Hyperbola) وقد عالج ذلك فى ثمانية كتب ، لا تزال أربعة منها موجودة بالإغريقية ، وثلاثة فى صورة عربية مترجمة ؛ ولكن الكتاب الأخير مفقود . والأربعة الأولى ، مثلها مثل عناصر اقليدس، ملخص للمادة كانت معروفة من قبل، وضع فى صورة منظمة ؛ وأما الخامس والسادس والسابع ، فإنهما تحتوى كثيراً من المادة الجديدة الناشئة عن بحثه الخاص . وقد ألف كتباً أخرى فى الهندسة .

أما نيقوميديس (حوالى ١٨٠ ق . م) ، فقد كان مؤلفاً ثانوى الأهمية ، مشهوراً بأنه اخترع المنحنى الصدفى Conchoid curve الذى يمكن بواسطته تقسيم الزاوية إلى أقسام ثلاثة .

واخترع ديوقليس (حوالى ١٨٠ ق . م) المنحنى القسوسى (Cissoid or ivy shaped) الذى يمكن معه مضاعفة المكعب ، ودرس مشكلة جاء بها أرشميدس تدور حول تقسيم كرة بسطح ، بحيث تكون أحجام الأجزاء واقعة فى نسبة معينة .

وربما كان هيبسيقليس الإسكندرى (حوالى ١٨٠ ق.م) مؤلفا لما نعرفه الآن باسم الكتاب الرابع عشر من كتب إقليدس ، وهو يحتوى على سبع نظريات عن المسطحات كثيرات السطوح المنتظمة المستوية (regular polyhedra) ولقد بحث كذلك فى الأعداد المضلعة Polygonal numbers وفى المعادلات غير المحددة (indeterminate equations) .

أما فى الفلك فقد وضع تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، ثم تقسيماتها الستينية من بعد ، ولو أنه أخذ ذلك عن عمل الفلكيين البابليين . ولقد ترجم قسطا بن لوقا مؤلف هيبسيقليس إلى اللغة العربية ، وراجعه الكندى من بعد ذلك .

ولم يكن هيبارخوس (مات حوالى ١٢٥ ق.م) ذا صلة مباشرة بالاسكندرية ، ولكنه عمل فى رودس بصفة رئيسية . وهو مؤسس علم الفلك العلمى الذى قضى بقياس الزوايا والأبعاد على الكرويات ، فوضع بذلك أساس قياس المثلثات الكروى (spherical trigonometry) . وقد صنع جدولا للأوتار ، والجيوب المزدوجة لنصف الزاوية ، وقد كانت مستعملة حتى جاء العرب بالنظام الهندى للحساب بالجيوب ، ولم يظهر قياس المثلثات البسيطة إلا فى الزمن اللاحق . ولقد وضع أيضاً بياناً (catalogue) عن ٨٥٠ نجما ثابتاً ، فكان ذلك بداية للفلك بمعناه الأخص .

وكان هيرون (حوالى ٥٠ ميلادية) الإسكندرى مخترعا لآلات متعددة ، ومؤلفا فى العدسات (dioptrics) ، والميكانيكا ، وحركات الريح (pneumatics) . ولقد اختص الكثير من عمله فى الميكانيكا بمسح

الأرض ، وأتى بقاعدة لأضلاع المثلث يمكن وصفها على النحو الآتى :

$$م = \sqrt{ح (ح - ا) (ح - ب) (ح - حـ)}$$

حيث نرى ح = ا + ب + حـ

= محيط المثلث

ويظهر فى هندسته القانون القائل :

$$م = \frac{ن}{٤} \times ظتا \frac{١٨٠^\circ}{ن}$$

حيث ن = عدد أضلاع المضلع المنتظم Polygon فى المساحة (م)
والضلع (س)

$$وحيث\ م = \frac{م}{ل^٢}$$

(م هى المساحة ، ل طول الضلع).

واستطاع أن يحل المعادلات التى يمكن وضعها على هذا النحو :

$$ا س + ب س = حـ$$

وقد ترجم قسطا بن لوقا أعمال هيرون إلى العربية .

وكتب مينيلاوس (حوالى ١٠٠ م) عن الكريات ، والمثلثات الكروية ، وكتب كذلك كتبا ستة عن حساب الأوتار . وقرر النظرية القائلة إذا قطع أضلاع المثلث الثلاثة ، كان مجموع أطوال الأجزاء الثلاثة التى لا تلتقى نهاياتها مساويا لمجموع أطوال الأجزاء الأخرى . ولم يكن مينيلاوس ذا صلة مباشرة بالإسكندرية ، ولكن المعروف عنه أنه حصل على بعض الملاحظات الفلكية فى روما .

ولم يكن نيكوماخوس (حوالى ١٠٠ م) أيضا على صلة مباشرة بالإسكندرية .

وقد كتب مؤلفا فى الموسيقى ، واثنين فى الحساب ، ربما كانا ملخصا لمؤلف أكبر قد فقد .

وكان ماريوس الصورى (حوالى ١٠٠ م) جغرافيا ، حتى لقد حسن طرق هيبارخوس ، وحدد الأماكن بواسطة خطوط الطول والعرض ، ولم يصل مؤلفه إلينا . ولكن مما شك فيه أن معظم ما فيه قد اشتمل عليه كتاب بطليموس .

ولقد جلس كلوديوس بطليموس (حوالى ١٤٠ — ١٦٠ م) للتعليم فى أثينا والإسكندرية كلتيهما ، وعرف مؤلفه الرئيسى باسم

μαθηματικῆs. συντά ξεωs β'βλιον πρῶτον

وكتب مؤلفا آخر سماه συνταξιs ولهذا أطلق العرب على مؤلفه الرئيسى ἡμεγίστη ، ثم وضعوا أداة التعريف فى الإسم فصارت التسمية إلى « الماجسطى » . وهو يأتى بملخص لكل المؤلفات السابقة فيما يختص بحجم الأرض ، ومواقع أماكن معينة عليها ، ويدخل بعض التحسين على جدول هبارخوس عن الأوتار ، ويتوسع فى استعمال الكسور الستينية .

ولقد قورن عمله فى الفلك بحق بعمل إقليدس فى الهندسة ؛ لأنه جاء بملخص مرتب منطقى لكل ما كتب من قبل ، ثم زاد فى بيان هبارخوس عن النجوم ، فارتفع بها من ٨٥٠ نجما ثابتا إلى ١٠٢٢ . وقد اعتبر الأرض فى دراسته الفلكية مركز العالم ، وخطط نظاما معقداً من المدرات والدوائر المختلفة المركز ، أو المرتكزة على محيط دائرة كبرى ، ليعلل حركات الأجرام

السماوية . وكان هذا النظام فى ظاهره حسنا إلى حد ما ، ثم ظهر بالاستقصاء أنه لم يكن كافيا فى نظر الفلكيين العرب ، الذين بذلوا بعض الجهود لتصحيحه، فكان أحسن تلك الجهود « الفلك الحديث » الذى ظهر فى الأندلس (أسبانيا العربية) فى القرن الحادى عشر : ولكن هذه التصحيحات لم تكن لواحد منها نتيجة مرضية ، حتى أعيد تخطيط الجميع ، بعد أن دلل كوبرنيق على أن الشمس هى مركز المجموعة التى نعيش فيها ، وأن الأرض والكواكب الأخرى تدور حولها . وكان كذلك مؤلفا لكتاب فى التنجيم أطلق عليه (Tetrabiblos) كان له نفوذ قوى على الفكر العربى . وترجم الكثير من مؤلفاته إلى العربية على يد يوسف الحجاج .

أما كتابه فى التنجيم (Titrabiblos) فقد ترجمه أبو يحيى البطريق ، وأما عمله فى الجغرافيا فقد كان أساسا لكتاب صورة الأرض الذى ألفه الخوارزمى ، ووضع فيه خرائط بطليموس مع بعض التعديل فى الشكل .

وكان ديوفانتوس الإسكندرى (حوالى ٢٥٠ م) مؤلفا فى الحساب لثلاثة عشر كتابا ، بقى لنا منها ستة ، مع مؤلف عن الأعداد المكعبة (Polygon numbers) إندثر جزء منه ، ومجموعة من القضايا الحسابية سماها « الفروض » (Porisms) . وتتناول أولى هذه القضايا نظرية الأعداد ، وتشتمل على علاج جبرى لمسائل حسابية .

ولم يعترف فى حل المعادلات المحدودة (determinate equations) إلا بالجذر (root) ، حتى لو كان الجذران موجبين . ويتناول كذلك بعض المعادلات غير المحدودة indeterminate equations ، وحالات معينة من المعادلات الآنية (simultaneons equations) . ولم يكن هو مخترع

الجبر على وجه التحديد ، ولكنه مهد الطريق له بتناوله الحساب تناولا وجه الذهن إلى الجبر .

وكان لعمله نفوذ على الرياضيين الهنود والعرب جميعا ، ولكن لم يتبعه أحد منهم تتبع الواثق الذى يسلك الطريق الذى فتحه هو . ولم تؤت طرقه ثمرتها فى أوربا حتى إعادة الكشف عن عمله فى القرن السادس عشر ، وبهذا وضع أساس الجبر الحديث .

وأما پاپوس الإسكندرى (حوالى ٣٠٠ م) فقد كتب ثمانية كتب هى مجموعات رياضية ، فقدت الأوليان منها ، وبقيت الست الأخرى . وتتناول ثلاث من هـذه الست التناسب والأحجام الماسة للأجسام (inscribed solids) ، وتضعيف المكعب (duplication of the cube) ، كما يتناول الكتاب الرابع الحلزونيات (spirals) ، والمنحنيات المستوية (plane curves) ، ويتناول الخامس الأشكال القصوى (maximum figures) ، والأشكال المتساوية المحيط (isoperimitric figures) ، والسادس الكرة (sphere) ، والسابع التحليل (analysis) ، والثامن الميكانيكا .

ويقال إن هيباثيا الإسكندرية (ماتت ٤١٥) ابنة ثيون الرياضى قد كتبت شرحا للجدول الفلكى الذى وضعه ديوفانتوس (ولعله شخص آخر غير ديوفانتوس الرياضى الشهير الذى ذكرناه) ، وشرحا لمخروطات أپولونيوس ، ولكن لم يبق واحد من هذين الشرحين .

تلقى پروكلوس (مات ٤٨٥) علومه فى الإسكندرية ، وعقد حلقات له فى أثينا ، وكتب كتبا كثيرة من بينها شرح لبعض ما وضعه بطليموس ،

ومؤلف فى التنجيم ، وآخر فى الفلك ، ثم تعليق على الكتاب الأول من العناصر لإقليدس .

٤ — الطب الإغريقى

إن تاريخ الطب الإغريقى بمعناه الأخص يبدأ بهيبوقريط الكوسى ، الذى مات فى سنة ٢٥٧ قبل الميلاد . وقد ظلت كتبه المسماة « التعريفات » (aphorisms) فى مقدمة المتون التى ينتفع بها الأطباء . وكانت هذه المجموعة من التعريفات من بين المؤلفات الطبية الأولى التى ترجمت إلى العربية على يد حنين بن إسحق الذى كان قادراً على استعمالها فى صورتها الإغريقية . وهناك ترجمة سريانية مجهولة الواضع نشرها پنيون (pognon) فى ليبزج عام ١٩٠٣ ، ولكن تاريخها لا يظهر عليها .

وفى أواخر عهد مدرسة الإسكندرية اعتبرت مؤلفات غالين (Galen) (مات ٢٠٠ م) حجة فى الطب ، واتخذت مختارات من مؤلفاته برنامجا رسميا لدراسة الطب . وقد استعيد هذا البرنامج فى مدرستى الرها وجنديسابور ، وأعدت نسخ سريانية ليستعملها الطلبة الذين يتكلمون السريانية ، وتم الكثير من هذه الترجمات السريانية على يد سرجيوس الرسعنى ، ثم راجعها من بعد حنين بن إسحق وأصحابه فى دار الحكمة ببغداد ، أو استبدلت بها نسخ غيرها أعدت فى هذه المدرسة . وهذه الترجمة إلى السريانية تقدمت فى الزمن على إعداد النسخ العربية ، ولكنها استمرت زمناً طويلا تستعمل إلى جانب الترجمة العربية . وكان غالين نفسه يباشر المهنة فى روما ، ولكن دراساته قد تمت فى سمرنة ، وكورنثيا ، والإسكندرية .

أما المؤلفون الإغريق من بعد غالين فى الطب فهم :

أوريباسيوس (ولد حوالى ٣٢٥) وكان للإمبراطور چوليان صديقا حتى لقد اختاره ليفضى إليه بذات نفسه حين لم ترضه المسيحية فعزم على أن يرتد إلى الوثنية . ويبدو أن هذا الخطاب (Julian, Epist., xvii) قد كتب عام ٣٥٨ . وكان مع چوليان فى غاليا ، وصحب هذا الأمير التعس الحظ فى رحلته إلى بلاد الفرس ، حيث حضر موته عام ٣٦٣ . وصودرت ممتلكاته بعد عودته من بلاد الفرس على يد ڤالينتنيان وأتباعه ، ولو أن أسباب هذه المصادرة ليست واضحة . ثم نفى إلى « أرض البرابرة » ، ولكن هذا النفى لا يمكن أن يكون قد استمر طويلا ، لأنه قد عاد عام ٣٦٩ . ولا تزال ثلاثة من كتبه فى الطب موجودة ، أحدها ملخص مهدى إلى ابنه يسطاثيوس فى تسعة أجزاء ، وترجمه إلى العربية حنين بن إسحق ، وكان معروفا عند على عباس ، واقتبس منه بولس الأجينى .

آيتيوس (نهاية القرن الخامس) وكان يعمل طبيباً فى القسطنطينية . ولا نعلم شيئاً عن حياته حتى عهد نشاطه فى المهنة ، ولكن المفروض أنه عاش فى أواخر القرن الخامس ، لأنه يذكر « سيريل » الاسكندرى الذى مات عام ٤٤٤ م ، وبطرس أرخياتر الذى كان طبيب ثيودوريك ملك القوط الشرقيين . وكان آيتيوس سوريا من آمد ، ومؤلفا لمختصر طبى فى ستة عشر كتابا ، تنقسم الآن إلى أربع مجموعات . وليس فى عمله كثير مما يعتبر أصيلا ، ولكن محتوياته قد أحسن اختيارها . وكان أول طبيب إغريقى يعطى عناية للتمائم والسحر .

بولس الأجينى ولعله عاش فى آخر القرن السابع ، ولا نعلم شيئاً عن حياته . يقول سويداس (Suidas) إنه كان مؤلفا لعدة مؤلفات فى الطب ، لا يوجد الآن إلا أحدها فحسب ، ويعرف باسم كتب الطب السبعة ، وترجمة حنين بن إسحق فكان شهيرا بين العرب باعتباره حجة فى القبالة ، ولهذا سموه كتاب « القوابل » .

آرون وهو قسيس وطبيب من الإسكندرية ، من هؤلاء الذين ليس لدينا معلومات عن حياتهم . وهو مؤلف ملخصات قيل إنها ترجمت إلى السريانية على يد شخص يدعى غوسيوس ، واعتبره بعضهم غوسيوس بيتايوس الذى عاش فى أيام الامبراطور زينو (٤٧٤ — ٤٩١) . ويقول الكاتب السريانى المتأخر بر هبرايوس : إن آرون قد ألف ثلاثين كتابا ترجمها سرجيوس الرسعنى ، وأضاف إليها كتابين آخرين ، ولكن شناين شنايدر يرى أن هذين الكتابين من عمل المترجم الذى وضع النسخة العربية ، وهو يهودى فارسى اسمه « مسير غوية » . وانتشرت أعمال آرون بين العرب ، وكان لها نفوذ قوى على الطب العربى .

الفصل الرابع

المسيحية باعتبارها قوة تهلينية

١ — الجو الهلينى للمسيحية .

كانت الكنيسة المسيحية فى عهدها الأول قوة تهلينية فى جوهرها ؛ فكانت الإغريقية لغتها ، وكان انتشارها الأول بين هؤلاء الذين تكلموا الإغريقية ، وعاشوا على النمط الإغريقى ، وإن لم يكونوا من الإغريق من الناحية الشعبية . ولقد استعملت المسيحية اللغة الإغريقية حتى فى روما نفسها ، على ما يبدو من أن الكتاب الرومان الأوائل ، مثل كلمنت وهرماس وهيبوليتوس وآخرين ، قد كتبوا بالإغريقية ، واللغة الإغريقية هى المستعملة عادة فى الكتابة الأولى على السراديب ، ويبـــدو أنها استخدمت فى خدمة القداس الرومانى البدائى ، ولو أن التعبيرات الإغريقية التى توجد الآن فى هذا القداس قد أضيفت إليه فى عهد متأخر ، قد يكون القرن الخامس ، كما أضاف القديس جريجورى طلب الرحمة من الله (Kyrie eleison) فى عهد أكثر تأخراً (John the Deacon, Vita S. Gregorii, ii. 20, P. L. lxxv, 94) وقد ظل الحال كذلك حتى أواسط القرن الرابع ، حين حول قسطنطين حكومته الامبراطورية إلى روما الجديدة (القسطنطينية) . وكانت كنائس بلاد الغال تتكلم

الإغريقية كذلك ، ولو أن ذلك لم يدم إلى مثل هذا العهد المتأخر . أما فى اقليم إفريقية التى صارت من بعد داراً للمسيحية اللاتينية ، فيبدو أن الإغريقية قد استخدمت بتوسع فى قرطاجنة فى القرن الثانى ، إذا اعتبرنا أوبيه (Aubé) مصيباً فى قوله إن النصوص الخاصة بأعمال شهداء سلة (Scilla) ، والتى كشف عنها وسنر سنة ١٨٨١ ، نصوص أصلية (Aubé, Etude Suz un nouveau texte des actes des Martyrs Seillitains Paris 1881.) . ويظهر من كل ذلك أن المسيحية قد انتشرت أولا بين الأهلين المستقرين المشتغلين بالتجارة حول البحر المتوسط، الذى كانت الإغريقية لغته العامة . ولم يكن إلا فى عهد متأخر أن نفذت إلى المرتفعات الداخلية ، فوصلت إلى متكلمى اللغات الوطنية من الأهلين فى مصر ، وسوريا ، وإيطاليا ، وبلاد الغال ، وأفريقية . كانت الإغريقية لغة عالمية ، وبدت المسيحية فى صورة الديانة العالمية .

حقيقة إن المسيحية يهودية الأصل إذ قصد بها « خلاص اليهود » (St. John iv, 22) ، ولكنها نمت فى جو من اليهودية الهيلينية ، ظهر فيه « فيـــلو » الإسكندرى الذى قرأ العهد القديم بالإغريقية لا بالعبرية .

بدأ نفى اليهود (diaspora) بعد أن حطم البابليون أورشليم عام ٥٨٨ ق م، حيث لجأ الكثيرون منهم إلى مصر . ثم هزم الفرس البابليين بقيادة سيروس عام ٥٣٨ وأذن سيروس ببناء أورشليم مرة أخرى وإعادة معبدها إلى ما كان عليه ، ولكن كثيراً من اليهود المهاجرين إلى بلاد أخرى لم يودوا العودة إلى فلسطين ، حيث بدأوا حياة أفضل فى منفاهم ، وكانت

الحال كذلك على الأخص بالنسبة لمن فى مصر ، إذ كون اليهود جاليات كبيرة مزدهرة . فحين أسس الاسكندر الإسكندرية عام ٣٣٢ ق م دعا اليهود إلى مدينته الجديدة ووهبهم إحدى نواحيها الثلاث التى قسمها إليها (Josephus, C. Apionem, 2. 4; Bell. Jud. 2. 18. 7) ولكن هؤلاء اليهود المصريين كانوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع اليهودى ، فاعترفوا بالسلطة القانونية لرجال الدين ، ودفعوا جزية دائمة لمعبد أورشليم . مع أنهم بقوا على قوانينهم ودياناتهم تحت حكم السيليوقيين ملوك سوريا دون أن يتدخل أحد فى شئونهم ؛ إلى حكم أنطيوكوس إپيفانيس ، الذى حاول أن يصبغهم بالصبغة الهيلينية ، وأن يحملهم على عبادة الآلهة الإغريقية فى أورشليم ؛ فقاد ذلك إلى ثورة بقيادة المكابيين لم يستطع أنطيوكوس أن يخضعها . وقد عزل أنطيوكوس فى مبدأ حكمه أونياس الثالث كبير الكهنة ، ونصب مكانه أخاه ياسون ، ثم أحل محله أخاً أصغر هو منيلاوس أو أونياس الرابع الذى تمكن من قتل أونياس الثالث . وفر أونياس الخامس ابن كبير الكهنة القتيل إلى مصر ، ليتفادى التدنيس والفوضى اللذين كانا نتيجة لسياسة أنطيوكوس ، وذهب معه أتباع له رأوا أنه كبير الكهنة الشرعى ، فقوبلوا مقابلة حسنة بين يدى بطليموس فيلوميتور (١٨١ — ١٤٦ ق م) ، الذى أعطاهم معبداً مصرياً مهجوراً فى ليونتوبوليس ، فبنوا هنالك معبداً على صورة معبد أورشليم ، أدوا فيه تضحياتهم وطقوسهم . وقد بقى هذا المعبد الذى بنى فى ليونتوبوليس مستعملا حتى هدم معبد أورشليم عام ٧٠ م ؛ ثم أقفل المعبد المصرى بعد ذلك . ومع أن هذا المعبد كان حرما بالنسبة لليهود المصريين ، لم يكن له من المكانة فى يوم من الأيام ما كان لمعبد أورشليم ، الذى قدمت إليه

الهبات من مصر ، كما قدمت من بلاد المنفى الأخرى . وربما كانت الترجمة الإغريقية للعهد القديم المعروفة باسم (Septuagint) متصلة فى وضعها بهذا المعبد ، فكان صنعها فيما يبدو فى مراحل تدريجية ، إذ تقع كتب موسى الخمسة فى لغة عامية خشنة ، كالتى كانت مستعملة فى مصر ، ويمكن العثور على مثلها فى الكتابات المصرية ، وهذه الترجمة قديمة بدرجة سمحت أن يستخدمها ديمتريوس (as cited, in Clemens Alex., Stom., i, 21, and Eusebius, Praep. Evang. ix, 21, 29) ، على حين نرى الكتب التاريخية ، وكتب الأنبياء ، قد وضعت فى أسلوب أكثر قربا إلى الأدب فى عهد متأخر ، ولا سند فى التاريخ لقصة الشيوخ السبعين الذين وضعوا الترجمة فى عهد بطليموس فيلاديلفوس (٢٨٥ — ٢٤٧ ق م) قصة تستند إلى الخطاب المزيف الذى بعث به أريستياس إلى أخيه فيلوقراط ، وربما لم تكمل كل الترجمة إلا فى السنوات الأولى من العهد المسيحى ، فلا يقتبس فيلو الاسكندرى من كتب الحنان (Ruth) ، والأقوال (Ecclesiastes) ، والمزامير ، (Song) واستر (Esther) والأحزان (Lamentations) ، وحزقيل (Ezekiel) ، ودانيال (Daniel) ، ولا يقتبس العهد الجديد من كتب عزرا ، ونحمياء ، واستر ، والربانيين ، والمزامير ، ولا من بعد الأنبياء الثانويين .

بدأ رد الفعل ضد الهلينية منذ ثورة المكابيين فى فلسطين ، ويبدو أن هذه الثورة قد انتشرت فى الخارج بين اليهود فى المنفى فى السنوات الأولى من العهد المسيحى ، ولقد كان هذا جزءاً من الحركة الشعبية ، التى أوحت بالثورة اليهودية ، التى انتهت بتخريب أورشليم . وقد انقلب رد الفعل

هذا إلى محافظة غيورة على التقاليد العبرية ، واستعمال للغة العبرية ، وإلى الفكرة القديمة القائلة بالانفصال التام عن غير اليهود (Gentiles) .
وكان رد الفعل هـــذا أبا لليهودية الربانية ، التى لم تعد تحتمل أن تقرأ الكتب المقدسة فى الجمهور الذى فى المعبد باللغة الإغريقية ؛ وفرضت طقوس الختان والسنن الشرعية الأخرى فرضاً متزمتا ، ومنعت منعاً مطلقاً كل مخالطة عائلية (familiar) بين الربانيين وبين الوثنين وغير المختونين ، وإذاً أصبح القانون الموسوى أكثر تشدداً كما شرحه الربانيون .

وكان للمنافسة بين هذه الطائفة المتشددة التقليدية وبين اليهود الهلينيين الأكثر تساهلا أثر قوى فى المجتمع المسيحى ، الذى تكونت فيه فى المبدأ طائفتان : المسيحيون الميالون إلى اليهودية ، الذين أرادوا جميع المتحولين إلى المسيحية أن يختتنوا ، وأن يراعوا كل القوانين الموسوية ؛ والمتحولون إلى المسيحية الميالون إلى الهلينية ، وهم لم يطالبوا بأكثر من قبول العقيدة المسيحية . وقد سجل النقاش بين هاتين الطائفتين فى أعمال الحواريين . واختفت الطائفة الميالة إلى اليهودية فى النهاية اختفاء تاما ، لأن المسيحيين الميالين إلى اليهودية الذين ظهروا فى وقت متأخر فى أنطاكية القديس يوحنا كريسوستوم كانوا ينتمون إلى فرقة إلحادية ، أرادت أن تبعث العادات اليهودية من جديد . ويمكن أن يتقبل القول بأن المسيحية وريثة اليهودية الهلينية ، التى ورثت هذه الديانة الخلقية الموحدة ، التى ناسبت ميول الفكر الهلينى مناسبة تامة .

ولقد قبلت الكنيسة المسيحية العهد القديم ، ولكنها استعملته باعتباره تابعاً للعهد الجديد ، واعتبرت تنبوءاته إشارات إلى المسيح ، كما اعتبرت

تعاليمه الخلقية تمهيداً لوحى البشارة الكامل . وحين زاد عدد المتحولين إلى المسيحية من الإغريق عن عدد أمثالهم من اليهود ، لم يعد يدعو إلى الدهشة أن نرى الثقافة الإغريقية ، التى يقصد بها الفلسفة الإغريقية ، تنفذ إلى التعاليم المسيحية . حقاً إنها كانت قد أثرت على الفكر اليهودى ، كما يمكن أن يرى فى كتب متعددة مشكوك فى صحتها ، مثل الحكمة (Wisdom) وحكمة بن سيرا (Ecclesiasticus) التى تحمل طابع الفكر الرواقى . والمسيحية من هذه الناحية ، ومن نواح أخرى ، لم تكن إلا استمراراً للتطور المنطقى لليهودية الهلينية . وكان القائد فى حركة التكييف الذى لحق المسيحية لتوافق أفكار غير اليهود هو القديس بولس ، الذى كان لرسائله نفوذ قوى فى تشكيل الديانة المسيحية ، ومقاربتها للفلسفة الإغريقية السائدة . وقد قرأ المسيحيون العهد القديم ، كما قرأه اليهود الهلينيون ، فى نسخته الإغريقية . وقد عبر عن المذهب المسيحى فى بداية تشكله باصطلاحات مستعارة من الفلسفة الإغريقية . وهكذا تكونت الكنيسة المسيحية منذ البداية لتكون معلم الثقافة الذهنية الإغريقية ، كما كانت معلم المذهب الإنجيلى . وحين دبت الخلافات فى الكنيسة فى زمن لاحق ، عبر عن كليهما باصطلاحات فلسفية إغريقية ، وناضلا عن وجودهما طبقا للطرق الفلسفية .

وربما كانت الديانة أكثر اهتماماً بالطقوس ، وتلك هى حالة معظم الديانات البدائية التى تهتم بالضحايا وأداء الطقوس المقدسة . وتصل بعد ذلك إلى مرحلة متأخرة ، تصبح الديانة فيها عاملا خلقيا ، وربما تبدأ بملاحظة تجنب المنهيات (Tabus) ويأتى فى النهاية النمو إلى مرحلة التأمل.

فى الإلهيات ، وهو شكل من أشكال الفلسفة يبحث عن تعليل كون الأشياء كما هى ، ويحدد مكان الإنسان فى الكون . ويبدو أن الديانة المصرية القديمة قد وصلت إلى هذه المرحلة النهائية فى أيامهـا الأخيرة ، ولكن الفلسفة فى الفكر الإغريقى قد تفوقت على الدين ، أو ابتلعته . ولقد كان نمو المسيحية فى مجتمع حلت فيه الفلسفه محل الدين تقريباً . ولم يكن هناك نفوذ حى للديانتين القديمتين : الإغريقية واللاتينية ، اللتين كانتا ديانتى طقوس وسحر ؛ فلم تبقيا إلا باعتبارهما بقايا تقليدية تعلق الناس بها لطول الملازمة فحسب . وتميع التفكير الخلق فى الفلسفة وفى التفكير فى مكان الإنسان فى الكون ؛ حقا إن واجب الإنسان فى جوهره كان متصلا بسبب وجوده . ولا شك أن المسيحية قد اقترضت الكثير من الديانات الغامضة التى كان لها بعض الشبه بها ، ولكن النفوذ المسلط على تطور المسيحية جاء من موقف العالم الهلينى السائد من الديانة ، وقد كان هذا موقفا فلسفيا ؛ وفى الحقيقة أن الفلسفة قد حلت محل الديانة بالمعنى القديم .

ومع أن الكنيسة ورثت كتب اليهود المقدسة ، واتبعت سوابق المعبد اليهودى فى أداء الصلوات ، انفصلت عن اليهودية انفصالا كان واضحا فى نظر رجال الدين من اليهود . وعادت اليهودية إلى الصبغة الطقوسية الماضية، وإلى العزلة الشعبية . وتقدمت المسيحية فى جو أكثر حرية وانفتاحا ، مهدت له غزوات الإسكندر .

ذهبت اليهودية إلى مـــدى أبعد فى اتجاه اليمين ، وذهبت المسيحية فى اتجاه الشمال .

وكان هدف اليهود أن يصلحوا بالعودة إلى الماضى ، وهو الهدف الذى

يذكر دائما فى كل إصلاح دينى . وقد نظروا بعزوف إلى المسيحيين ، باعتبارهم قد سلكوا طريق التساهل دون مبالاة ، وهو فى رأيهم السبب الذى أدى بهم هم إلى الإنحلال .

وقد ساهم الفلاسفة اليهود فى وقت متأخر مساهمة قيمة فى الثقافة الذهنية ، ولكن هذا تم فى أيام كانوا فيها تحت الحكم العربى . ولا يظهر أى ميل كهذا فى المدارس اليهودية القديمة فى سورا ، وبومباديثا ، حيث تركز الاهتمام فى القانون ومراعاة الطقوس .

٣ — توسع المسيحية :

كان للكنيسة القديمة ، كما تصورها أعمال الحواريين ، ورسالات القديس بولس ، روح تبشيرية ؛ ولكن هذه الروح التبشيرية تبدو فى مبدئها نتيجة للاضطهاد . يروى أن أول انتشار للمعلمين المسيحيين من أورشليم حدث حين بدأ الاضطهاد باستشهاد القديس ستيفن . وغالبا ما دعت أسباب مشابهة إلى التبشير بالمسيحية فى نواح أخرى فى المستقبل ، وربما كان السبب فى نشأة الكنيسة البريطانية وفود اللاجئين الفارين من اضطهادات ليون وفيينا . ولكن الاضطهاد لم يكن السبب الوحيد لانتشار المسيحية ، بل كان أحد الأسباب ، وربما كان فى مقدمتها .

وتبدو معارضـــة اليهودية واضحة فى سياق قصص أعمال الشهداء والحواريين ، ولكن يظهر أن عدواة اليهودية للمسيحية كان السبب الرئيسى لأكثر اضطهادات الكنيسة ، إن لم تكن لجميعها . وأول اضطهاد فعلى للمسيحيين باعتبارهم مجتمعا كان فى روما ، على يدى نيرون ، الذى حرضه اليهود بلا شك ، إذ كانوا ذوى نفوذ فى البلاط . وبعد هذا حدثت

اندلاعات للعداوة الشعبية فى أماكن متعددة ، ولا سيما فى آسيا الصغرى ، التى كان عدد المسيحيين فيها كثيرا ، وقد ظهر أن نفوذ اليهود كان نشطا فى بعض هذه الاندلاعات . وقد حدث فى حكم تراجان أن حاولت السلطة أن تعطى اطراداً للسياسة التى تتبع فى معاملة المسيحيين . وحين أصبح « پلينى » Pliny حاكما على بثينيا Bithynia ، وجد بها كثيرين من المسيحيين ، وكثيراً من الاضطراب ، الذى ألقيت عليهم تبعته .

وقد جرب پلينى الإدارة القضائية فى روما ، ولكن من الواضح أنه لم يكن ذا صلة بأية قضية من قضايا المسيحيين ؛ إذ كانت هذه القضايا تعرض على وكيله الذى كان يطلق عليه : Praefectus Urbis. ولهذا طلب توجيهات الامبراطور ، فأرسل إليه تراچان بكتب أعطته السابقة التى يعامل بها الأشخاص المتهمين باتباع هذه الديانة الخارجة على القانون . وأصبح مقرراً أن المسيحية جريمة تستحق القتل ، ولكن البحث عن المسيحيين لم يكن مسموحا به ، واستحق المرشدون عنهم العقوبات . ولقد وضع دوميتيوس أو لتيانوس فى وقت متأخر كتابا ، أطلق عليه De officis proconsulis جاء فى الكتاب السابع منه تلخيص للتقنين ضد المسيحية . وقد كان يمكن أن يعطينا هذا الكتاب فكرة كاملة عن موقف القانون الرومانى من المسيحيين ، ولكن لم يبق منه لسوء الحظ إلا بعض مقطوعات ، أهمها النقد الغاضب الذى ينسب إلى لاكتانتيوس (Lactantius, Instit. v, II, 12.) . ويبقى هذا الموضوع بعد ذلك غير معروف . فما كان يؤسف له باعتباره اضطهادا بالتأكيد ، أو على الأقل تعرضا للاضطهاد ، أضحى دافعاً قوياً لخروج المسيحيين من الامبراطورية الرومانية ، ومن ثم كان أكبر أسباب انتشار المسيحية .

ويلقى لنا بعض الضوء ما كتبه هيبوليتوس عن كاليستوس ، وهو عبد مسيحى وثق به سيده ، المسيحى أيضا ، فأعطاه مبالغ من المال ليفتح بها مصرفا ، ولكنه أفلس . ولقد حاول أن يسترجع ما أقرضه الناس ، ومن بينهم بعض اليهود ، فروى عنه أنه شوش على المصلين فى معبد اليهود ، فى محاولته أن يستحوذ على عملائه ، فأخذ إلى المحكمة ، بدعوى أنه شوش على عبادة جماعة يقرها القانون ، وواضح أن اليهود جهدوا فى محاولة اتهامه بالمسيحية ، بذكر ذلك عرضا فى أداء الشهادات ، فلم يكونوا قادرين على أن يتهموه اتهاما مباشرا ، خوف العقاب الذى يستحقه المرشدون عن المسيحيين ، وحكم على كاليستوس باعتباره مسيحيا بأن يعمل فى مناجم سردينيا ، ولكنه بعد قليل شملة عفو عام ، حصلت عليه مارسيا محظية الإمبراطور كومودوس ، التى كانت بنفسها مسيحية أو على الأقل ميالة إلى المسيحيين (Whole incident in Von Döllinger Hippolytus und Kallistus ch. viii) وقد ظل اهتمام المسيحيين بالبلاط قويا طوال القرن الثالث (cf. Eusebius, H. E., vi, 34, vii, 10) وكان السبب الحقيقى الذى دعا إلى الاضطهاد الشديد القصير الأجل فى عهد دقيوس (Decius) ودقلديانوس (Diocletian) فى أواخر هذا القرن ، هو أن المسيحيين قد أصبحوا أقوياء أكثر مما يحتمل ، يؤدون طقوس دينهم صراحة ، ويبنون كنائس كبيرة .

ولقد حماهم القانون الرومانى من قبل دقيوس ، فى حيازة الممتلكات ، وكانت الجبانات التى تحت الأرض فى روما ، وهى تغطى مساحات واسعة ، من ممتلكاتهم المعترف لهم بها من عهد البابا زفيرينوس (٢٠٢ — ٢١٩) . وقد كان بدعا أن تعقب دقيوس المسيحيين حتى فى جباناتهم ، واستحوذ على

بممتلكاتهم . وكان الاضطهاد فى أوقات متفرقة ، وأشبه بالنوبات التى تثيرها غالبا دوافع غير دينية ، ولكن كان هناك تعرض للاضطهاد . وقد دعا هذا المسيحيين إلى أن يرحلوا إلى ماوراء الحدود الرومانية ، أو يذهبوا إلى أقاليم يقل فيها الاضطهاد قلة نسبية . ولعل السبب الذى من أجلة بدأت الكنيسة البريطانية هو قدوم الهاربين من الإضطهاد فى بلاد الغال ، وليست هذه الكنيسة وحيدة فى تتبع أصولها حتى اللاجئين .

ويبدو أن الرغبة فى السلامة من التعرض للاضطهاد مسئولة عن تكوين كنيسة مزدهرة فى العراق خارج حدود الإمبراطورية الرومانية . وهذه الكنيسة العراقية (Mesopotamian) الواقع أقليمها بصفة عامة حول الرها ، عاشت حياتها الخاصة ، فى جوحر حرية نسبية ، وكونت لنفسها أسلوبا خاصا فى طراز البناء ، واتخذت لنفسها فيما يظهر نظاما خاصا .

وحين أصبحت الإمبراطورية مسيحية فيما بعد ، وأدار الكنيسة الكاثوليكية أساقفة من الإغريق ، وقع الكثير من تطور هذه الكنيسة المحلية العراقية ، تحت ضغط اليد العليا ، ولكن الحقيقة التى لم تتغير هى أن بعض أقدم الأدلة على تنظيم الكنيسة وبنائها ترجع إلى المنطقة التى تقع عبر الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية . وقد تعرضت المنطقة العراقية للنفوذ الإغريقى فى عهد السليوقيين ، وجاء النفوذ الإغريقى عن طريق الرومان ، الذين تراوحت حدودهم مع البارثيين إلى الأمام والخلف ، من وقت إلى آخر ، وكان لهم مصالح سياسية دائمة فى أراضى الحدود . ولكن الكنيسة أكبر من أى شىء آخر هى التى أحدثت تهلين هذه المنطقة التى تقع عبر الحدود .

وحين ازدهرت الكنيسة أنتجت مادة مكتوبة . ففى الاسكندرية ،

كما يمكن أن يتوقع ، ظهر بعض أوائل الكتاب ، من أمثال كلمنت الاسكندرى ، وأوريچين ، وآخرين وسافر هيچيسبوس حوالى عام ١٨٠م حول العالم العراقى ، للبحث عن أدلة فى الروايات التى وردت عن الحواريين عن تعاليم الكنيسة ونظمها . وقبل وقته بقليل ، يجعل يوسطين مارتير من شخصه معلما مسيحيا ، يحاول أن يجمع بين الفلسفة السائدة والعقيدة المسيحية . وفى نهاية القرن الثانى لم تكن المسيحية قوية بعدد أتباعها فحسب ، بل كانت محصنة بنتاجها العقلى ، وتعاونها مع الفلسفة. وكانت المادة المسيحية مكتوبة بالإغريقية ، وأول مادة كتبت بالعامية فيما بعد من هذا الإنتاج المسيحى جاءت بالسريانية ، التى كان شكلها الكلاسيكى هو لهجة الرها ، وذلك أسبق بكثير من أى نتاج مسيحى باللاتينية . وفى الكنيسة جميعها لم يكن العهد القديم معروفا بصفة عامة ، إلا فى صورة ترجمته الإغريقية ، كما كانت الحال مع اليهود المصريين فى أيام فيلو الإسكندرى ، وربما كان ذلك بالنسبة لليهود الهلينيين عموما . والتراجم العامية للعهد القديم ترجمت فى أغلبها من النسخة الإغريقية (Septuagint) ، ولكن النسخة السريانية فحسب ، وهى سابقة على ذلك ، تعتبر مصدراً مستقلا أقرب إلى الأصل العبرى .

وربما كان نص « الماسوراه » الذى أصبح حجة نسخ العهد القديم ، هو الذى يمثل نصا مختاراً من نصوص سابقة متشعبة مختلفة ، حتى أن النص الإغريقى (Sèptuagint) ونسخه أحيانا ترجع على الأقل إلى شكل عبرى أقدم ، أبطله قبول نسخة موحدة

٣ — التنظيم الاكليريكى

بالرغم من أن الكنيسة المسيحية ترجع فى مبدئها إلى معبد اليهود ، تظهر فى التاريخ فى بنية منظمة ، لا على غرار يهودى ، بل على غرار بناء الامبراطورية الرومانية . وقد بدأ هذا قبل أن تتقبل الدولة الكنيسة تقبلا رسمياً ، ولكنه أصبح أوضح بعد أن جعل هذا التقبل الكنيسة ذات صلة أوثق بالحكومة الدنيوية . فى عام ٣١٣ منح الامبراطور قسطنطين الديانة المسيحية تسامحاً رسمياً ، وفى عام ٣٢٥ دعا أول مجلس عام إلى نيقاية (Nicaea) ، ليحدد بعض النقط المختلف عليها فى المسيحية ، وليعطى تنظيماتها إطراداً . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكنيسة تحت حماية الدولة ، وتحت رقابتها إلى حد ما ، ولو أن المسيحية لم يعترف بها ديانة رسمية إلا فى أيام غراطيان (٣٦٨) .

وقد تكونت الكنيسة فى أيامها الأولى من مجتمعات مدنية (urban congrigations) ، على رأس كل منها أسقف ، تعاونه جماعة من شيوخ الكنيسة (Ptesbyters) ، ولكنها امتدت إلى المناطق الريفية بالتدريج ، فأضيفت مجتمعات هذه الأقاليم وعلى رأس كل منها شيخ كنيسة فحسب ، ويتبع كل منها من الناحية النظامية أسقفا مجاوراً له . وهكذا تكونت الأبرشيات بالمعنى الجغرافى . بامتداد الكنيسة من المدن التى كانت دارها الأول . وفى أيام نيسين (Nicene) كانت هذه الوحدات الاقليمية قد تجمعت فى أحلاف كالأقاليم المدنية ، كل حلف منها يسمى أبرشية ، فكان للاسم معنى أعم مما له الآن ، وكانت الكنيسة

الشرقية تشتمل على أربعة من هذه الأبرشيات : هى الشرق ، وبونتوس ، وآسيا ، وتراقيا ؛ وانقسمت هذه إلى أقسام فرعية (eparchies) ، لكل منها واحد أو اثنين من المطارنة . وهكذا انقسمت آسيا إلى أقسام فرعية هى إفيسوس ، وساردیس ، وسمرنة ، وبرغاموم ؛ وعرف الأسقف أو المطران الرئيسى لكل قسم منها باسم رئيس الأساقفة . وفى النهاية تم الإعتراف بأولية كنائس روما . وأنطاكية ، ثم بعد بعض التردد الإسكندرية ؛ ولأسباب عاطفية أعطيت كنيسة أورشليم من بعد مرتبة مماثلة ، ولو أنها فى الحقيقة تابعة لكنيسة أنطاكية . وانهى مؤتمر كالسيدون (بند ٢٨) استقلال بونتوس . وآسيا ، وتراقيا ، ووضعها تحت رياسة أسقف القسطنطينية ، الذى ارتفع بهذا رغم الاعتراضات إلى درجة المساواة مع أنطاكية والاسكندرية وقد لقب أسقف كل من هذه المجموعات الكبرى من الكنائس بلقب البطريرك ، وهو لقب يستعمل كثيراً بعد عهد نيسين ، ولكنه لم يعترف به فى مراسيم المجالس حتى القرن التاسع .

وكانت الكنيسة العراقية عبر الحدود تعتبر داخلة فى أبرشية أنطاكية ، ولكن أسقفها فى وقت أسبق من هذا كان يحمل لقب كاثوليكوس ، وهو لقب استخدمه قسطنطين حين كتب إلى أسقف قرطاجنة ، واستخدم كذلك فى الإدارة المدنية ، حيث أطلق على وكيل الحاكم الإقليمى أو مندوبه . وقد استعمله بروكوبيوس ليدل به على رئيس الكنيسة الفارسية[1] ، وأصبح أخيراً إضافة إلى لقب أسقف سيلوقيا ، وقد اتخذه أساقفة سيلوقيا بعد انشقاق النساطرة لقباً مميزا لرئيس المجتمع النسطورى .

ومنذ عهد نيسين ، ظلت الكنيسة تنظم نفسها على غرار نظام الإدارة المدنية فى الأمبراطورية . ولو أن مناطق الأقاليم والأبرشيات والأقسام الفرعية لم تكن متحدة فى جميع حالاتها مع مناطق التركيب المدنى . وحيث تكونت الكنيسة هكذا نموذجاً للامبراطورية الرومانية ، هيأت المجتمعات المسيحية للنمط الهلينى . لا فى العراق فحسب ، بل كذلك فى فارس . وهذه الأنماط ، مطبقة على النظم الاجتماعية ، هيأت الطريق للثقافة الإغريقية . ولم تكن الديانة المسيحية ، كغيرها من الديانات الأعرق فى القدم ، مبنية على مراعاة الطقوس فحسب ، كما لم تبن بناء كلياً على قوانين السلوك الخلقى . أما النفوذ الإغريقى الذى ورثته ، فقد جاءها من الأفكار الإغريقية الحديثة . التى تشربت الفلسفة فيها الدين . لقد وضعت المسيحية فى المقدمة مجموعة من المذاهب اللاهوتية ، أما مراعاة الطقوس فقدجعلت تعبيراً عن هذه المذاهب ؛ كما انبنت الأخلاق كذلك على أساس من التعاليم المذهبية . وقد كان هذا المذهب ملوناً بلون الفلسفة ؛ فكان الكثير منه فى بساطته فلسفة عبرعنها بتعبيرات لاهوتية ، وهكذا كانت الفلسفة التى توختها الكنيسة المسيحية وانتفعت بها ، هى التعاليم الفلسفية السائدة فى العالم الإغريقى خلال القرون الأولى من العهد المسيحى ، وهى الفلسفة الانتقائية التى يبدو فيها أنها مأخوذة عن أفلاطون وأرسطو . وقد قادت هـــذه الفلسفة المناظرات التى قام بها فى الكنيسة آريوس ، ونسطور ، ويوتيخيس ، وآخرون ، ووجهتها ، فالمشاكل التى نوقشت اقترحتها الفلسفة ، والنتائج التى وصل إليها كانت نتائج التناول الفلسفى . وربما كانت أخطر نقطة هى التوخى المطلق لمنطق أرسطو باعتباره طريقة للبحث والمجادلة . وقد اختلف كثير من الطوائف المسيحية على أى حال

فى العقائد ، ولكنهم جميعاً قبلوا المنطق الأرسطوطاليسى ، باعتباره طريقة تستخدم فى البحث والحل .

وهكذا أعادت الكنيسة المسيحية بناء مجتمعات معتنقيها ، لتطابق البناء الاجتماعى للامبراطورية الرومانية ، مقسمة الفرس والعرب والشرقيين الآخرين طبقاً لنظام من الأبرشيات والأقاليم ، بنى تقليداً للادارة الامبراطورية ؛ ونشرت بينهم مستويات ثقافيـــة شبيهة بما كان فى الاسكندرية ، وقد جاء المنبع الرئيسى للمادة العلمية والفلسفية إلى العرب عن طريق النفوذ المسيحى .

ولقد اختلف فيما إذا كان محمد أكثر مديونية للأسلاف اليهود ، أو المسيحيين ؛ وواضح أنه مدين بالكثير لكليهما ، ولكننا حين نأتى للعصر العباسى ، حين بدأ الأدب والعلم الاغريقيان يظهران فى الأفكار العربية ، لن يكون هناك احتمال آخر . فقد انتقل التراث الإغريقى إليهم عن طريق الكنيسة المسيحية ،

الفصل الخامس

النساطرة

---

١ — مدرسة نصيبين الأولى

تقع نصيبين داخل الحدود التي ضمت إلى روما عام ٢٩٨ . فلما أصبحت حينئذ من مدن الحدود ، وكانت متحكمة فى الطريق الرئيسى بين أعالى العراق ودمشق ، حصنها الرومان تحصيناً قوياً . وربما كان بها مسيحيون فى ذلك الوقت ، كما كانوا فى أماكن أخرى كثيرة من العراق ، وبعد بضع سنين فى عام ٣٠٠ أو ٣٠١ اعتبرت مقر كرسى الأسقفية ؛ فكان أول أساقفتها بابو وخلفه يعقوب . وكان بالمدينة كثير من اليهود أيضا ، وكان لهم مدرسة أسسها يهودا بن باثيرة وكان مسبحا (tanna) وردت من حلقاته سبع عشرة فى المشناة . وربما كان هناك ثلاثة أشخاص بهذا الاسم ؛ أب ، وابنه ، وحفيده ، عاش أولهم حين كان المعبد لا يزال قائما فى أورشليم ، وكان آخرهم معاصراً لرباى عقيبة ، الذى يقال إنه كان له معه منازعات . وواضح أن اليهود قد قاسوا كثيرا حين استولى الرومان على المدينة ، وبما يحتمل أن ذلك كان ذا صلة بنهاية مدرستهم ، فهى على أى حال لا يرد ذكرها بعد ذلك .

ولقد حضر الأسقف يعقوب مؤتمر نيقايا عام ٣٢٥ ، ووقع على

قراراته ؛ ولم يكن بعد ذلك بكثير أن أسس يوسطاثيوس أسقف أنطاكية مدرسة بها ، يقلد مدرسة الاسكندرية الكبرى ، وقد تبعه الأسقف يعقوب فأسس مدرسة مماثلة فى نصيبين ، غرضها أن تنشر اللاهوت الإغريقى بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية ؛ إذ كان لاهوتهم وترتيب كنائسهم ، كما يشير سترزيجوفسكى، لا يطابقان المستوى المقبول فى الكنيسة الكاثوليكية. ووضع فى مكان الرياسة لمدرسته هذه شيخا من شيوخ الكنيسة اسمه ابراهيم ، فأصبح هذا معلما شهيرا ، ورفع اسم مدرسة نصيبين إلى مستوى الشهرة العظيمة .

ولم يكن كذلك فحسب، وإنما كان مشهورا بعمله الأدبى أيضاً. ولم يكن هو الأول الذى كتب بالسريانية ، ولكنه اعتبر فى عصور متأخرة مثلاً يحتذى فى الأدب السريانى الكلاسيكى . وبينما هو رئيس لمدرسة نصيبين ، ألف قصائد أصبحت نماذج للشعر السريانى . ويقال إنه ظل رئيساً للمدرسة وقتا ليس أقل بكثير من ستين عاما ، ويبدو أنه كان شاباً حين عين لهذا المنصب . ولم تكن نهاية المدرسة نهاية لعمله ، ومع ذلك لا يتضح تاريخه وضوحاً تاماً .

أما مدرسة أنطاكية فقد كان تاريخها متقلبا ، إذ أرسل يوسطاثيوس نفسه إلى المنفى فى بداية تاريخها تقريبا عام ٣٣١ فتركها بين يدى فلافيان ، الذى اتخذ ديودوروس صاحبا له ، وهو زاهد ظل صديقاً حميما له وقتاً طويلا قبل ذلك .

وهؤلاء الثلاثة ؛ يوسطاثيوس ، وفلافيان ، وديودوروس ، كانوا ذوى جولات فى النزاع مع الآريين . فاكتسبوا شهرة كانت مسئولة عن

الكثير من المتاعب التي حلت بهم وبمدرسة أنطاكية ، لأن الآريين فى ذلك الوقت كانوا ذوى نفوذ سياسى قوى ، وقد أصبح هذا النفوذ أقوى بعد موت قسطنطين عام ٣٣٧ . ولقد بقيت المدرسة على أى حال حتى عام ٣٧٩ ، حين أصبح ديودوروس أسقف طرسوس ، وفى عام ٣٨١ كان هو أحد الأساقفة الذين نصبوا فلاڤيان أسقفا على أنطاكية . فلما ارتقى ديودوروس كرسى الأسقفية ، تفرقت المدرسة ، ولكن أحد معلميها واسمه ثيودور ظل يعلم نفراً من أعضائها لزموه حتى عام ٣٩٢ ، حين عين أسقفاً على موپسيوستيا . وقد أصبح ديودوروس أسقف طرسوس ، وثيودور أسقف موپسيوستيا فى التقدير العام قادة علماء اللاهوت فى الكنيسة السورية ، التى تكلمت الإغريقية ، وتبعت أنطاكية . وقد اعتبرت كتاباتهما التى كانت باللغة الإغريقية بالطبع حصون العقيدة فى سوريا . ولكنها برغم احترامهما باعتبارهما معلمين للعقيدة الصحيحة ، اختلفت طريقة تعليمهما عن الطريقة السائدة فى مدرسة الاسكندرية . ويبدو أن هذا الاختلاف فى طرق الدراسة قد قواه شعور بالغيرة الشعبية بين السوريين والمصريين ؛ فقد كانت هناك منافسة بالتأكيد بين أنطاكية والاسكندرية ، ولم تكن كلها حبية . وما كان أحد ليستطيع أن يحوم بأى شك حول أصالة هذين الحبرين الشهيرين ، ولكن العصور المتأخرة قد داخلها الشك فى أنهما قد زرعا بدون قصد بذور النسطورية . وأخذت بعض التعبيرات غير الحريصة التى تفوه بها ثيودور دليلا على نسطورية متخفية ، وانتقدت جهرة فى المؤتمر الخامس الذى عقد فى القسطنطينية عام ٥٥٣ .

وكان لنصيبين فى نفس الوقت متاعبها ، فقد مات الأسقف يعقوب ، وربما كان موته بعد عام ٣٤١ بقليل ، حين زاره ملز أسقف سوسة من

بلاد الفرس . وبعد ذلك بقليل جاءت حملة جوليان التعيسة الحظ على بلاد الفرس ، ثم بعد نهاية المملكة عام ٣٦٣ ، سلمت الأقاليم الخمسة التى أخذها الرومان عام ٢٩٨ إلى الفرس مرة أخرى . وفى هذه الحرب التى انتهت بتلك المصيبة لعب ابراهيم رئيس مدرسة نصيبين دوراً رئيسياً فى الدفاع عن المدينة ضد الفرس ، فلما استسلمت المدينة للاحتلال الفارسى ، شعر أنه من المستحيل عليه أن يبقى هناك ، وهرب إلى الرها .

ولا شك أنه كان هناك عدد كبير من اللاجئين ، وقد اضطر ابراهيم ، وهو لاجىء غير معروف ، أن يمارس عملا متواضعا ليكسب قوت يومه. وقد وجد وظيفة خادم فى الحمامات العامة وقتاً ما ، ولكن أصدقاءه اكتشفوه ، وشجعوه على معاودة التعليم ، وهكذا بدأت مدرسة مسيحية فى الرها . لم تهاجر مدرسة نصيبين إلى الرها ، فهى تبددت بكل بساطة حين سقطت نصيبين فى يد الفرس ، ولكن لما عاود رئيسها عمله فى الرها ، كان هناك استمرار بين هاتين المدرستين ، حتى إن مدرسة الرها ربما اعتبرت بعثا لمدرسة نصيبين . وقد عاش إبراهيم اثنتى عشرة سنة أخرى بعد سقوط نصيبين ، ومات عام ٣٧٥ . ولم يصرف كل ذلك الوقت فى التعليم ؛ فإلى جانب نشاطه الأدبى يبدو أنه جاب البلاد ، وقضى بعض أعوامه راهباً . وكان للمدرسة بعد موته حياة حافلة ، فكان التعليم فيها بالسريانية ، وتعتبر سوريانية الرها هى اللهجة الأدبية للنصارى السوريين .

وفى عام ٤١٢ نصب ربولا أسقفا على الرها ، وهو رجل فى منتهى النشاط وابن لأب وثنى ، اعتنق المسيحية بعد أن كان كاهناً فى قنسرين ، وكانت المدرسة تحت إمرة معلم اسمه « إهيبا » ، أو « هيبا » ، وينطق اسمه

بالإغريقية « إباس » . وقبل ذلك بقليل ، يبدو أن بعثا تعليميا كان قد بدأ فى آسيا الصغرى ، وربما كان فى كاپادوشيا ، ووصل إلى المجتمع السوريانى فى غضون القرن الخامس.ويبدو أن هناك صلة بينه وبين التطور الاكليريكى الذى حدث فى قيصرية كاپادوشيا . ومن عهد القديس جريجورى ثوماتورجوس فصاعدا ، اكتسبت الكنيسة هناك شهرة عظيمة باعتبارها نموذجا فى الأمور القداسية (Brightman, Eastern Liturgies, Appendix N, pp.521—8) التى كانت قمتها صلاة مراجعة جاء بها القديس بازيل (المتوفى ٣٧٩) ، أصبحت طقسا معترفا به للقسطنطينية ، وبقيت صلاة رئيسية للكنيسة الرومية الأرثوذكسية . أماالقداس الإغريقى الثانى ، الذى فاز باستعمال عام أكبر،ويحمل اسم القديس يوحنا كريسوستوم (المتوفى ٤٠٧) فهو صورة مختصرة لصلاة القديس بازيل ، على حين يوجد شكل ثالث ينسب خطأ إلى القديس جريجورى (المتوفى ٦٠٤) ، وهو ينبنى أيضاً على صلاة القديس بازيل . ومن بين هذه الصلوات ، تستعمل الآن صلاة القديس بازيل فى أيام آحاد الصوم الكبير ، إلا أحد النخل ، وأيام الاثنين والخميس ، وعشية أعياد الميلاد ، وعيد الغطاس ، وعيد الفصح ، وفى يوم القديس بازيل (أول يناير) . أما صلاة القديس جريجورى فتقرأ فى نهايات الأسبوع فى الصوم الكبير . ولقد كان التطور القداسى نتيجة موجة واسعة قوية من النفوذ الثقافى الذى انتشر من كاپادوشيا إلى بيزنطة ، ثم تعداها إلى الكنائس الشرقية ، ثم إلى آسيا . وأصبحت الرها باعتبارها عاصمة الكنيسة التى تتكلم السوريانية،والتى هى بؤرة المرحلة السوريانية للحياة الثقافية الهلينية ، نقطة توزيع للبعث الكاپادوشى .

٢ — مدرسة الرها

لقد آلت نصيبين إلى الفرس عام ٣٦٣ ، وهرب إبراهيم الذى كان رئيسها إلى الرها ؛ وقد اضطر باعتباره لاجئا أن يكسب قوته بطريقة متواضعة ، ودخل فى خدمة صاحب حمام ، ولكنه كرس وقت فراغه للتعليم ، ومناقشة هؤلاء الذين حلا لهم أن يصاحبوه . وبينما كان يوما على حاله هذه ، سمعه راهب مسن كان قد هبط من ديره ليزور المدينة ، فزجره على أن يظل كذلك مهتما بالمعارف الدنيوية . وقد دعا هذا إبراهيم أن يلجأ إلى الجبل ، ويقضى بعض الوقت فى دير هناك ، متأملا ، وقارئاً ، ومؤلفاً فى الأدب ، فأنتج من ذلك بعض الترانيم الكنسية ، والقصائد . وكان هناك بعث على ذو أثر قوى على الكنيسة قد بدأ فى كبادوشيا على صلة خاصة ببازيل الذى كان فى قيصرية . وقد دعا هذا ابراهيم إلى أن يسافر إلى كبادوشيا ، وأن يزور بازيل ، وربما زار مصر والأرض المقدسة ، مهد الرهبانية ، فى طريقه . وقبل أن يمر عليه وقت طويل ، دعاه إلى العودة ومعاودة التعليم ما سمعه من أن الرها قد بلبلت أفكارها تعاليم بعض الزنادقة ، الذين أخذوا عن آراء برديزان ، الذى عاش فى تلك المدينة فى القرن الثانى . ثم عكف مرة أخرى على حياة الرهبنة ، ولكنه أرغمه على تركها ما سمعه من أن الرها وقعت فى مجاعة شديدة ، وقد استطاع بحضوره وحضه أن يغرى بعض المواطنين الأغنياء أن يمنحوا العون الكريم لجيرانهم المعدمين . وقد مات بعد ذلك بوقت قصير عام ٣٧٣[١]. فإذا نظرنا إلى هذه الفجوات فى العشر سنوات التى أقامها فى الرها ، صعب

(١) فى ص ٧٢ أنه مات عام ٣٧٥ .

علينا أن نعتبره منظما وموجها لمدرستها ، ولكن يبدو أن نفوذه قد منح الدفعة والتوجيه لطائفة من تلاميذه الذين اجتمعوا حوله،وكان معنى زيارته لكبادوشيا أن صلة قد وجدت بين هؤلاء التلاميذ وبين البعث العلمى الكبادوشى .

وأشهر تلاميذ ابراهيم شماس رهاوى يدعى زينو بيوس جزيرايوس ؛ الذى كتب ضد أتباع ماركيون* وتتلمذ عليه إسحق الأنطاكى . ويبدو أن مدرسة الرها فى بدايتها كانت مجموعة غير ذات صفة رسمية ، حتى إنه قد قد لا يمكن أن نصف ابراهيم بأنه رئيسها الأول ، وزينو بيوس بأنه خليفته. ومن هذه المجموعة نما بالتدريج ما أصبح من بعد مدرسة شهيرة ، مع أنها لم يكن لها أساس رسمى أوشكلى ، كما كان لمدرسة نصيبين وأنطاكية . ويمكن اعتبارها بالطبع استمراراً لمدرسة نصيبين ، التى أغلقت أبوابها عام ٣٦٣، مادام قد بدأها ووجهها هذا الذى كان رئيساً رسمياً لمدرسة نصيبين . ولكن لم تكن هناك هجرة من المعلمين والتلاميذ يمكن أن تبرر اعتبارها جالية نصيبية .

وهناك برهان واضح على العمل الذى تم فى الرها فى أواخر القرن الرابع من ترجمة من الإغريقية إلى السوريانية ، فالمخطوط (Add. 12150 of date 411) بالمتحف البريطانى يحتوى على ترجمات سوريانية لمؤلفى يوسيبيوس ؛ ثيوفانيا ، وشهداء فلسطين ، وأحاديث توتوس البصرى (of Bostra) ضد المانويين ، على حين يحتوى مخطوط تاريخه ٤٦٢ فى سانت بطرسبرج على صورة سوريانية للتاريخ الاكليريكى ليوسيبيوس.

* أنظر دائرة المعارف البريطانية الجزء الرابع عشر مادة Marcionites .

(الصورة السوريانية لكتاب ثيوفانيا نشرها س . لى عام ١٨٤٢ فى لندن ، وترجمت فى كامبردج ١٨٤٣ ؛ والصورة السوريانية لشهداء فلسطين نشرها وترجمها و . كوريتون عام ١٨٦١ فى لندن ؛ والصورة السوريانية للتاريخ الاكليريكى نشرها و . رايت و ن . ماكلين عام ١٨٩٨ فى كامبردج ؛ والصورة السوريانية لتوتوس البصرى نشرها ب . دى لاجارد فى برلين عام ١٨٥٩) ، وفى هذه النسخ ما يدل على أنها قد مرت بأيدى نسق من الكتاب ، وأنها لا بد أن تكون قد وضعت فى وقت ما قبل عام ٤١١ و ٤٦٢ على الترتيب . ولقد مات يوسيبيوس عام ٣٤٠ ، كما مات توتوس البصرى عام ٣٧١ ، ولهذا يمكن أن تكون الترجمة السوريانية قد تمت فى حياة المؤلفين ، أو بعدها بقليل ؛ كما كانت الحال فى خطاب سيريل الاسكندرى: « عن الاعتقاد الصحيح فى سيدنا عيسى المسيح إلى الامبراطور ثيودوسيوس» ، الذى ترجمه ربولا أسقف الرها إلى السوريانية ، حالما وصلته نسخة من مؤلفه .

لقد كانت المدرسة ثابتة القدم ، وذات شهرة طيبة بين المسيحيين متكلمى السوريانية ، فى العراق وبلاد الفرس . وكان معظم أساقفة الفرس من طلابها عام ٤١١ — ٤١٢ ، حين عين ربولا أسقفاً على الرها ، وفى نفس الوقت أو بعد ذلك بقليل عين هيبا أو إباس رئيساً للمدرسة . وكانت مؤلفات ثيودور أسقف موپسيوستيا وديودوروس أسقف طرسوس حجة فى اللاهوت فى الكنيسة السورية ، وقد وضع هيبا نسخة سوريانية من مؤلف ثيودور ، لتستعمل فى الرها ، وحين صعب على الطلبة الشرقيين أن يفهموا اصطلاحاتها ومنطقها ، وضع ترجمة سوريانية لكتاب

فورفوريوس المسمى « إيساغوجى » ، الذى كان مقدمة عادية للمنطق ؛ كما وضع ترجمة لشروح أرسطو (Hermeneutica) ، وهذه الترجمات لا يمكن التعرف عليها . غير أن ترجمات شروح أرسطو ، وتحليلاته الأولى ، وكتاب إيساغوجى لفورفوريوس مع تعليق عليه ملحق به ، لا تزال موجودة من عمل پروبوس ، الذى يوصف بأنه شيخ كنيسة ، ورئيس شمامسة ، وطبيب من أنطاكية ، ويبدو أنه كان معاصراً لهيبا كما يمكن أن تكون صورة النص لهيبا كذلك . ويتكلم عبد يسوع بربريخا ، (ممن عاش فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر) ، عن هيبا ، وكومى ، وپروبوس ، باعتبارهم بنى عصر واحد . وكلهم من مترجمى أعمال أرسطو . ولا نعلم شيئاً عن نسخة كومى . وفى أوائل القرن السادس كانت هذه المؤلفات فى المنطق معروفة فى الرها ، فى صورها السوريانية (النسخة السوريانية لفورفوريوس نشرها ا . فان هوناكر فى (J. A. XVI, 70—160) . أما شروح أرسطو فقد نشرها ج . هوفمان فى ليبزج عام ١٨٦٩ ، وطبعت طبعة ثانية عام ١٨٧٨ ؛ وأما التحليلات فقد نشرها ج . فريدمان (Erlanger Dissert) فى برلين عام ١٨٩٨) .

٣ — الانشقاق النسطورى

لقد نصب نسطور الذى كان راهبا أنطاكيا بطريركا على القسطنطينية عام ٤٢٨ ، وإنما اختير هذا الأجنبي لما كان لا بد من حدوثه لو اختير مرشح من هذا البلد ، من إذكاء روح الحزبية القوية التى كانت سائدة فى العاصمة . وجاء نسطور معه بأخ له راهب من أنطاكية يدعى أنسطاس ،

وكان كلاهما نتاج مدرسة أنطاكية ، فاعتنقا مذهب ثيودور ، وديودوروس في اللاهوت . ولم يمض زمن طويل حتى كانت إحدى الصلوات التي قام أنسطاس واعظاً بها موضوع شكوى إلى البطريرق . وكان الاعتراض عليه أن أنسطاس أنكر انطباق الاصطلاح (Theotokos) على مريم العذراء ، مدعياً أنها لم تكن أما إلا لعيسى باعتباره جسداً آدمياً . وكان الموضوع إلى حد ما ألصـــق بعلم النفس ؛ هل تدخل روح الإنسان في جسده عند ميلاده أو تحضره قبل ذلك ؟ واختلف الآباء الأورثوذكس في إجاباتهم — فإذا لم تحضر الروح العاقلة الجسد حتى الميلاد ، كان من الممكن أن يدعى أن الشخص المقدس للمسيح (Logos) ما كان ليدخل جسده (إذ كان جسما حيوانياً فحسب ، أي جسما غير إنساني) ، حتى تضاف إليه الروح العاقلة . ولم تكن تعاليم أنسطاس هي تعاليم ديودوروس وثيودور ، حيث لا يبدو أن هذين الأخيرين قد عالجا هذه المسألة . واعتبر العامة إنكار انطباق لقب (Theotokos) على العذراء إلحاداً ، فاستعرت العواطف ، ولكن الميول المتعارضة ما بين أنطاكية واسكندرية كانت تختبىء وراء ذلك . فكان ميل أنطاكية إلى تناول اللاهوت تناولا نصف عقلي ، ومال الاسكندريون إلى تناوله تناولا تلميحيا صوفياً ، وكان لمدرسة الاسكندرية حصن قوي في القسطنطينية .

حين وصلت الشكوى إلى نسطور دافع عن أنسطاس ، فازدادت الخصومة مرارة ، واشتد سعيرها في العاصمة ، وتدخلت الكنائس الأخرى ، وحرض سيريل بطريرق الأسكندرية على معارضة نسطور . وأخيراً تدخل الامبراطور ؛ فعقد مجلساً عاماً في إيفيسوس عام ٤٣١ ، وانتهى بحرمان نسطور وطرده من الكنيسة . ولكن كثيراً من

السوريين لم يوافقوا على هذا القرار ، وتبرأوا من المجلس ، وانفصلوا عن الكنيسة الأورثوذكسية ، وقد عرف هـؤلاء المنشقون باسم النسطوريين .

ولقد أيدت نسطور بصفة عامة مدرسة الرها المسيحية ، القائمة على مذهب ديودوروس وثيودور فى اللاهوت ، ولو أن أقلية قوية عارضت تعاليمه . وهكذا صارت هذه المدرسة بؤرة النسطورية ، تحت زعامة هيبا . ووقف البطريرق ربولا فى صف النسطوريين أولا ، ولكنه انهزم أمام أدلة سيريل ، وانفرد فى معارضة التعاليم السائدة فى هذه المدرسة . فلما مات عام ٤٣٥ ، نصب هيبا ، وهو رئيس المدرسة وأحد قادة النسطورية ، بطريرقا ، وانعكست سياسة ربولا .

وكان سيريل الاسكندرى زعيم معارضى نسطور فيما شجر حوله من خلاف ، وكانت معارضته واضحة الحدة فى طريقتها ؛ ولقد كان تصرفه تعسفيا حتى فى مجلس إيفيسوس ، لأنه ألجأ المجلس إلى أن يبدأ دون أن ينتظر قدوم الأساقفة الأسيويين ، الذين كان من المحتمل أن يؤيد بعضهم نسطور . فلما قدم هؤلاء الأساقفة الآسيويون ، وجدوا الأمور قد بلغت نهايتها ، وألفوا نسطور محكوماً عليه ؛ فعقدوا مجلساً معارضاً بزعامة يوحنا بطريرق أنطاكية ، تحت دافع الغضب على ما تم فى غيبتهم وقرروا معارضة سيريل الاسكندرى ، ومؤيده الأول ممنون ، أسقف إيفيسوس .

وكان على قرارات المجلسين كليهما أن تحصل على مصادقة الامبراطور ثيودسيوس فصادق من غضبة من غطرسة سيريل على عزل نسطور ، وسيريل ، ممنون ؛ ثم غير رأيه ، فأذن لسيريل وممنون بالعودة إلى

منصبيهما ، ولكنه اضطر نسطور إلى الرجوع إلى ديره بقرب أنطاكية ، حيث بقى حتى عام ٤٣٥ ، ثم نفى إلى بطرة فى بلاد العرب ؛ ولو أنه يبدو فى الحقيقة أنه سمح له أن يذهب إلى واحة فى صعيد مصر . وبينما هو هنا لك خطفته قبيلة بدوية ، ولكنه هـــرب ، وطارده الموظفون الامبراطوريون من مكان إلى آخر ، حتى مات فى ظروف غير معروفة بعد عام ٤٣٩ .

لقد مات سيريل الاسكندرى عام ٤٤٤ ، وخلفه ديوسكوروس الذى اتبع تعاليمه ولكنه فاقه فى العنف والتحكم الاستبدادى ، فبدأ فى الحال البحث عن هؤلاء الذين يمكن أن يتهموا بالميول النسطورية ، واضطهدهم . ثم ظهر خلاف جديد على يد يوتيخيس ، الرئيس المسن لأحـــد أديرة القسطنطينية ، الذى اتخذ لنفسه رأياً يقول بأن إنسانية المسيح فى البعث قد اختفت فى ألوهيته . وقد زعم النسطوريون خطأ أن خصومهم كان يوتيخيسيين . ولقد كان يوتيخيس أعلى منصبا من سيريل ، ولكن تعاليمه قد عارضها يوسيبيوس ، أسقف دوريلايوم ، وكان أيضا أحد أتباع سيريل . ثم رفع الأمر إلى فليفيان بطريرق القسطنطينية ، ومجلسه الكهنوتى المحلى ، وكان فليفيان أحد تلاميذ مدرسة أنطاكية ، ولكنه كان من الجناح المعتدل ، فدخل فى النزاع متردداً ، ولكن يوتيخيس فى النهاية عزل وطرد من الكنيسة . ولقد بدا هذا فى نظر ديوسكوروس الذى يظهر أنه كان ميالا لرأى يوتيخيس أو كان يعتبره على الأقل أقرب إلى الحق من رأى نسطور ، أشبه ببعث للنسطورية ، وحصل بتفضل من الامبراطورة على قرار بإعادة سماع القضية أمام مجلس كهنوتى آخر فى القسطنطينية بعد سنة ؛ ولكن هذا المجلس لم يبطل الحكم ضد يوتيخيس . ولقد أغرى ديوسكوروس

الامبراطور ، بدافع من سخطه على هذه النتيجة ، بأن يعقد مجلسا عاماً للقضاء على النسطورية عام ٤٤٩ ، ورأس هو هذا المجلس . ولكن هذا المجلس حينما اجتمع بدا ديوسكوروس من العنف والغطرسة فى سلوكه بدرجة جعلت الاجتماع فى غاية الارتباك ، وصدق عليه الاسم (Latrocinium) أو مجلس قطاع الطرق ، الذى أطلقه عليه البابا « ليو » وعاد يوتيخيس ، ولم تعط الفرصة لخلفه يوسيبيوس ، أسقف دوربلا يوم ، لأن تسمع أقواله ، وعزل فليفيان . وحين جرؤ بعض الأساقفة الحاضرين على الاستنكار ، دعا ديوسكوروس فصيلة من الجند وهددهم حتى خضعوا . وقد عزل فى هذا المجلس هيبا أسقف الرها ، ونصب مكانه نونوس ، الذى اشتهر بتبعيته لسيريل .

ولكن إجراءات مجلس قطاع الطرق لقيت معارضة عامة ، وقد انصرف أشد المعارضين لها إلى روما يطلبون العون . وبعد كثير من النزاع المتقد ، عقد مجلس عام آخر فى كالسيدون (Chalcedon) عام ٤٥١ ، فرفض قرارات عام ٤٤٩ ، لاضطغانه على ديوسكوروس ، وعزله ، ووضع تقريراً عن العقيدة كان حلا وسطاً معقولا . ولقد رفض ديوسكوروس وأنصاره هذا التقرير ، وانفصلوا عن كنيسة الدولة . وهكذا انقسمت الكنيسة الشرقية إلى شعب ثلاث : الكنيسة الأرثوذوكسية الرسمية ، والنساطرة ، وأعداء النساطرة المتطرفين ، الذين رفضوا القرار الذى قرره مجلس كالسيدون بشأن العقيدة ، وقد عرفوا عموماً باسم اليعاقبة (Monophysites) [1] .

(١) نفضل استخدام كلمة اليعاقبة هنا وفى كل مكان ترد فيه كلمة Monophysites للاختصار ، وإلا فإن معنى الكلمة « القائلون بالطبيعة الواحدة » .

وقد كان هناك شعور قوى بالعداء لتنصيب هيبا على كرسى الرها ، وكانت شكوى المعترضين موجهة إلى دومنوس ، الذى أصبح بطريرق أنطاكية عام ٤٤٢ . ويبدو أن دومنوس لم يكن راغباً فى الاستماع إلى هذه الشكوى ، ولكن تهمة رسمية قد وجهت إلى هيبا فى عام ٤٤٨ ، بصورة لم يكن من الممكن تجاهلها ؛ فاستدعى هيبا إلى أنطاكية ليجيب عن الاتهامات الموجهة إليه . وقد عقد المجلس فى أنطاكية بعد عيد الفصح ، ولم يحضره إلا عدد قليل من الأساقفة ، إذ لم يوقع على القرارات التى لا تزال موجودة إلا تسعة من الأساقفة . وقد وجهت ثمانى عشرة تهمة إلى هيبا ، إحداها أنه أهان سيريل الاسكندرى باعتباره ملحداً ، وقد اعترف هو بهذه التهمة. ومن التهم الأخرى أنه كان نسطوريا ، وأنه نطق بكلمات إلحادية فى صلاة يوم الفصح عام ٤٤٥ ، وتهم أخرى أنكرها هو . وذهب اثنان من الشهود الأربعة عليه إلى القسطنطينية ، لأنهم اعتبروا دومنوس ميالا إلى هيبا ، وقد أجلت المحاكمة لغيابهم أجلا غير مسمى . وقد شكا هذان اللذان ذهبا إلى العاصمة إلى الامبراطور ، فأعيدت القضية إلى لجنة خاصة تجتمع فى « صور » ثم غير مكانها بعد ذلك إلى بيروت . وقد أخفق أعضاء اللجنة فى أن يصلوا إلى أى قرار محدد، فاتخذوا حلا وسطاً فى ٢٥ فبراير ، أعلن هيبا بمقتضاه لعنته لنسطور ، وقبوله لأحكام إفيسوس . وما كان لهدنة كهذه أن تصبح دائمة ، لأن أعداء هيبا كانوا نشطين ، وذوى أصدقاء فى البلاط ، وهكذا أعد مجلس آخر فى إفيسوس فى أواخر العام نفسه ، كان هو مجلس قطاع الطرق السيء السمعة ، وقد عزل هيبا فى هذا المجلس وطرد من الكنيسة . ولكن الفضيحة التى سببها هذا المجلس غيرت العواطف على وجه العموم ، فأعاده مجلس كالسيدون عام ٤٥١ باعتباره محروماً حرماناً غير

قانونى ، وطلب إليه أن يلعن نسطور ويوتيخيس كليهما ، وقد فعل ذلك ورجع إلى كرسيه . ويظهر أن أخلاق هيبا الشخصية كانت قوية ، وقد بقى فى كرسيه بقاء لا انقطاع له حتى مات فى ٢٨ أكتوبر عام ٤٥٧ ، فرجع نونوس إلى الكرسى الأسقفى بعد أن تركه لعودة هيبا إليه .

لقد عين هيبا حين نصب أسقفا تلميذاً له اسمه برسومة من شمال العراق رئيساً على مدرسة الرها ، ولقد شارك برسومة إياه الحرمان الذى لحقه عام ٤٤٩ ، وربما أعيد أيضاً حينما رفض مجلس كالسيدون إجراءات مجلس قطاع الطرق . وحين مات هيبا كان برسومة لا يزال رئيساً للمدرسة ، وأصبح باعتباره أول نصير لهيبا غرضا رئيسياً يرمى إليه نونوس بقوة اضطهاده . وأصبح هذا من الخطر بدرجة جعلت برسومة يقرر أن يغادر الرها ، ويتطلب حياة جديدة فى بلاد الفرس . وليس من الواضح ما إذا كان قد نفى أو لم يكن ، وكان خصوم النسطورية فى مدرسة الرها أقلية ، ولكنهم كانوا أقلية قوية ، حصلت فى ذلك الوقت على معونة الأسقف . ولقد رأى البعض أن مدرسة الرها كانت نسطورية وأن المدينة نفسها كانت ضد النسطورية .

ويشتمل تاريخ هذا العصر على صعوبات كثيرة فى ترتيب حوادثه ، لا يمكن حلها بسهولة ، ولكن بعض النقط الثابتة يمكن أن تحدد من مصادر خارجية . وتلك هى النقط :

١ — أصبح هيبا أسقفاً على الرها عام ٤٣٥ ، ويظهر أنه عهد بالمدرسة إلى برسومة فى ذلك الوقت أو بعده بقليل . وفى عام ٤٤٩ عزل مجلس قطاع الطرق كليهما من منصبه . وفى تلك السنة ثار العامة ضد

برسومة ، وطالبوا بطرده من المدينة . وقد كان زعيما نسطوريا مشاكسا جداً ، وكان فى الرها أقلية قوية ضد النسطورية . وقد رأى بعضهم أن المدرسة كانت نسطورية ، وأن الناس فى عمومهم لم يكونوا كذلك ، ولكن هذا موضع شك .

٢ — رجع هبها إلى منصبه عام ٤٥١ بقرار من مجلس كالسيدون ، ويبدو أن برسومة أعيد فى ذلك الوقت .

٣ — مات هبها عام ٤٥٧ ، ونفذ خلفه نونوس قرارات كالسيدون ، فعامل النسطوريين بقسوة ، وكان من نتائج ذلك أن هاجر بعض المعلمين النسطوريين ، وفيهم برسومة ، إلى بلاد الفرس .

٤ — أصبح سيروس أسقفاً على الرها عام ٤٧١ ، واتخذ عداء النسطورية سياسة مستمرة .

٥ — حاول الامبراطور زينو عام ٤٨٢ أن يستميل اليعاقبة الذين انفصلوا عن الكنيسة ، ونشر وثيقة الاتحاد (Henoticon) جاعلا نشرها حلا وسطاً . وكانت هذه الوثيقة موجهة بصفة مبدئية إلى كنيسة مصر ، وقد أدان الامبراطور فيها نسطور ، ورضى عن سيريل الإسكندرى ، ولم يوافق قرارات كالسيدون أو يعارضها . وكانت الحكومة الامبراطورية حريصة على أن تصالح اليعاقبة ، ولكنها لا يبدو أنها اهتمت بالنسطوريين الذين لم تكن لهم نفس الأهمية — واعتبر النسطوريون ذلك هجوماً مباشراً على ديانتهم ، وانزعجوا أيما انزعاج للطريقة التى نظروا بها إلى تخطى الحكومة إياهم إلى خصومهم اليعاقبة .

٦ — وفى عام ٤٨٩ أغرى سيروس أسقف الرها الامبراطور زينو

بأن يغلق المدرسة نهائياً ، ومن ثم هاجر المعلمون النسطوريون إلى بلاد الفرس ، فقابلهم برسومة ، وأغراهم بالإقامة فى نصيبين ، حيث افتتحوا مدرسة نسطورية خالصة فى تعاليمها ، وقد جاءت هذه المدرسة سليلة مباشرة لمدرسة نصيبين ، وأصبحت فيما بعد جامعة مركزية عظيمة للمجتمع النسطورى.

لقد كانت هناك حركتان اضطهاديتان فى مدرسة الرها ؛ إحداهما عام ٤٥٧ ، والأخرى عام ٤٨٧ ، وقد هاجر جميع النسطوريين بعد هذه الحركة الأخيرة .

وكان الملوك الفرس المعاصرون :

٤٣٨ — ٤٥٧ يزدجرد
٤٥٧ — ٤٨٤ فيروز
٤٨٤ — ٤٨٨ بلاش
٤٨٨ — ٥٣١ قواد

أما الأساقفة والمطارنة فقد كانوا :

٤١٥ — ٤٢٠ يهبالها
٤٢٠ معنى فربوخت
٤٢١ — ٤٥٦ داديشوع
٤٥٧ — ٤٨٤ بابواى
٤٨٥ —٦— ٤٩٥ أقق
٤٩٧ —٣— ٥٠٢ باباى

ويقول المؤرخ شمعون الأرشمى (of Beth Arsham) إن برسومة ،

وأقق ، ومعنى ، ويوحنا ، وبولس بنقاقاى ، ويوساى ، وابراهام ، ونرساى ، كانوا جميعاً من معلمى الرها الذين هاجروا إلى بلاد الفرس بعد موت هيبا عام ٤٥٧ . وقد استقبلهم بابواى ، واستقروا فى الأسقفيات الفارسية ، وكرس برسومة نفسه حينئذ لإعادة تجميع النسطوريين ، وأن يفرض النسطورية على الكنيسة الفارسية. وكان شمعون ذا ميول قوية لليعاقبة.

ويبدو أن برسومة أصبح صديق بابواى الذى قدمه إلى الملك فيروز ، وشهد باعتباره أسقفا بقدرته على مفاوضة الرومان ، فأطلعه فيروز على تحصينات الحدود ، ثم بعث به فى مهمة لتفتيش الحدود مع المرزبان الفارسى ، (dux عند الرومان) ، وملك العرب . ويجب أن يكون كل هذا قد حدث قبل صيف عام ٤٨٤ ، حين مات الملك فيروز ، وربما كان قبل إبريل من نفس العام ، حين أعدم بابواى .

وقد اتخذ برسومة إجراءات قوية فيما بين عامى ٤٥٧ — ٤٨٤ لنشر النسطورية فى بلاد الفرس . وقد اقنع الملك بضرورة أن تختلف الكنيسة الفارسية عن الكنيسة الأرثوذكسية التى فى الامبراطورية الرومانية ، وكان أحد إجراءاته التى اتخذها فى هذا السبيل أن يقنع الأساقفة أن يتزوجوا ، وقد ناسب ذلك تماما ما رآه الفرس من أن واجب كل إنسان أن يتزوج وأن يربى الأطفال . ولقد جمع لذلك مجلساً كهنوتيا فى جنديسابور (Bait Lapat) فى أبريل عام ٤٨٤ ، حضره عدد قليل من الأساقفة ، وأقروا قانونية الزواج الأسقفى . وقد حكم على هذا المجلس فيما بعد بالبطلان ، لأن برسومة لم يكن مطرانا ، ولم يكن حق استدعاء المجلس إلا للمطران فحسب ؛ ولهذا لم ترد قرارات هذا المجلس فى Synodicon

Orientale . ولا شك أن برسومة اعتمد على تنصيبه أسقفا حين موت بابواى ، ولكن لما مات حاميه فيروز بعد ذلك بقليل ، تمكن الأساقفة قبل أن يجتمعوا لينتخبوا مطرانا من إجراء انتخاب حر ، ولعلمهم بأن برسومة كان رجلا ثائر المزاج طاغية، فضلوا أن يختاروا أقق(Acacins)،الذى كان كذلك من تلاميذ مدرسة الرها . وقد عقد المطران (Catholicos) الجديد مجلسا كهنوتيا فى بيت عدراى فى أغسطس عام ٤٨٥ . وأقر فيه قرارات جنديسابور ، وعقد مجلسا آخر أكثر رسمية فى سيليوقيا فى فبراير عام ٤٨٦ ، وصلت قراراته إلينا (Synod. Otient., 299—309) ، ونستطيع أن نستخلص منها الميول العامة لتغييرات برسومة التى أحدثها ، ليوفق ما بين الكنيسة النسطورية والعادات الفارسية . ويبدو أن كل ذلك كان رد فعل للتطورات التى كانت ضد النسطوريين فى الامبراطورية الرومانية فى عهد زينو . وقد بقيت لنا رسائل ست مما جرى بين برسومة والمطران أقق فى (Synod Orient., 532—9,) ، تبدى برسومة فى صورة خصم قوى لكل شىء لم يوافق النسطورية وخادم أمين للتاج الفارسى .

أما نرساى (الذى ربما بقى فى الرها حتى أقفلت المدرسة نهائيا عام ٤٤٩ ، وخلف برسومة فى رياسة هذه المدرسة ، أو ربما صحب برسومة فى هجرته إلى بلاد الفرس قبل ذلك ، كما يقول شمعون الأرشمى) ، فقد كان مساويا فى عنفه وفى دفاعه عن النسطورية لبرسومة ، ولكنه عارض برسومة حينا ، ولقى منه معاملة قاسية ، ولا شك أن برسومة كان ذا مزاج تعسفى متحكم . وقد أنشأ برسومة مدرسة نصيبين ، وجعلها تحت إدارة

نرساى ، بعد أن أصبح هو أسقف نصيبين عام ٤٨٥ ، وربما كان بعد إقفال مدرسة الرها عام ٤٨٩ (قارن مابعده) .

ويعقد شمعون صلة بين برسومة ونرساى وبين شخص ثالث ، باعتبارهم جميعا ناشرين للنسطورية فى بلاد الفرس بعد عام ٤٥٧ ؛ ذلك هو شخص غامض يسمى معنى يوصف بأنه أصبح فى النهاية مطرانا ، ولكن المطران الوحيد الذى يحمل هذا الاسم ، ويبدو فى قائمة المطارنة الفرس ، نصب مطرانا عام ٤٢٠ ، فى آخر سنة من حكم يزدجرد الأول ، أى قبل موت هبها بسبعة وثلاثين عاما . ويصفه شمعون بعد هذا بأنه ترجم كتبا سريانية إلى الفارسية القديمة ، وبأنه وضع ترجمة سريانية لتعليقات ثيودور (of Mopseustia) من أجل هبها .

وتقول التواريخ النسطورية إن يزدجرد الأول أصبح جلاداً فى آخر سنة من حكمه ، إذ دفعه إلى ذلك الكهنة الفرس ، الذين أزعجهم إنتشار المسيحية ، وربما كان معنى ذلك أن الكثيرين من المزدكيين تحول إلى المسيحية على رغم القانون الفارسى . وهكذا عزل يزدجرد معنى ، ومنعه من الإشراف على شئون الكنيسة ، ونفاه إلى بلده الأصلى . ويشير مارى وإلياس النصيبيان ، إلى أنه نفى وسجن ، ولكنه أطلق سراحه حين تعهد بأنه سوف لايدعى هو ولا أى شخص غيره لقب المطران . ولا يرد إسمه أبدا فى سجلات الكنيسة النسطورية ؛ ويذكر التاريخ أن معنى وفاربوخت وداد يشوع أصبحوا مطارنة عام ٤٢٠ و٤٢١ ، ويعترف بأن داد يشوع بقى فى هذا المنصب منذ عام ٤٢١ إلى ٤٥٦ ، وأنه خلفه فيه بابواى صديق برسومة . أما الحل الذى يبدو أكثر إحتمالا فيظهر أنه عند موت المطران يهبالها

عام ٤٢٠ ، حدث انتخاب تنازع فيه مرشحون ثلاثة ، وأن معنى وفار بوخت قدصمدا فى البداية ، ولكن داديشوع حصل فى عام ٤٢١ على اعتراف عام . أما بجنى الذى لم يكن ذا شهرة واسعة ، فقد اختلط من بعد بسمى له هاجر من الرها مع برسومة .

وهناك إسم آخر مغمور يظهر أحياناً فى مكان إسم معنى؛ وذلك هو إسم مارى الفارسى ، وهو يوصف كما يوصف معنى بأنه من بيت أزدشير، الذى هو الإسم الرسمى لسيلوقيا . ولهذا يبدو أنه كان أسقفا لسيلوقيا ، ثم مطرانا بعد ذلك ؛ ولكن لا يرد مطران بهذا الإسم فى قائمة المطارنة ؛ ويقال إنه تراسل مع هيبا ، ولكن المطران فى أيام هيبا كان داد يشوع . وقد قيل إن مارى يقصد به داد يشوع ، وأن هذا اللفظ يقصد به « السيد » ، وهــو لقب تعظيمى يوضع فى العادة قبل إسم المطران ، ثم أخذ بالصدفة باعتباره أسماله . ووضح أن إسم داد يشوع كان صعب الكتابة بالأحرف الإغريقية (Cf. Labourt, Le Christianisme dans l'Empire perse, p.133, Note 6) .

ويسهل أن نعد التلاميذ الآخرين الذين هاجروا من الرها إلى بلاد الفرس . وهؤلاء هم أقق (Acacius) الذى أصبح مطرانا عام ٤٥٨ ، وأبا يزديد ويوحنا (من بيت غرماى شرق دجلة) الذى نصب أسقفا فى بيت سارى ، وإبراهام الميدى (the Mede) وبولس بن قاقى الذى أصبح أسقفا فى الأهواز (Beth Huzaye) ، ومات حوالى عام ٥٢٥ ، ومنيكه الذى أصبح أسقفا فى لاشوم من بيت غرماى ، وپوسى (Pusi) الذى أصبح أسقفا فى الأهواز ، وإزالايا من دير كفار مارى ، وأبشوته النينوى

(of Nineneh) . ويعد شمعون الأرشمى (of Beth Arsham) كل هؤلاء بألقاب تهكمية ، باعتبارهم هم الذين ثبتوا على التعاليم النسطورية فى الرها بعد عام ٤٥٧ ، ويوصف معظمهم بأنه من تلاميذ نرساى ، ويمادل هذا على أنهم استمروا فى تلقى تعاليمه بعد أن رحل إلى نصيبين . وكان كل هؤلاء من الفرس ، وواضح أنهم كانوا خلاصة تلاميذ اللاهوت فى الكنيسة الفارسية ، أرسلوا ليكملوا دراساتهم فى الرها ، فى الجامعة السريانية الكبرى ، ثم رجعوا إلى وطنهم . وربما كان أمثال هؤلاء معدين لتولى المراكز العليا على أى حال .

ويبدو من كل هذا التحول الدائم للثقافة الإغريقية ، فى صورة سريانية معدلة ، من الرها عبر الحدود الفارسية إلى نصيبين ، حيث انتشرت فى النهاية إلى المجتمع النسطورى ، ووصلت إلى العرب ، وإنها لحلقة واضحة فى سلسلة النقل ، ولكنها حلقة قد كادت تنكسر فى بعض الأحيان ، ثم تجددت ؛ وهذا ما ننظر فيه الآن .

لقد كانت الثقافة الإغريقية التى انتقلت من مدرسة الرها إلى مدرسة نصيبين الفارسية مكونة فى معظمها من أعمال أرسطو فى المنطق ، مع كتاب إيساغوجى لفورفوريوس . وقد كان هيبا مسئولا عن إدخال دراسة المنطق الأرسطوطاليسى فى دراسات المسيحيين الذين تكلموا السريانية ، وقد ترجم أو حصل على ترجمة الشروح (Hermeneutica) ، والتحليلات الأولى (Analytica Priora) ، لأرسطو ، وإيساغوجى (Isagoge) لفورفوريوس . وسرعان ماتم توزيع هذه الأعمال مع شروح پروبوس .

(Probus) لها (حوالى٤٥٠) مستقلة عن الشروح الإغريقية ، ولكن مع بعض الاستعانة بشروح آمونيوس ، على حين فضل اليعاقبة شروح يوحنا فيلوبونوس. والسبب الأول الذى دعاهما إلى إدخال المنطق الأرسطوطاليسى هو الاستعانة على شرح تعاليم ثيودور of Mopsuestia الدينية وإيضاحها؛ وبقى هذا المنطق دائماً مقدمة ضرورية للدراسات اللاهوتية فى الثقافة النسطورية . وقد انتقـــل المنطق الأرسطوطاليسى فى النهاية مع بعض المؤلفات الطبية والفلكية والرياضية إلى العرب .

ويروى أن برسومة قد نظم مواعظ (homilies) ،وترانيم (hymns) وصلاة واحدة (alitu rg y) . وأعظم عمل أدبى له يثير الانتباه هو مجموعة الرسائل الست التى بعث بها إلى المطران أقق ، وقد بقيت لحسن الحظ فى (Synodicon Orientale) الذى نشره ج . كابوت مع ترجمة وتعليقات (باريس ١٩٠٢) . وقد مات نرساى على مايبدو بين عامى ٥٠٠ و ٥٢٠ وخلفه ابن أخيه إبراهام . وأحسن من عرف من تلاميذه يوحنا النصيبى of Nisibis ، ويوسف حوزايا ، الذى مات حوالى عام ٥٧٥ ؛ وقد ألف يوحنا النصيبى عدداً من شروح الكتاب المقدس ، وبعض الأعمال اللاهوتية الأخرى . فإذا كان ماكتب عن طاعون نصيبين ، وموت كسرى الأول أنوشروان ، من وضعه حقيقة ، فلابد أنه قد كان حيا عام ٥٧٩ الذى مات فى ربيعه ذلك الملك(Wright History of Syriac Literature, 115). وكان يوسف حوزايا أول النحويين السوريانيين (Cf. Merx, Hist. artis. grammat. apud Syros, Leipzig, 1889 pp. 26 sqq) .

٤ — العهد المظلم للكنيسة النسطورية :

كل شكل من أشكال الثقافة العقلية معرض للتعديل حين يسلك به طريق الترجمة إلى لغة أجنبية، ولو كان هذا التعديل سطحيا فحسب فى بعض الأحيان. وقد صدق ذلك على الثقافة اليونانية حين مرت بمرحلة الترجمات السوريانية. ولكن هذا التغير كان فى أوضح صورة فى الجو النسطورى ، الذى أصبح أكثر انفعالا فى شرقيته بعد سياسة برسومة المدبرة ، لجعل الكنيسة النسطورية فارسية . وقد كان من نتائج مجهوداته أن وجدت هوة سحيقة بين المسيحية الإغريقية بالصورة التى هى عليها فى الإمبراطورية الرومانية ، وبين المسيحية النسطورية فى الوطن الفارسى . لقد خلق الانشقاق النسطورى انقساما مذهبياً ، وقد جعلت المجالس التى عقدت فى عام ٤٨٤ ، والأعوام التى بعده ، اختلافا كثيرا فى قواعد التنظيم ، حتى أبطلت قراراتها عام ٥٤٤؛ أما من ناحية العبادة فقد وجد اختلاف ناتج عن بعض النسطوريين بعد عام ٤٥٧ عن الحياة التعبدية فى الكنيسة الشرقية فى مجموعها ، وزاد من ذلك ما عمد إليه برسومة وآخرون من تأليف الصلوات . وأما من الناحية السياسية ، فقد كانت هناك هوة ، لأن الكنيسة الإغريقية بقيت خاضعة لحكومة بيزنطة الامبراطورية ، على حين كان النسطوريون من رعايا الملك الفارسى . وأما من الناحية الثقافية ، فقد وجد انفصال ، لأن تلاميذ اللاهوت وغيرهم أمسكوا عن أن يقصدوا للدراسة أية أرض تتكلم أهلها الإغريقية . وهذه الهوة التى بدأت منذ برسومة أصبحت أكثر اتساعا على يد خلفائه المباشرين .

لقد كان تثقيف أقق وخليفته باباى ، إغريقى المادة سريانى اللغة ، وأصبحت الأسقفية بسرعة بعد ذلك أكثر فارسية ، وكلما زادت شرقيتها ، زاد تدهورها .

إن نظام الكنيسة الفارسية قد شجع زواج رجال الدين زواجاً مدنياً أبرشـــيا ، والزواج قبل التكريس وبعده ، ولم يبح تكرار الزواج . أما الرهبان والراهبات ، فقد كانوا من العزاب ، وأما الأساقفة ، وبعض أصحاب المناصب العليا ، فقد اختيروا من رجال الدين العاديين غير المتزوجين . ولقد أغرى هرمز الثالث بن يزدجرد الثانى (وكان قد ارتقى العرش لمدة قصيرة ، بعد موت أبيه ، ثم خلفه عليه فيروز) الأسقف بابواى بأن يتزوج فتاة جميلة جداً اختارها له ، جريا على الآراء الفارسية من أن واجب كل إنسان أن يتزوج ، ولم يستطع بابواى أن يرفض ، ولكنه أرسل الفتاة فى الحال إلى أسرتها . وقد فعل فيروز نفس الشىء فى صداقته لبرسومة ، ولم يستطع برسومة أن يرفض ، ولكن احتفظ بعروسه ، دون أن يحيا معها حياة زوجية ، على مايقول مؤرخو النساطرة . ولكن برسومة فى رغبته أن يخالف مابين النسطوريين والإغريق ، وأن يرضى الملك ، نصح الأساقفة بالزواج ، حتى بعد التكريس ، وأراد أن يتمتع رجال الدين المسيحيون بسمعة طيبة عند الوثنيين وكهنتهم . وكان من نتائج سياسة برسومة هذه المواد التى صادق عليها مجلس سيلوقيا عام ٤٨٦ . فقد حكم المجلس بعد تأييد المذهب النسطورى (المادة الأولى) بأن يبقى الرهبان فى أديرتهم ، وألا يدخلوا المدن التى بها قساوسة الأبرشيات ، وألا يباشروا الطقوس ، وإلا فعليهم ترك الأديرة (المادة الثانية) . وأما يمين الرهبانية فلا يرتبط به إلا رجال الدين المعتزلون لاغيرهم ، وللشمامسة المعينون فعلا أن يتزوجوا ،

ولا يجوز لأى شخص بعد ذلك أن يصير شماسا ، إلا إذا تزوج وأنجب ؛ والقساوسة كـكل المسيحيين الآخرين لهم يتزوجوا مرة أخرى . ومنذ عام ٤٨٦ إلى أن أبطلت هذه القواعد ، اعتبر العالم المسيحى الكنيسة النسطورية الفارسية فرعا متحللا من المسيحية .

ولم يوقف موت برسومة صيرورة الكنيسة النسطورية إلى الصبغة الفارسية ، وقد انعقد مجلس فى سيلوقيا عام ٤٩٩ ، فوافق رسمياً على زواج المطارنة والأساقفة والقساوسة .

ولقد تبع موت المطران باباى عام ٥٠٢ أو ٥٠٣ عهد من الفوضى ، حين أخفق أساقفة الفرس أن يتفقوا على تعيين مطران ، وأخيرا نصب رئيس شمامسة من عهد باباى ، اسمه شيلا ، لأنه كان ذا حظوة عند الملك قواد . ولكنه لم يحسن القيام على هذا المنصب ، فتصرف فى ممتلكات الكنيسة فى صالح ابن له ، وعهد إلى إليشا زوج ابنته بالمنصب من بعده ، وهذا نوع من المحسوبية يحتمل حدوثه بين رجال الدين المتزوجين . وحين مات شيلا عام ٥٢٣ ، اختار عدد من الأساقفة نرساى ، أسقف الحيرة ، ليكون مطراناً ، واحتفلوا بتنصيبه فى سيلوقيا ، ولكن إليشا كان له أنصار ، فاجتمعوا واحتفلوا بتنصيبه فى طيشفون ، القريبة من سيلوقيا . وهكذا انقسمت الكنيسة النسطورية إلى قسمين اتخذ كل منهما أساقفته وكهنوته ، وطرد القسم الآخر من رحمة الكنيسة . ومات نرساى حوالى عام ٥٣٥ ، فاختار أنصاره بولس ، ونصبوه ، وكان رئيس شمامسة سيلوقيا ، وهكذا استمر الانشقاق . وكان بولس مسنا ، فمات بعد شهرين من تنصيبه ، فاختار أصحابه مَسرَبَا ، الذى قدر له أن يكون مصلح الكنيسة النسطورية ، وقائد البعث العلمى الذى احتفظ بثقافة الرها . ومن الحسن أن يعطى تخطيط عام

لهذا التاريخ ، مهما كانت تفصيلاته دقيقة ؛ إذ يظهر منه المدى الذى بلغه تدهور المجتمع النسطورى وتحلله فى ظل الحكم الفارسى ، وفى قطيعته عن التيار العام للحياة المسيحية والثقافة الإغريقية .

٥ — الإصلاح النسطورى :

نشأ مربا فى الإقليم الذى يقع فى غرب دجلة ، أما ديانته فقد نشأ على العقيدة المزدكية ، وبعد أن عمل فى منصب (أرزبد) فى الحكومة الفارسية فى بلدته ، رقى إلى منصب كاتم السر (سكرتير) المساعد لحاكم (هاماراجرد) أو مدينة بيت أراماى . وهناك قابل جدليا مسيحيا اسمه يوسف ، كان من تلاميذ مدرسة نصيبين، وحين سافرا معاً عامله باحتقار ، لأنه كان مسيحياً ، ولكنه أخذ بتواضعه ، واستعداده للمساعدة ، حين وقعا فى موقف حرج عند فيضان أحد الأنهار . وبعد أن بدآ المحادثة ، وتناقشا فى أمور تتعلق بديانتيهما ، تم تعميد مربا ، فدخل المسيحية .

ثم ذهب إلى مدرسة نصيبين ، ولزم معلما يسمى معنى ، وحين صار معنى أسقفا لأرزون (Arzun) ، ذهب مربا معه إلى أسقفيته ، ونشط فى وعظ الوثنيين والملحدين . وبعدها عاد إلى نصيبين ، وأكمل ثقافته هناك ، ثم بدأ رحلة فى الامبراطورية الرومانية ، ليحصل على معارف أفضل مما له عن اللغة الإغريقية ، التى كتب بها كثيرا جدا مما له علاقة بالديانة المسيحية . وفى الرها قابل سورياً يسمى توما ، فعلمه الإغريقية ، ثم زار معه الأماكن المقدسة فى فلسطين، والأماكن التى لا تقل عن هذه قدسية فى شيت(Scetis)

أو (Shiet) من أرض مصر مهد حياة الأديرة . وأخيرا رجع إلى بلاد الفرس، ولكنه صدم بالحالة التي كانت عليها الكنيسة النسطورية ، والانشقاق الذي وزعها ، فأعد نفسه ليتفرغ لحياة رهبانية كحياة الزهاد الذين رآهم في مصر. ولكن الأساقفة تدخلوا فمنعوه ، وأصروا على أنه يجب أن يضطلع بالتعليم، وبعد قليل اختاروه مطرانا (catholicos) ، وحضوه على أن يجابه ما كان متوقعا من تغلب الدعاية اليعقوبية . وكان أول شيء قام به أن أقر النظام في الكنيسة ، ثم اتجه إلى ترقية المستوى العلمي ؛ وعلى الأخص فيما يتعلق بدراسة المنطق الأرسطوطاليسي . وقد أنشأ لهذا الغرض مدرسة في سيلوقيا ، لأنه لا يبدو ثمة أساس للقصة التي تدعى أنها أنشئت قبل ذلك . ومدرسة سيلوقيا ، هذه كانت ذات سمة تاريخية ، ولكنها لم تصر أبداً منافسا جديا لمدرسة نصيبين ، التي كانت أقدم منها ؛ والتي ظلت جامعـــة مركزية للمسيحية النسطورية .

ودامت أسقفية مربا من عام ٥٢٦ إلى عام ٥٥٢ . وقد أثار نشاطه العظيم غيرة لسوء الحظ ، فكان بينه وبين الملك خسرو الأول مشادة ، كان من نتيجتها أن أمر الملك بهدم الكنيسة النسطورية في سيلوقيا ، ونفى مربا إلى أذربيجان ، وكان مربا بالطبع عرضة للإعدام ، باعتباره مرتداً عن الديانة المزدكية ، ولكنه لم يكن بأى حال المرتد الوحيد الذي هرب من هذه العقوبة . وقد عاد من منفاه بلا إذن ، فألقى به في السجن ، ومات هناك في التاسع والعشرين من فبراير عام ٥٥٢ . ونقل جسده إلى الحيرة ، ودفن هناك ، وأقيم دير على قبره . وقد أصبحت مدينة الحيرة العربية في ذلك الوقت قلعة منيعة للنسطورية . وقيل إنه حاول أن يراجع البشيتا ، وهى نسخة سريانية من العهد القديم ، وربما كانت من العهد الجديد

كذلك ، ولكن النسطورين عامة تمسكوا بالنسخة القديمة ، التى كانوا تعودا عليها . وقد ألف تعليقات على سفر التكوين ، والمزامير ، والأمثال ، والرسائل (epistles) ، للقديس بولس ؛ وألف صلوات ، وترنيمات ، ورسائل مجمعية (Synodal epistles) وقوانين . وقد كانت هـذه الأخيرة معارضة قوية فى زواج الأساقفة والقساوسة . وقد كان أثره على وجه العموم واضحا فى بعث حياة الكنيسة النسطورية . والعودة من الانعزال الشرقى إلى صلة أوثق بالكنيسة الإغريقية .

وقد عاش فى زمنه كاتبان سمى كلاهما إبراهام الكشقرى of Cashkar، وكان أحد هذين من طلاب الفلسفة ومصلحا للاديرة . ويقال إنه كتب مؤلفا عن حياة الأديرة ، ترجم إلى االلغة الفارسية . على يد تلميذه أيوب الراهب . وكان سميه طالبا فى نصيبين ، ومصلحا للأديره أيضاً . لقد وعظ فى الحيرة ، وحول كثيرين من العرب الوثنيين إلى المسيحية ، ثم ذهب إلى مصر وسيناء ، وقضى بقية حياته راهباً على جبل عزلا (Izla) . وقد ترك مجموعة من قوانين الأديرة ، أدق بكثير مما كان مقبولا من قبل فى الأديرة النسطورية .

ونصب ثيودور المروزى أسقفا على مرو فى عهد مربا عام ٥٤٠ ، وكان تلميذاً لسرجيوس الرسعنى (of Rashayn) . الذى يعتبر يعقوبيا (قارن مابعده) ، وكان كأستاذه من طلبة المنطق الأرسطوطاليسى . ولنا فيه وفى إبراهام الكشقرى أدلة على البعث الإنسانى (humanist renaissance) الذى كان فى أيام مربا ، بين اليعاقبة والطوائف الأخرى ، كما كان فى الدوائر النسطورية ، والذى كان هو عامله الأول فى توجيه النسطوريين . وكان

جبريل أخو ثيودور أسقفا على الأهواز (Mormuzd - Ardasher) ، وترك أيضا مؤلفات أدبية ، ولكنها كانت لاهوتية ، فى التعليق على الكتب المقدسة ، وترك كتاباً ضد المانويين والمنجمين .

وعند بعث مدرسة نصيبين بدأ النسطوريون نظاما للثقافة العامة فى المدارس الملحقة بكنائسهم ، وقد تعلم الأطفال فى هذه المدارس الترتيمات والموسيقى الكنسية . وكانت مدرسة نصيبين نفسها فى شكل دير ، حيث التزم الطلبة بيمين على العزوبة ، والإقامة الدائمة ، ومرعاة القوانين ، والاجتهاد . ولم يكن جميعهم رهبانا . ولم ينووا أن يكونوا كذلك . وهذه الأيمان الرهبانية فرضت عليهم مدة إقامتهم فى المدرسة فحسب . وكان رئيس المدرسة وقتاما بعد موت نرساى حنانة الأديابينى . وقد قيل إن ثمانى مائة تلميذاً كانوا فى المدرسة فى عهده . ولكن فى أوائل القرن السابع تكدر جو المدرسة بمنازعات سببها هؤلاء الذين أرادوا الإصلاح ، وفرض نظام أدق ، ونسطورية حازمة ، كتلك التى سادت فى عهد برسومة ، لأن حنانة قد علمهم صورة معدلة من المذهب النسطورى ، قاربت تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية ، وكان لتعاليمه أتباع كثيرون ، وخصوم كثيرون ، وهكذا انقسمت الفارسية عموما ، وظهر هذا الانقسام فى المدرسة . وهجر بعض الساخطين نصيبين ، وأسسوا مدارس أخرى أكثر تمشيا مع آرائهم ، فى أديرة إبراهام وبيت عابى (Bath 'Abe) ؛ ولكن هذه المدارس لم تصبح أبداً منافسة جدية لنصيبين . وفى عهد المطران إيشوعيهب (٦٢٨ — ٦٤٣) نفذت هذه الإصلاحات فى نصيبين ، وانسدت فجوة الخلاف . وكانت المدرسة مزدهرة أيام الفتح الإسلامى ، ولكن لايبدو أنها كان لها أى نفوذ مباشر على العرب ، وربما كان ذلك لأنها كانت لاهوتية محضة ، ولو أنها كانت

مسئولة بطريق غير مباشر عن تعريف المدارس النسطورية الأخرى في جنديسابور ، وسيلوقيا ، بمنطق أرسطو . أما الأثر الذى لحق العرب ، فقد جاءهم بصفة رئيسية عبر جنديسابور .

ولم توح المنافسة مع الدعاية اليعقوبية ببعث الحياة العلمية فحسب بين النساطرة ، ولكنها دفعت إلى التوسع التبشيرى فى الأقاليم المحيطة ، حيث كسب منافسوهم اليعاقبة الكثير من الذين اعتنقوا المسيحية من وثني العرب ؛ وهكذا بدأ مشروع التبشير فى الكنيسة النسطورية ، فامتد إلى الجنوب الغربي فى بلاد العرب قبل وقت طويل ؛ ثم إلى الشرق عبر آسيا الوسطى ، حتى وصل إلى الشرق الأقصى .

وكانت الحيرة ، كبرى المدائن العربية على الحدود الفارسية . ففى نهاية القرن السادس عمد النعمان ملك الحيرة مسيحيا ، وتبع ذلك تحول كثير من العرب إلى المسيحية . وكان هؤلاء العرب اللخميون فى الحيرة أرستقراطية حاكمة ، أما جملة الأهلين فقد كانت من الآراميين السريانيين ، الذين كانوا مسيحيين من قبل . ويبدو أن هؤلاء العرب الذين تقبلوا المسيحية اعتنقوا المذهب النسطورى، وقبلوا أن يقوم بخدمة القداس فيهم قساوسة نسطوريون يتكلمون السريانية،واستعملوا السريانية فى صلواتهم . ويبدو كذلك أن حنين ابن اسحق،وهو أحد أبناء الحيرة،اضطر إلى تعلم العربية فى وقت متأخر من حياته ، حيث كانت الطبقات الدنيا فى الحيرة تتكلم السريانية .

وقد تقدمت البعثات النسطورية إلى الجنوب ، حتى بلغت وادى القرى، الواقعة قليلا إلى الشمال الشرقى من المدينة ؛ وهى معسكر حامية رومانية لم يكن جنودها من الرومان ؛ ولكنهم كانوا من المرابطين من قبائل قضاعة.

وفى أيام محمد (عليه الصلاة والسلام) ، كان معظم هذه القبائل من المسيحيين، وكانت الأديرة والصوامع والبيع مبعثرة فى الوادى جميعه . وقد تجول الرهبان النسطوريون من هذه الأماكن خلال بلاد العرب ، فزاروا أسواقها الكبرى ، مبشرين من رغب فى سماعهم . ويقول الأثر : إن النبى حين كان شاباً ذهب إلى سوريا، فحين بلغ قريبا من بصرى، عرفه راهب اسمه نسطور، وميز فيه صورة نبى المستقبل (الاتقان لابن سعد ج ٢ ص ٣٦٧)(١) . وربما أشار ذلك إلى نوع من الاتصال براهب نسطورى . أما قلعة المسيحية فى بلاد العرب، فقد كانت مدينة نجران، ولكنها كانت فى معظمها يعقوبية . أما ما كان يسمى قلعة نجران فيبدو أنه كان كاتدرائية عظيمة .

ولم تنتقل الثقافة الإغريقية بهذه الاتصالات الأولى ، فإن مساهمة النسطوريين الثقافية كانت على وجه التحديد عن طريق جنديسابور ، وقد حدث نقل علم الإغريق إلى العرب حين كان البلاط العربى قائما فى بغداد ، المدينة القريبة إلى جنديسابور .

لقد وقعت أيام مربا فى حكم خسرو الأول (٥٣١ — ٥٧٨) ، ومع

(١) « فخرج مع غلامها ميسرة . وجعل عمومته يوصون به أهل العير ، حتى قدما بصرى من الشام ، فنزلا فى ظل شجرة ؟ فقال نسطور الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى . ثم قال لميسرة : أفى عينيه حمرة ؟ قال : نعم ؟ لا تفارقه . قال : هو نبى ؟ وهو آخر الأنبياء ؟ ثم باع سلعته ، فوقع بينه وبين رجل تلاح ؟ فقال له: احلف باللات والعزى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط ؟ وإنى لأمر فأعرض عنهما . فقال الرجل : القول قولك . ثم قال لميسرة : هذا والله نبى تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم » .

ورد فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٨٢ طبعة ليدن ١٣٢٢ هـ تحقيق الدكتور يوجين ميتووخ بكلية برلين (المترجم) .

أن هذا الملك قد أعلن حربا على الروم ، كان كثير الإعجاب بالثقافة الإغريقية الرومية ، ورغب رغبة خصوصية فى أن يجلب علم الإغريق إلى ممتلكاته . لقد كان هو الذى أكرم الفلاسفة الذين طردوا حين أوصد جستنيان أبواب مدارس أثينا ، وهيأ لهم الطمأنينة والراحة حين قرروا أن يعودوا إلى بلاد الإغريق . ورغب أن يكون له فى بلاد الفرس مدرسة عظيمة كالتى كانت فى الاسكندرية . وقد أنشأ هذه المدرسة فى مدينة جنديسابور . وهناك جلب منهج الدراسة الاسكندرى ، فقامت الدراسة على كتب جالين (galen) كما كانت الحال فى الإسكندرية أيضا . ولم تكن هذه بداية جديدة ، لأن نفس المنهج قد اتبع فى حمص (Emesa) ، حيث كانت هناك مدرسة . وواضح أن الدراسات التى اتبعت فى الاسكندرية كانت ذات سمعة عظيمة ، وقد اعتبرت على وجه العموم نموذجا للثقافة الدنيوية .

وكان الأطباء الإغريق يحفلون ببعض الأعشاب والعقاقير التى لم تكن تأتى إلا من الهند . وقد بعث خسرو رسولا (Budh) أسقفاً (a christian periodeutes or rural bishop) إلى الهند ليجلب العقاقير ، وينسب إلى هذا الرسول كتاب يسمى (Alef Migin) ، وقد وصف هذا بأنه يقصد منه شرح أول كتاب من طبيعيات أرسطو (physica) أو ("Αλθα το μεγα) التى لم تدثر ؛ كما تنسب إليه نسخة سريانية من مجموعة من القصص الهندية البوذية ، تعرف باسم (Galilag Wa— Dimnag) ، ولكن كون هذا الرسول جعل ترجمته السريانية من أصل هندى سنسكريتى ، كما يدعى عبد يشوع ، يبدو بعيد الاحتمال ، ولا شك أنه كان عنده نسخة بهلوية فارسية » (Wright, Hist. Syr. Lit. 124) . وقد قيل إن خسرو استحضر طبيباً من الهند أيضاً ، ليعلم الطب على الطريقة

الهندية ، وجعله فى سوسة ، ويقصد بها هنا جنديسابور بالطبع . ولا نعلم شيئاً عن هذا الطبيب ، لا اسمه ولا تفاصيل نشاطه. فإذا حكمنا ما كتب عن الطب الهندى فى ملحق فردوس الحكمة ، لعلى بن سهل بن ربان الطبرى ، (حوالى ٨٥٠) لم نجد أن الطب الهندى فى ذلك الوقت قد بلغ شأوا بعيدا ، فقد جعل همه الرئيسى موجها إلى الرقى التى تطرد الأرواح الشريرة ، التى يفترض أنها تسبب المرض ، بالإضافة إلى بعض النظريات الغامضة المضطربة عن النفسانيات (راجع فردوس الحكمة طبعة و. ز. صديقى ، برلين١٩٢٨) وقد يكون ممكنا أن يكون المترجمون قد ترجموا لخسرو الأول إلى الفارسية أجزاءاً من أعمال أرسطو ، وتيمايوس Timaeus ، وفايدو Phaedo ، وغورجياس Gorgias ، لأفلاطون . وقد سمع أغاثياس عن هذه الترجمات، ولكنه لم يصدق وجودها .

ولقد عاش بولس الفارسى فى عهد خسرو الأول (٥٧١) ، ويقول عنه برهبرايوس : إنه كان ممتازا فى الحكم الإكليروسية والفلسفية معاً ، وكان قد طمح إلى أن يكون مطران بلاد الفرس ، وحين خاب أمله ارتد إلى الديانة الزرادشتية . وربما كان هذا صوابا أو لم يكن ، ويتكلم برهبرايوس عن المقدمة المدهشة التى وضعها بولس لمنطق أرسطو ، ويقصد بها مؤلفاً فى المنطق موجودا فى مخطوطة واحدة فى المتحف البريطانى (Add 14660, f. 55 b) (Wright, Hist. Syr. Lit, 122 - 3) ، وهى منشورة فى لاند Land (Anecd. Syriaca, iv. text 1, 32, trans. 1 - 30) .

لقد كانت هناك مدرسة فارسية فى ريشهر Raishahar ، فى كورة ارجان Arrajana ، حيث درس هنالك الطب والفلك والمنطق ، ويشير ذلك إلى

تطبيق آخر للمنهج الاسكندرى ، (معجم البلدان لياقوت نشر وستنفلد ج٢ ص ٨٨٧ ترجمة[١])،وأيضاً (Barbier de Maynaard, Gcogrphical, (Historical and Liteaary Dic'ionary of persia 270—1) وورد ذكر مدرسة أخرى لها مكتبة عظيمة فى الجص Shez ، وهى أيضاً فى أرجان (ابن حوقل ج ٢ ص ١٨٩ ، ١ — ٢)[٢] . ولكننا لا نعلم إلا القليل عن هذه المدارس الفارسية ، وعن الأطباء الفرس قبل الإسلام ، إلا أسماء جاءت فى قائمة صغيرة وضعها منصور موافى (Mansor Mowafih) الذى عاش فى أوائل القرن العاشر .

وكانت الدراسات السريانية لأرسطو مقصورة على المنطق ، وقد درس مع منطقه هذا إيساغوجى لفورفوريوس ، ومختصراً عن فلسفة أرسطو وضعه نيقولا الدمشق ، الذى ألف كذلك كتاباً فى النبات اعتبره الطلاب العرب مدة طويلة من مؤلفات أرسطو الأصيلة . ولقد قرىء المنطق بمساعدة شرح له ، وكان هذا الشرح فى البداية هو ما كتبه بروبوس بالسريانية (راجع أعلاه) ، وأصبح فى وقت متأخر هو الشرح الإغريق الذى كان أمونيوس قد كتبه ، أو الشرح الذى كتبه يوحنا فيلوپونوس ، وقد فضل النسطوريون أولها ، واستعمل اليعاقبة ثانيهما . ويبدو النفوذ

---

(١) يقول المعجم : ريشهر : قال حمزة هو مختصر من ريو أردشير وهى ناحية من كورة ارجان كان ينزلها فى الفرس كشته دفتران وهم كتاب كتابة الجستق وهى الكتابة التى كان يكتب بها كتب الطب والنجوم والفلسفة . ج ٢ ص ٨٨٧ (المترجم)

(٢) « وقلعة الجص بناحية الرجان ، يسكنها المجوس بادكدارات الفرس ؛ وأيامهم تتدارس فيها ، وهى منيعة جدا » (المسالك والممالك لابن حوقل : الجزء الثانى من المكتبة الجغرافية بدار الكتب المصرية ؛ جغرافيا — ١٠٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ص ١٨٩ . (المترجم) .

الأفلاطونى الحديث واضحا فى هذه الشروح ، وقد انتقل عبرالنسخ والشروح السريانية إلى العرب .

ومن أيام مربا فصاعداً تتضح الشواهد المستمرة على الترجمة من الإغريقية ، وعلى العناية بالمنطق الأرسطوطاليسى ، فإذا قصرنا أنفسنا فى هذه اللحظة على الكتاب النسطورين يمكن أن نلاحظ ما يأتى : —

مربا الثانى (يسمى عادة « أبا » فقط ، حيث فضل أن يميز بين نفسه وبين سميه الأكبر) ، وهو مطران من عام ٧٤١ حتى ٧٥١ ، وغالبا ما يسمى أبا الكشقرى ، إذكان أسقفاً لهذه المدينة قبل أن يصيرا مطران . ويقال إنه كان قديرا فى الفلسفة والطب والفلك ، وهذا ما يبدو مطابقا للمنهج الأسكندرى بأكمله ، ويقال ايضا إنه كان عالمـــاً بحكمة الفرس والإغريق والعبرانيين (A. Scher Cron. de Séert, P.O. VII) ؛ وينسب إليه أنه كتب شرحا لمنطق أرسطو . ودخل حين صار مطرانا فى نزاع مع أتباعه من رجال الاكليروس ، حول إدارة مدرسة سيلوقيا ، ويبدو أنه تصرف فى هذهالنقطة تصرفا غيرحميد ، لأنه ترك المدينة وعاش فى مكان آخر سنوات عدة ، ثم رجع فى النهاية . ولقد غزا العرب العراق عام ٦٣٨ ، ثم بلاد الفرس عام ٦٤٢ . وفى خلال أسقفية مربا الثانى كانت العراق وفارس تحت حكم خلفـــاء بنى أمية فى دمشق ، ومن هذا يبدو واضحا أن الفتح العربى لم يوقف الدراسات الأرسطوطالسية ، ولم يتدخل فى شئونها ، فبقيت فى الكنيسة النسطورية تحت الحكم العربى ويقال إن شمعون الغرمانى (of Beth Garmai) قد ترجم إلى السريانية فى أوائل القرن السابع التاريخ الاكليريكى الذى كتبه يوسيبيوس ، ولكن ترجمته قد فقدت .

ويقال إن حنان إيشوع الثانى الذى كان مطرانا بين عامى ٦٨٦ — ٧٠١ ، قد كتب شرحا . لتحليلات أرسطو .

وقد أشرنا قبل ذلك إلى مجهود خسرو الأول فى جلب العقاقير الهندية . وقد كان السكر من بين ما جلبه إلى جنديسا بور من الهند (بالفارسية Shakar أو Shakkar والهندية السنسكريتية Sarkara) ، وقد عرفه هيرودوت باسم (Ktēsias) وعرفه نير خوس وأونيسيكير يتوس باسم عسل القصب « read honey » ، وظنا أنه استخلصته النحل من القصب ، أو كما يطلق عليه ثيوفراستوس (μέλι καλάμινον) .

وتروى القصص أن خسرو اكتشف مخزنا للسكر بين الكنوز التى استولى عليها عام ٦٢٧ ، عند الاستيلاء على داستيجرد . وقد نقى عصير القصب ، واستخلص منه السكر ، فى الهند حوالى عام ٣٠٠ ق م ، وفى ذلك الوقت المتأخر بدأ يزرع حول جند يسابور ، حيث اتخذت دواليب لصنع السكر منذ وقت بعيد ؛ ومن ذلك الوقت ، ولمدة طويلة بعده ، جرى استعمال السكر للتداوى ، ولم يكن إلا فى زمن متأخر كثيرا أن بدأ السكر يحل محل العسل باعتباره وسيلة عادية للتحلية . وبالإضافة إلى الكلية الطبية التى كان لها مستشفى ملحق بها ، أقيمت فى جنديسابور كلية للفلك ، ألحق بها مرصد ، أنشىء على غرار ما وجد فى الإسكندرية أيضا . أما دراسة الرياضيات ، فقد كانت تابعة لدراسة الفلك .

وكان فى جند يسابور عند إنشائها كمخيم للسجناء مواطنون يتكلمون

الإغريقية ، وآخرون يتكلمون السريانية ، ويجب أن يكون بعض السكان قد استعمل الفارسية كذلك ، إذ كانت المدينة قريبة إلى المقر الملكى فى سوسة . ويبدو أن الإغريقية قد أهملت بطول الوقت ، وجرى التدريس بالسريانية ، كما كان فى نصيبين وفى المدارس النسطورية الأخرى ، ولا يدل هذا على أن دراسة اللغة الإغريقية هى التى قد أهملت . وقد اضطرت هيئة التدريس بدافع الحاجة أن تعد ترجمات سريانية لكتب جالين (Galin) ، ولأجزاء من كتب هيبوقراط ، ولبعض المؤلفات المنطقية لأرسطو ، ولإيساغوجى ، وربما كان أيضا لبعض المؤلفات الفلكية والرياضية ، وهذه الترجمات تقع بين أيام هيبا فى الرها وحنين بن اسحق فى بغداد .

وينظر حنين إلى هذه الترجمات باعتبارها رديئة ، ولكن يجب ألا يفهم من هذا أكثر من أنها كانت تحت مستوى ترجماته هو بكثير .

ويقول ابن حوقل (Bib: Geogr, Arab., ii, 109-110) : إن الناس فى جنديسابور قد تكلموا لغة خوزستان ، التى لم تكن عبرية ولا فارسية . ويشير مناهج الأفكار إلى أن الناس هناك كانت لهم رطانة خاصه . وربما انصرف هذا الكلام إلى لغة الشارع العامية ، لا إلى اللغة المستعملة فى فصول الدراسة ، التى كانت سريانية ، كما يتضح من أن الترجمات السريانية قد وضعت لتستخدم فى المحاضرات .

وحين أسست بغداد عام ٧٦١ ، أصبح الخليفة وبلاطه مجاورين لجنديسابور ، وقبل أن يمضى وقت طويل ، جذبت وظائف البلاط ورواتبه

السخية أطباء النسطوريين ومعلميهم من المدرسة ؛ وكان جعفر البرمكى وزير هرون الرشيد أظهر من أغراهم بهذا ، حيث صنع كل مافى وسعه ليجلب علم الإغريق إلى رعايا الخليفة من عرب وفرس . وموقفه هذا المعجب بالإغريق جاءه عن طريق مرو ، إذ بقيت أسرته مدة طويلة هناك بعد نزوحها عن بلخ ؛ وقد ساعده فى جهده هذا جبرائيل بن بختيشوع وخلفاؤه من جنديسابور . وهكذا مرت وراثة النسطوريين للثقافة الإغريقية من الرها ، إلى نصيبين ، إلى جند يسابور ، إلى بغداد .

الفصل السادس

اليعاقبة

---

١ — بداية اليعقوبية .

لم تنشر قرارات إفيسوس وإبعاد نسطور وأتباعه السلام على ربوع الكنيسة ، فقد بدأت المتاعب قبل أن يمضى وقت طويل على هذه القرارات . ومن الضرورى أن نتتبع هذه المتاعب ، ولو فى خطوطها العامة على الأقل ، حيث أدت إلى توسيع الانشقاق فى الكنيسة الشرقية ، ولقد كانت هذه الطوائف المنشقة على الكنيسة هى وسائل نقل العلم الإغريقى إلى العرب . وحينما غزا المسلمون العرب الامبراطورية الرومانية فى النهاية ، قابلتهم هذه الطوائف باعتبارهم منقذين ، وأصبحت على علاقة طيبة بهم . وليس من العدل أن نصور الموقف فى صورة يقف فيها المسيحيون جميعا فى ناحية ، والمسلمون فى ناحية أخرى ، دون أن ننبه إلى بعض التحفظات بالنسبة لهذه الصورة . فقد انقسم المسيحيون إلى طوائف متنازعة ، قبل الغزو العربى بقرون ، وكان لكل طائفة دعوتهـــا ضد الأخرى ، وصلتها القوية بالعرب . أما الطائفتان المتنازعتان ، فقد وقعت كلتاهما تحت اضطهاد الحكومة البيزنطية ،

وكانت كلتاهما من ثم غير ذات ولاء لبيزنطة ، ومن الضرورى أن نفهم هذا الموقف ، لندرك العلاقة بين العرب والمسيحيين .

مات سيريل الاسكندرى خصم النسطورية الكبير عام ٤٤٤ ، وخلفه ديوسكوروس الذى اعتنق نفس الآراء ، ولكنه كان أكثر عنفا ، وأسرع استجابة ؛ فكان خصما متطرفا للنسطورية ، ينقصه حسن التأتى الذى كان صفة من صفات سيريل التى ضمنت له السلامة .

ولقد بدأت المتاعب فى القسطنطينية قبل أن يمضى وقت طويل على تسلمه منصبه . فقد جاهر أحد رؤساء الأديرة المسنين فى غمرة نشاطه ضد النسطورية بمقالة كان يعتقد أنهـا تمثل العقيدة الصحيحة ، : زعم أن المسيح له طبيعتان مندمجتان فى واحدة — الطبيعة النـاسوتية الفانية فى اللاهوتية .

وقد شكا بعضهم من عدم دقة هذا التعبير ، وأنه تجاوز ما صرح به سيريل . وليس معروفا على وجه التحديد من قام بهذه الشكوى أولا ؛ هل كان ثيودوريت ، أو يوسيبيوس ، أو دوريـلايوم ، أو دومنوس الأنطاكى ، ولكنه كان أحد هؤلاء ، وكلهم من أتباع سيريل ، ومن الراضين عن قرارات إفيسوس . وأيا كان هذا الذى تقدم بالشكوى ، فقد كان من أتباع سيريل ، كما كان يوتيخيس نفسه ؛ وهكذا بدأ النزاع بين أعداء النسطورية أنفسهم .

ولقد قدمت الشكوى إلى فلافيان ، الذى كان بطريرقا على القسطنطينية ، ينتمى إلى مدرسة أنطاكية ؛ ولكنه كان معتدل الآراء يتردد قبل الدخول فى أى نزاع . وبرغمه عقد مجلسه المحلى عام ٤٤٨ ، فقرر هذا المجلس أن

يوتيخيس يجب أن يعزل ، ويطرد من رحمة الكنيسة . أما بالنسبة لديوسكورس ، الذى يبدو أنه كان يميل لآراء يوتيخيس ، أو يعتبرها على أى حال أقرب إلى الصواب من تعاليم نسطور ، فقد بدا هذا كأنه بعث للنسطورية ، وانسلاخ عن قرارات إفيسوس ؛ واستطاع ، بفضل الأمبراطورة ، أن يحصل على إعادة سماع الشكوى ، أمام مجلس آخر فى القسطنطينية . واتجه الجانبان كلاهما إلى الاستعانة بالرأى العام ، وملأ يوتيخيس طرقات المدينة بمقالات عن قضيته ، ادعى فيها أن هؤلاء الذين اتهموه زوروا بنود مجلس القسطنطينية الماضى ، ولهذا اهتم المجلس الجديد بالبحث فى هذه التهمة بصفة رئيسية ، وقرر أن يوتيخيس لم يحسن توجيهها ، فكان القرار ضده مرة أخرى .

ولكن ديوسكوروس كان له نفوذ فى البلاط ، فأغرى الامبراطور ثيودوسيوس الثانى بأن يدعو مجلسا عاما للقضاء على النسطورية . وكان تاريخ دعوة هذا المجلس هو ٣٠ مايو سنة ٤٤٩ ؛ فانعقد فى إفيسوس ، فى أغسطس من نفس العام . ورأس ديوسكوروس هذا الانعقاد ، ولكنه تصرف بطريقة طاغية متهورة ، معتمدا على تأييد المحكمة ، وجالبا حرسا عسكريا لدعم سلطته . وأصبح مكان الاجتماع مسرحا للفوضى ، فاستحق تسميته مجلس قطاع الطرق (Latrocinium) ، التى أطلقها عليه البابا ليو . وقرر هذا المجلس إعادة يوتيخيس إلى منصبه ، ولم يسمع شهادة يوسيبيوس ، ودوريلايوم ، المدعيين الرئيسيين ، وعزل فلافيان . وجرؤ بعض الأساقفة الحاضرين على المظاهرة بالاحتجاج ، ولكن ديوسكوروس دعا طائفة من الجند ، وهددهم حتى خضعوا . ولقد تم فى هذا المجلس عزل هيبا الرهاوى ، وتعيين نونوس الشهير بعدائه للنسطوريين فى مكانه .

ولقيت إجراءات مجلس قطاع الطرق اعتراضاً عاماً ، واتجه أشد معارضيها إلى روما يطالبون التعضيد . وتبع ذلك كثير من النزاع الشديد ، حتى يوليه عام ٤٥٠ ، حيث مات ثيودوسيوس ، ونصبت « بولشيريا » أخت الامبراطور زوجها ماركيان امبراطورا على عرش بيزنطة ، فغير هذا من الموقف فى البلاط الذى كان ديوسكوروس يعتمد عليه . فقد رغب ماركيان فى السلام ، وكان مستعدا لأن يرحب بحل وسط ، يضع حدا للخلاف الذى لم يدنس الكنيسة فحسب ، بل كان منبعاً لكثير من الفوضى فى العاصمة .

ودعا مجلساً عاما آخر ليحل هذا المشكل ، فاجتمع فى كالسيدون فى سبتمبر عام ٤٥١ ، وشرع أحكاما حذرة الصياغة ، حرصت على ألا تمس تعاليم نسطور أو يوتيخيس (cf: Labbe, IV, 562 etc.) .

لقد كانت هذه القرارات فى الحقيقة من أشد التعبيرات عن العقيدة التقليدية للكنيسة حذرا ، وفطنة فقهية ، ولكنها كانت محددة . ولقد كان المتوقع أن يوفق هذا التعبير ما بين الجميع إلا المتطرفين ، ولكنه أخفق اخفاقا شنيعا ، لأن المعارضة لم تكن متماسكة ، وكان الخصوم هم المتطرفين المنشقين (aciphaloi) الذين لا رئيس لهم ، ولا قائد (لأنهم تبرأوا من يوتيخيس)، ولا خطة موضوعة . لقد كانوا مجموعة من الساخطين المتنافرين غير المنظمين ، الذين كانوا ضعافا فى أنفسهم ، ولكنهم من الصعب أن يهاجموا . وكان هذا خاتمة المرحلة الأولى مما سمى فيما بعد المذهب اليعقوبى (Monophysitism) . وهى مرحلة معارضة مبعثرة مفككة لأى شىء يميل إلى النسطورية ، ولكن كل الخصوم انقسموا فيما بينهم . أما النقطة

الوحيدة التي اتفقوا عليها إلى حد ما ، فقد كانت اعتبار مجلس كالسيدون ميالا نوعا ما إلى النسطورية ، وكان هذا الإحساس فى أقوى صورة له فى مصر لقد اتفق المتنازعون على كراهية المجلس الأخير .

٢ — الونشقاق اليعقوبى

دخلت اليعقوبية فى مرحلتها الثانية عند نهاية مؤتمر كالسيدون ، ولو أن اليعاقبة كانوا لا يزالون مفككين منقسمين . فإنهم كانوا متفقين على معارضة قرارات كالسيدون ؛ وهذا موقف سلبى احتجاجى ، ومن ثم كان ضعيفاً .

وكان ثيودوسيوس ، الراهب المسن ، الذى حضر المؤتمر ، ساخطا جدا على القرارات ؛ فذهب إلى مسقط رأسه فى فلسطين ، ونشر تعليقاته المعارضة ، فكان من نتيجة ذلك أن حدثت مظاهرات ومعارك دموية فى فلسطين . ورفض ثيودوسيوس أن يعترف بقرارات المؤتمر ، فعزل لهذا السبب، ونصب فى مكانه بروتيريوس ، أحد مؤيدى مؤتمر كالسيدون. ولكن بروتيريوس لم يكن يستطيع أن يظهر للجمهور إلا فى حراسة جنود، وقد نشبت المظاهرات فى الاسكندرية ، فاضطر إلى أن يغادر المدينة . وكان من الواضح أن محاولة فرض قرارات كالسيدون لم تكن عملا سهلا ، فكانت مصر ، وطائفة عظيمة من الرهبان فى كل مكان ، فى تصميم على المقاومة . ومع هذا لم يكن لهم قائد ، ولا صياغة واضحة للقواعد التى اتفقوا عليها . وحاولت الحكومة الامبراطورية أن تضغط ، ولكنها لم تكن تميل إلى المبالغة فى الضغط ، وبدا المستقبل غير واضح بالمرة .

وعند موت ماركيان عام ٤٥٧ انتخب محام عسكرى (military tribune) اسمه ليو التراقى (of Thrace) امبراطوراً ، فكان متسامحاً وحازما . فلقد خفف من سياسة ماركيان، وأمسك عن الضغط على الساخطين على قرارات كالسيدون ، وهكذا كان هناك نوع من التسامح مع المتنازعين. ولقد مات ديوسكوروس منفيا فى جانجرا ،من إقليم بافلاجونيا عام ٤٥٤ ، وهرب بروتيريوس من الاسكندرية ، فنصب مكانه بطريرق جديد اسمه تيموثى أيلوروس ، وكان راهباً قد نفى لمقاومته بروتيريوس . ونفى هو نفسه عام ٤٦٠ ؛ ولكن فى الأعم الأغلب لم يتعرض متعرض للساخطين على مؤتمر كالسيدون ، فانتهزوا الفرصة لتقوية أنفسهم .

وعند موت ليو عام ٤٧٤ ، آل العرش إلى حفيده زينو ، الذى كان أشد ميلا إلى معارضى مؤتمر كالسيدون من سلفه ، وأسر فى نفسه أملا أن يعيدهم إلى حظيرة الكنيسة . وقد كان يمكن أن تنجح هذه السياسة،لو أن هؤلاء المنشقين كان لهم قائد تمكن معه المفاوضة ، أو حتى خطة موضوعة متماسكة لمطالبهم . وفى سبيل ذلك نشر بياناً عام ٤٨٢ يعرف باسم (HanOticon) ، ساق الخطاب فيه أساسا إلى الكنيسة المصرية ، ولكنه صالح لمخاطبة كل من عارض مؤتمر كالسيدون . وقد أدانت هذه الوثيقة نسطور ، وأيدت سيريل الاسكندرى ، ولم تتعرض لقرارات كالسيدون بالموافقة أو الرفض . ولقد كانت هذه خطوة واضحة فى الاتجاه المعارض لمؤتمر كالسيدون ، وقد عرضت شروط الاتفاق على المعترضين . ولم يلق أحد بالا إلى النسطوريين ، الذين لم يكونوا فى ذلك الوقت يعتبرون ذوى خطر عظيم . وظهر ضعف المعارضة فى الحال ، فقد كان بعض المعارضين على استعداد لتقبل هذا البيان ، واعترض عليه آخرون باعتباره فى صالح

النسطوريين . وحدثت عام ٤٧٦ ثورة بقيادة باسيليكوس صهر ليو ، ولكنها أخمدت ، وعاد زينو إلى العرش ، وفى أثناء هذه الثورة حصل باسيليكوس على تعضيد معارضى مؤتمر كالسيدون، لدرجة أنه فى ذلك الوقت بدأت الخلافات المذهبية تصبح عاملا هاما فى سياسة الامبراطورية ، ودعا ذلك زينو إلى أن يصل إلى اتفاق مع الطوائف المنشقة. وكانت معارضة كالسيدون تجمع لنفسها الأنصار . وفى نفس الوقت ألقت الكنيسة الأرمنية سهمها مع سهام المعارضين ، وذهب زينو فى الاتجاه المعاكس لمؤتمر كالسيدون بقدر الإمكان ، فلم يبق إلا أن يعلن نفسه واحدا من المعارضين . ومات تيموثى أيلوروس عام ٤٧٧ ، فخلفه بطرس موخوس الذى كان قد قبل البيان (Henoticon) ، وهكذا أصبحت الاسكندرية ، مع كونها ضد مؤتمر كالسيدون ، مستعدة لأن تقبل طريقا وسطا .

مات زينو عام ٤٩١ ، فتزوجت أرملته واحدا من رجال البلاط اسمه أنسطاسيوس ؛ وقد ارتقى هو العرش الامبراطورى عن هذا الطريق، وحكم سبعة وعشرين عاما ، وتبع سياسة حذرة همها أن تحافظ على الأوضاع الراهنة : ولقد رضيت مصر الصلح بقبولها للبيان ، ولو أن الكثيرين عارضوا الأسس التى اقترحها زينو ، على حين كان فى سوريا عناصر معارضة قوية ؛ وقد جاء من سوريا أول دليل على وجود قيادة للمنشقين .

فنى عام ٥١٢ كان كرسى أنطاكية خاليا ، فاختير راهب يسمى سيڤيروس ليكون بطريرقا . وقد تلقى ثقافة وثنية ، وبدأ حياته محاميا ، ثم تحول إلى المسيحية ، وانضم فى الحال إلى معارضى مؤتمر كالسيدون . ويميل المحدثون فى الدين دائما إلى التطرف ، ولم يكن هو استثناء من هذا . فلم يمض وقت

حتى أصبح راهبا ، ودخل ديرا بالقرب من غزة ، واتصل ببطرس الأيبيرى ، أسقف غزة ، الذى كان واحد ممن دشنوا تيمو ثى أيلوروس . وقد رفض سيفيروس ، باعتباره معارضا لمؤتمر كالسيدون ، على طول الخط ان يعترف بألبيان ، وأن يعترف ببطرس موجوس[1] بطريرقا شرعيا على الاسكندرية ثم ترك غزة ، وذهب إلى دير مصرى غير معروف المكان ، تحت رياسة رئيس (abbot) يسمى نيفا كيوس ، ولكنه بعد قليل طرد من الدير . أما سبب طرده فغير واضح . هل كان متطرفا فى آرائه ؟ أم هل كان معكراً للسلام ، كما قيل إنه كان كذلك فى مكان آخر ؟ وبعد طرده ، ذهب إلى الاسكندرية ، فكان سبباً فى حوادث شغب عديدة . وقد عرف بعد ذلك بأنه حطم ، وهو على رأس جماعة من الرهبان ، عددا من المعابد الوثنية ، وهو إجراء خارج على القانون ، لأن المعابد المهجورة كانت يفرض أنها فى الحماية الامبراطورية . ويبدو أن معظم الرهبان الذين صحبوه فى هذه الإجراءات كان يستطيعون أن يتكلموا القبطية فحسب ، ولا يتكلمون الإغريقية ، فهل كان هو كذلك يتكلم القبطية ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فقد وجب أن يكون على معرفة تامة بمصر والمصريين . ولقد جعلت هذه الإجراءات التى اتبعت فى الاسكندرية من مصلحته أن يهرب إلى القسطنطينية ، حيث كان كذلك على صلة ببعض أعمال الهياج . ويجب ألا يغرب عن البال أن معرفتنا بهذا العهد من حياته تكاد تشتق من كتابات أعدائه الألداء فحسب ، وكان هذا عصرا ذا خصومات مرة ، غير متورعة ، إذ لم يكن هناك قانون ضد القذف ، فهؤلاء الذين كتبوا عن سيفيروس لم يألوا جهداً فى عيبه ، ولهذا يجب أن يطرح الكثير من هذا العيب لهذا السبب .

(١) سماه المؤلف قبل ذلك بطرس موخوس ، ص ١١٤ .

ولم تكن القسطنطينية المكان السعيد الذى طمع فيه سيفيروس ؛ إذ فى عام ٥١١ ، نصب ماسيدونيوس ، من أنصار مؤتمر كالسيدون، بطريرقا؛ وفى السنة التالية ، عين سيفيروس نفسه بطريرقا على أنطاكية على أى حال، وترك العاصمة فى الحال ليباشر مهام منصبه . وكان أول عمل له بعد تنصيبه أن أعلن السخط العام على قرارات مؤتمر كالسيدون ، وهكذا أعلن عن كونه أحد المنشقين المتطرفين . وحينئذ ادعى أنه على صلة بتيموثى فى القسطنطينية ، ويوحنا النيقى (Nicita) أو (of Nikiu) ، الذى أصبح بطريرقا على الإسكندرية فى عام ٥٠٧ . وبهذه المناسبة نذكر أنه تبادل رسائل كنسية مع الاسكندرية ، وأن هذا التبادل استمر حتى تلك الأيام التى نتكلم عنها . وقد كان قاسيا على أنصار مؤتمر كالسيدون حين كان مطرانا لسوريا . فامتاز بميله الاضطهادى ، ولكن يجب أن نقول هنا مرة أخرى إن ماعندنا من معلومات مصدره هؤلاء الذين كانوا أعداءه فحسب . وفى خلال السنوات السبع التى كان فيها بطريرقا على أنطاكية ، حتى مات الامبراطور أنسطاسيوس ، كانت اليد العليا لأعداء مؤتمر كالسيدون ، واعتبر سيفيروس بصفة عامة قائدهم والمعبر عنهم . ولكن هؤلاء الأعداء لم يجتمعوا يوما على تبعيتهم له . ونحن نتأمل لحظة كيف تحول الحظ، وكيف قاسى المخالفون منهم الاضطهاد .

وقد كانت إحدى الطرق التى تستخدم فى نشر وجهات نظر المعارضة لقرارات كالسيدون أن تنشر مؤلفات مزيفة منسوبة إلى ديونيسيوس الأريوباغوصى[١] (the Areopagite) صديق القديس بولس . وقد كان

(١) أريوباغوص تل صخرى يبلغ ارتفاعه ٣٧٠ قدماً فى الشمال الغربى من الأكروبوليس فى أثينا . (المترجم)

الإنتاج هذه المؤلفات فى الحقيقة حوالى ٤٨٢ — ٥٠٠ ، فى مصر على أحد الاحتمالات ، وهى مؤلفات متوبلة إلى درجة عظيمة بنظريات الأفلاطونية الحديثة . وسواء أكان كاتبها من معارضى مؤتمر كالسيدون أم من أنصاره، يظهر التحير فيها واضحاً . وهذه المؤلفات التى تدعى النسبة إلى ديونيسيوس أربعة عنواناتها « هيراركية الملائكة » و « هيراركية الاكليروس » و « أسماء الله » و « اللاهوت الصوفى » . وتوجد بالإضافة إلى هذه المؤلفات رسائل عشرة ، أو قطع من رسائل ، والحادية عشرة لا توجد إلا فى النسخة اللاتينية فحسب ، وهى بالتأكيد تزييف تم فى وقت متأخر جداً . ولا تأتى الإشارة إلى هذه المؤلفات قبل القرن السادس ، حين ذكرها سيڤيروس الأنطاكى ، وإفرايم الذى أصبح بطريرقا على أنطاكية عام ٥٢٦ . وقد دعا أعداء كالسيدون إليها عام ٥٣١ مع الكاثوليك ، ولكن هيباثيوس مطران إفيسوس يقول :

"Ostendi non posse ista Vera ess quae nullus antiquus memoravit" (Mansi, Concilia, VIII, 817).

ثم عبر كثيرون من أبناء الكنيسة الشرقية عن شكوكهم فى أصالتها ، ولكن سيڤيروس وحزبه قبلوها بصفة عامة . وقد ترجمت هذه المؤلفات إلى السوريانية على يد سرجيوس الرسعنى (عام ٥٣٦) ، ويبدو أنها كان لها أثراً قوى فى نشر تعاليم سڤيروس فى سوريا .

ويقرب من هذه الوثائق المنسوبة إلى ديونيسيوس مؤلفات معينة منسوبة إلى هيروثيوس المعلم الذائع الصيت ، الذى تتلمذ علية ديونيسيوس الأريوباغوصى . ولم تكن هذه المؤلفات إغريقية الأصل ولكنها ألفت بالسريانية ، وكتبها ستيفن بر سذيلى الرهاوى ، معاصر فيلوخينوس . وقد

كانت هذه المؤلفات كتلك متوبلة بالنظريات الأفلاطونية الحديثة ، وكان لها نفوذ على أتباع الفرق (Sectaries) حملوه منها إلى العرب فى تاريخ متأخر . وكان سيتفين راهبا عظيم الاحترام لتقواه ، وقد حج إلى مصر بلاد الرهبانية ، فوقع هناك تحت نفوذ بعض الرهبان الملحدين ، ومن بينهم بعض من بعث تعاليم أوريچين . وعند عودته إلى سوريا بدأ يعلم العقائد التى تعلمها فى مصر ، فطرد لهذا السبب من الدير . وحينئذ يمم وجهه شطر بيت المقدس ، حيث استمر يعلم آراءه الغريبة ، متعاوناً مع بعض الرهبان الأوريچينيين الذين استقروا هناك على ما يبدو. وقد رأى تبعا لأوريچين أن نار جهنم ليست أبدية ، ولكنها تكفيرية ، ولهذا يعفو الله فى النهاية عن سكان جهنم ، ويصبح هو بعد ذلك كل شىء (Cor., XV, 28) : وكتب ثيودسيوس الأنطاكى (٨٨٧ — ٨٩٦) شرحا على كتاب هيرثيوس (Brit. Mus. Add. 7189) .

لقد وصلنا الآن إلى ما يمكن اعتباره نهاية العهد الثانى للحركة المعادية لكالسيدون ، وهو العهد الذى تمتعت فيه برضى البلاط ، لأنه كان من المأمول أن المخالفين ربما أمكن مصالحتهم مع الكنيسة ، وهو الذى فى خلاله اتضح أن هذه الحركة كانت سائدة فى مصر ، وقوية فى سوريا . وقد انتهى هـذا العهد بموت الأمبراطور أنسطاسيوس فى ١١ يولية عام ٥١٨ .

٣ — اضطهاد اليعاقبة .

عند موت انسطاسيوس چستين نصب فلاح من تراقيا نفسه أمبراطوراً . وكان الحزب المعارض لكالسيدون فى القسطنطينية تحت قيادة

أمانتيوس الخصى ، الذى صمم على أن يرفع ثيوقريطوس إلى العرش ، ولكنه عهد إلى جستين بتوزيع الإنعامات ، فاستغل جستين النفوذ الذى منحه إياه هذا العهد ، حتى لقد استطاع أن يحتفظ بالعرش لنفسه . كان هذا الأمبراطور الجديد كاثوليكيا وأورثوذكسيا ، أى أنه اعترف بقرارات كالسيدون وصمم على تنفيذها . وعقد مجلس فى القسطنطينية فى ٢٠ يوليو عام ٥١٨ ، اتخذ فيه قرار بالعدول عن سياسة انسطاسيوس وزينو ، وبفرض تطبيق قرارات كالسيدون . وقد وافق على هذه السياسة مجلس كهنوتى عقد فى بيت المقدس فى ٦ أغسطس ، ومجلس آخر عقد فى صور فى ١٤ سبتمبر .

وقد نظر إلى سيفيروس الأنطاكى باعتباره زعيما لمعارضى كالسيدون ، فبعث بالأوامر بالقبض عليه ، ولكنه هرب ولجأ إلى مصر . وقد صدرت فى هذا الوقت أوامر بعزل كل الأساقفة المعارضين لمؤتمر كالسيدون ، ولجأ عدد من هؤلاء إلى مصر ، وفيهم يوليان الهاليكارناسوسى (١) (of Halicarnassus) . وقد كانت مصر قلعة حصينة لهؤلاء المعارضين ، لم يمكن التغلب عليها ، فتركت وشأنها إلى أمد . وحين قدم سيفيروس إلى هناك ، كان البطريرق هو ديوسكوروس الثانى الذى خلف يوحنا النيقى (Niciota عام ٥١٧ ، ولكنه مات فى ٢٤ أكتوبر عام ٥١٨ . وقد نصح البابا هورميسداس أن ينتهز جستين الفرصة ، ويفرض المذهب الأورتوذكسى على الإسكندرية ، وأقترح أن يكون البطريرق شماسا اسكندريا يسمى ديوسكوروس ، فنشبت لذلك مناقشة طويلة ، ولكن

---

(١) نسبة إلى هاليكارناسوس وهى مدينة اغريقية فى آسيا الصغرى (المترجم) .

چستين فى النهاية لم يحدث أى تعيين ، فانتخب الاسكندريون تيموثى الثالث .

وبعد أن غادر سيڤيروس أنطاكية ، عين بولس المرشح الأرثوذكسى بطريرقا ، فأمر بالتمسك بقرارات مؤتمر كالسيدون . ولكن كان هناك الكثيرون ممن رفضوا التمسك بها أو الاعتراف بسلطة بولس ، وقد تنصل هؤلاء من الكنيسة ، حتى لقد أصبح المعارضون لقرارات كالسيدون طائفة متميزة ترفض الاندماج مع المتمسكين بالمؤتمر ، ويرفضون خدمات القداس من رجال الاكليروس المتمسكين . وكانت هذه خطوة محددة فى الاتجاه المعاكس للكنيسة .

وهناك بعض الغموض حول تجارب سيڤيروس التى مرت به فى مصر . ويبدو أنه فى أول الأمر كان هاربا متنكراً ، يعيش تحت خطر القبض عليه ، وإرجاعه ليعاقب . وربما كانت سيرة حياته كما سجلها أثناسيوس الأنطاكى فى « المنازعات » ، التى لا تزال نسخها الحبشية التى نشرها « جود سبيد » فى (Patr. Orient IV, 578 - 90) ، مع مقطوعات من نسخة قبطية ، أخذت عن أخرى عربية(ed. W: E. Cum, in Patr.Or. IV, 578 - 90) ، نقول ربما كانت سيرة حياته هذه مبالغا فيها فيما لاقاه من صعوبات وما قاساه . إن من الميول العادية فى كتابة سيرة القديسين أن تهتم كثيراً بما يقاسون . ويبدو أنه قد رحب به ، وكرم بين يدى تيموثى الثالث قبل أن يمضى عليه وقت طويل فى مصر ، وقد اعتبر فى مصر بصفة عامة من عظماء زعماء الكنيسة ، حتى لقد غطت شهرته على البطريرق نفسه . لقد كان سيڤيروس هو الذى افتتح كنيسة القديس كلوديوس فى أسيوط ، وأدى هناك صلاة لا يزال نصها موجوداً بالقبطية ، وقد ألقى قسطنطين

أسقف أسيوط فى نفس الوقت خطبة ترحيب ، يتضح منها أمر سيفيروس كان يعتبر فى ذلك الوقت الإمام الأعظم للمؤمنين .

These texts in Riepont Morgan MSS., XIII (47)

ولكن وجود لا جثين فى مصر سبب بعض المصاعب ، فلم يكونوا جميعا على وفاق ، وسرعان ما أصبح من الواضح أن الطائفة المناهضة لمؤتمر كالسيدون ، والتى أصبحت تسمى فى ذلك الوقت أصحاب الطبيعة الواحدة (اليعاقبة) على لسان الأورثوذكس ، قد أصبحت منقسمة على نفسها ، فانتمى بطرس موخوس وطائفته إلى المعتدلين الذين اعترفوا بالبيان المسمى (Henoti.on) ، وكانت هذه الطائفة سائدة فى الاسكندرية ، فخليت الاسكندرية فى سلام . ولكن سيفيروس كان ينتمى إلى حزب متطرف ، وكان شديد اللهجة فى التعبير عن آرائه .وكان هو ويوليان الهاليكارناسوسى من المؤلفين ، وقد جعل ذلك تعاليمهما فى متناول المجتمع بصفة عامة .ثم بدا أنهما يختلفان اختلافا ماديا .

فقد رأى سيفيروس أن الجسم الإنسانى فى المسيح كان خاضعا للمعايب الإنسانية ، على نحو ما رأى الأورثوذكس ، ولكن يوليان دفع المذهب اليعقوبى إلى نهايته المنطقية ، فرأى أن إتحادالطبيعتين فى المسيح جعل جسمه متحرراً من كل ضعف إنسانى ، وأن المسيح خالد ، لا يمكن خروجه من الإتحاد الذى حدث حين الخلق . وقد تبع ذلك أن تعذيب المسيح لم يسبب أى ألم ، لقد كان مظهرا من مظاهرالتصوير والتمثيل (Phantasi) ، وهو رأى كان من نتيجته أن أصبح يوليان وأتباعه يسمون الممثلين(Phantasiasts). وقد ألف يوليان للدفاع عن رأيه كتابا (tome) أرسل بنسخة منه إلى سيفيروس ، وبنسخ أخرى إلى الأديرة المصرية المختلفة ، التى اعتنقت

تعاليمه بإخلاص . ثم كتب سيفيروس يدحض هذا الكتاب ، فأصبح من الواضح أن اليعاقبة أصبحو منقسمين إلى ثلاثة أقسام متنافرة على الأقل . ولم يشارك البطريرق تيموثى فى هذا النزاع ، ففضل أن يبقى وراء المعركة ، وأمل أن يكون الوقت عاملا فى القضاء على هذه الخلافات ، وفى مصالحة هؤلاء المخالفين مع الكنيسة الكاثوليكية . وبهذا الأمل فى قلبه حضر مؤتمراً عقد فى القسطنطينية عام ٥٣٣ ، ولكنه لم تعد فيه العدة لهذا الصلح . وقد أزمع عقد مؤتمر آخر عام ٥٣٥ ، ولكنه مات فى ٧ فبراير من ذلك العام ، حيث كان يستعد للذهاب إلى هذا المؤتمر .

وقد مات جستين فى ذلك الوقت ، وآل العرش الامبراطورى إلى جوستينيان (أول أغسطس عام ٥٢٧) ، الذى اتبع فى سياسته نفس الخطوط التى رسمها جستين ، ولكنه كان أكثر مرونة فى التطبيق . وقد كان جوستينيان راغبا بإخلاص فى توحيد الكنيسة ، ولكنه يبدو أنه أساء تقدير المشكلات التى فرقت الأحزاب والطوائف المختلفة . ولقد كانت سياسته هى المصالحة ، ولكن سيفيروس رفض الصلح . وكان بدء العهد الجديد تنفيسا محببا عن اليعاقبة . حقيقة إن جوستينيان قد وضع قوانين شديدة لمعاقبة الإلحاد ، ولكن هذه القوانين قد وضعت فى الاحتياط ، وقد كان هو أذكى من أن يضعها موضع التنفيذ . ولقد كانت زوجته ثيودورا ، وهى راقصة سابقة ، تعلن ميلها إلى اليعاقبة . وربما كانت صاحبة آراء خاصة ، أو ربما كان موقفها ، كما قال بذلك كثيرون ، شطرا من سياسة ماكرة وضعها الامبراطور ، الذى لم يرد أن يجر اليعاقبة إلى إعلان العصيان .

وعند موت تيموثى اجتمع المجلس الكهنوتى الاسكندرى فى التو ، لينتخب بطريرقا جديدا ، وقد أغراهم خصى من البلاط اسمه كالوتيخيوس ،

وهو ينفذ تعليمات من القسطنطينية ، أن يختاروا شماساً اسمه ثيودوسيوس ، كان يعقوبيا متسامحا ، وصديقا لسيفيروس ، وفى نفس اليوم نصب ثيودوسيوس ، وبدأ فى تنفيذ مراسيم دفن سلفه ، كما كانت العادة المتبعة فى الإسكندرية . ولكن أهل الإسكندرية ، وقد حرضهم المتطرفون من أنصار جوليان ، رفضوا أن يكون ثيودوسيوس بطريركاً عليهم ، فاجتمع المجلس مرة أخرى ، وانتخب غيانوس كبير الشمامسة ، الذى لم يقبل هذا المنصب إلا بعد أن أتعبهم فى إقناعه به ، فتم تنصيبه فى بيت أحد رجال الأكليروس . وكان ذلك أكثر عجبا ، لأنه ساعد من قبل فى سبيل الإتيان بثيودوسيوس بطريركا . وسرعان ما أرسل غيانوس إلى المنفى على يد السلطات الدنيوية ، مع شغب وقتل كثير ، ولكن ثيودوسيوس ما كان ليجرؤ على الظهور علانية فى المدينة ، واضطر إلى البقاء خارجها فى دير كانوب .

وفى خلال هذا العام(٥٣٥) ، نصب بطريرق جديد فى القسطنطينية اسمه أنثيموس ، وكان ميالا لليعاقبة ، وإن لم يكن واحدا منهم ، ولكن عدداً من الأساقفة اليعاقبة المحرومين ، وفيهم عدد من الفريق المتطرف ، كانوا فى القسطنطينية ضيوفاً فى قصر ثيودورا ، وقد اعتبر ذلك فضيحة فى نظر الأرثوذكس .

وظهر فى ذلك الوقت شخص جديد هو سرجيوس الرسعنى (حوالى ٥٣٦) ، الذى كان طبيبا وفيلسوفا شهيرا ، وقديراً فى اللغة الإغريقية ، ومترجماً إلى السريانية لمؤلفات مختلفة فى الطب ، والفلسفة ، والفلك ، واللاهوت وفى حياة مربا المطران النسطورى إشارة إلى شخص يسمى سرجيوس ، يوصف بأنه آرى (Arian) له ميل إلى الوثنية ، وقد رغب مربا فى مقابلته

ومناقشته ، وربما فى تحويله إلى العقيدة الصحيحة ، ولاشك أن هذا كان سرجيوس المذكور . وقد ذهب عام ٥٣٥ إلى أنطاكية ، ليشكو أسقفا اسمه آسيلوس . ولكن إفرايم بطريرق أنطاكية كان نفسه فى موقف حرج؛ لقد كان هو البطريرق الأرثوذكسى ، وقد اشتهر باضطهاده لليعاقبة . وقد بدا فى ذلك الحين أن اليعاقبة كان نجمهم فى صعود ، تحت حماية ثيودورا ، وخاف ما يمكن من إرجاع سيفيروس إلى كرسى أنطاكية . وإذ لاحظ أن سرجيوس كان رجل علم وثقافة ومعرفة بالإغريقية ، أرسله إلى البابا أغابيتوس ، للحصول على صوته فى دعوة الامبراطور إلى استعمال الشدة ضد اليعاقبة . وقد أدرك سرجيوس البابا أغابيتوس وهو يتأهب للذهاب إلى القسطنطينية فى مهمة أخرى ، هى المفاوضة فى شأن صلح ثيوداهاد ، الذى رغب فى مصالحة جوستيليان . وقد ذهب البابا وسرجيوس معا إلى القسطنطينية . ولم ينجح أغابيتوس فى إيقاف الحملة التأديبية التى استعدت للذهاب إلى ثيوداهاد ، ولكنه احتج لدى الامبراطور على الطريقة التى يمنح اليعاقبة بها التسامح . ومات سرجيوس بعد ذلك بزمن غير طويل ، ولو أن معلوماتنا عن حياته ، وترتيب حوادثها قليلة . فما يدعى على وجه العموم أنه يعقوبى ، مع أن الترجمات التى قام بها من الإغريقية يستعملها النسطوريون وآخرون أيضا . ويدعى المؤرخ السورى عبد يشوع (B. O., iii,87) أن سرجيوس كان نسطوريا ، لأن كثيرا من مؤلفاته مهدى إلى ثيودور ، الذى أصبح أسقفا نسطوريا على مرو عام ٥٤٠ . ولكن ثيودور المروزى كان تلميذه ، ولاشك أنه أهدى كتبه إليه لهذا السبب . ومن المؤكد أن المطران النسطورى مربا لم يعده بين أشياعه . وقد قدم شكواه إلى بطريرق أنطاكية الأورثوذكسى ، وعمل سفيرا له .

ولكن لم يكن هناك أى إنسان آخر يمكن أن يشكو إليه ، لأن البطريرق اليعقوبى سيفيروس كان منفيا . وهناك حل ممكن بلاشك هو أنه تحول من طائفة دينية إلى أخرى ، فهو لم يمدح على أى حال بحسن خلقه . وبالنظر إلى الطرق التى اتبعت فى المنازعات الدينية ، يدل هذا على أنه كان قد تحول من طائفة إلى أخرى . وربما كان ذلك لأنه كان رجلا لا يهتم للخلافات المذهبية ، ولا يحفل إلا بأمر نفسه فقط . ولقد حضر بمدرسة الإسكندرية فى أيامه الأولى ، واستغل معرفته بالإغريقية فى عمل ترجمات سوريانية لأعظم العلماء الذين درست مؤلفاتهم هناك . وهذه الترجمات ، كما يذكر حنين بن اسحق فى رسالته ، تشمل كل منهج الدراسة الاسكندرى ، ولو أنه لم يتخذ شكله النهائى فى ذلك الوقت . وقد أضيف إلى هذا المنهج مؤلفان لجالين فى وقت متأخر هما De Sectis و De pulsibus ad Tironem . ولم يترجم سرجيوس هذين ، إذ وضع نسختيهما السوريانيتين ابن سهدا ، فى العهد الإسلامى . ويصف حنين بن اسحق هذين بكونهما ترجمة ضعيفة جدا . ولكن مستوى حنين كان عاليا جـدا . وكثير مما بقى من أعمال سرجيوس محفوظ فى المتحف البريطانى تحت رقم (Brit. Mus. Add. 14658.)

وكان من نتيجة تدخل البابا أغابيتوس أن اتخذت بعض الإجراءات ضد اليعاقبة . فقد اجتمع مجلس كهنوتى فى القسطنطينية ، فعزل كلا من أنثيموس بطريرق القسطنطينية ، وتيموثى الاسكندرى ، على حين طرد سيفيروس طرداً رسمياً . وعين بطريرق جديد وفى القسطنطينية هو ميناس . ورجع سيفيروس إلى مصر مرة أخرى ، بعد هذه التجربة ، حيث مات . أما التاريخ المضبوط لموته فغير معلوم ، ولكن يرد اختلاف فيه بين ٥٣٨،

٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ . وقد ترك مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا مقطعات من الترجمات السوريانية . وأكبر عمل له أنه قد شكل العقيدة اليعقوبية ، وجعلها معارضة بالتأكيد لقرارات مؤتمر كالسيدون،وغير مستعدة لقبول البيان المسمى (Henoticon) ، وقد كان حريصاً على ألا يقبل الرأى المتطرف الذى قال به يوتيخيس ، أو يوليان الهاليكارناسوسى ، حقاً إنه فى بعض النواحى يقرب من العقيدةالكاثوليكية قربا لايتوقع من يعقوبى؛ ويبدو أن النزاع بدأ أولا على يد يوتيخيس ، ولما كان يوليان منازعا أعلى صوتاً ، اتخذت آراؤهما باعتبارها ممثلة العقيدة اليعقوبية ، ولكن سيفيروس نادى بمذهب أكثر اعتدالا ، ومع ذلك يجب أن يوضع هو وأتباعه بين المنشقين ، إن لم يكن لأى سبب آخر فلعدم استعداده هو وأتباعه لقبول قرارات مؤتمر كالسيدون ، أو التفكير فيها .

٤ — تنظيم الكنيسة اليعقوبية

يعتبر موت سيفيروس الأنطاكى بنهاية عصر آخر فى تاريخ اليعاقبة ، وقد أصبح لهم من نتيجة جهد سيفيروس مذهب محدد ، موضوع فى عبارات واضحة ، ولو أن هذه التعبيرات لم تكن فى ذلك الحين مقبولة عند جميع أقسام المجتمع اليعقوبى . لقد كان هذا المجتمع مجتمعا بلا تنظيم ،ولم يكن أساقفتهم قادرين على تنصيب قساوسة ، لأنهم كانوا مطرودين من كراسيهم واضطر أتباعهم فى مناطق كثيرة إلى التخلى عن الطقوس لنقص فى عدد رجال الاكليروس ، ولأن اليعاقبة كانوا يرفضون أن يقوم بهذه الطقوس قساوسة من أنصار مؤتمر كالسيدون،ولقد نفذ جستين قرارات كالسيدون

تنفيذا دقيقا ، و نفذها چستينيان أقل دقة . ولكن الامبراطورة ثيودورا كانت عضد اليعاقبة ، وقد استضافت عددا من الأساقفة المطرودين فى قصرها ، ومنحتهم الرواتب .

وكان الأساقفة الأنطاكيون الأورثوذكس مثل يوفراسيوس (٥٢١ — ٥٢٦) ، وإفرايم (٥١٦ — ٥٤٦) ، حرباً على يعاقبة سوريا ، وذهب راهب من دير على جبل عزلة (mount izla) مع آخر من تلا(١) يدعى سرچيوس ، إلى القسطنطينية ليشكوا إلى ثيودورا . أما هذا الراهب فقد كان اسمه يعقوب التلاوى ويعرف على وجه العموم باسم يعقوب برذعانة ، تلميحا إلى رداء خشن كان يرتديه ، وبقى فى القسطنطينية خمسة عشر عاما فى حماية ثيودورا ، التى أظهرت عطفها عليه ، ولكن لم تستطع فى ذلك الوقت أن تفعل أى شىء آخر . وفى عام ٥٤٣ ، وصل إلى البلاط الحرث ابن جبلة ، ملك غسان القبيلة العربية ، الذى كان يحصل على عون مالى من حكومة بيزنطة لحماية الحدود السورية ، فأعطى لقب « ملك » بصفة رسمية من الحكومة الإمبراطورية ، وقد سأل ثيودورا أن تعد العدة لإرسال بعض الأساقفة إلى عرب الشام . وقد طلبت ثيودورا إلى ثيودوسيوس ، بطريرق الإسكندرية المنفى ، الذى كان يعيش سجينا فى قصرها ، أن ينصب شخصا يسمى ثيودور أسقفا على بصرى ، وهى مركز تجارى عظيم على الحدود السورية ، كانت تمر به تجارة الهند وبلاد العرب المحمولة برآ ، على الطريق التجارى من اليمن إلى مكة والحجاز ، لتدفع عنها ضريبة الجمارك الامبراطورية . وقد نصب ثيودوسيوس فى نفس الوقت يعقوب برذعانة أسقفا على الرها . ولم يكن ذلك إلا تكريما باللقب ، إذ كان من المفهوم أن يؤدى مهمة أسقف طواف ، لينظم المجتمع اليعقوبى فى سوريا وآسيا

(١) المقصود من تلاهو قسطنطينة من بلاد الجزائر الحالية . (المترجم) .

الصغرى ، حيث قام ثيودور بنفس الدور مع عرب الحدود ، وبلاد العرب نفسها . ولقد كان يعقوب أكفأ الرجلين ، فطاف فى سوريا ، وآسيا الصغرى ، ومصر ، وبلاد أخرى ؛ فعل كل ذلك متنكرا ، وتحت مكافأة مطروحة لكل من يأتى برأسه . وقد نظم المجتمع اليعقوبى فى كل مكان ، باعتباره كنيسة مستقلة ، منصباً الأساقفة ، ومعينا القساوسة ، ومشرفاً على الإدارة ، حتى لقد اعتبر بحق مؤسس الكنيسة اليعقوبية التى تعرف عموماً بهذا الإسم Jacobites نسبة إليه .

ولقد نصب صديقه سرچيوس عام ٥٤٢ ، أو ربما كان فى عام ٥٣٩ ، بطريرقا يعقوبيا على أنطاكية . لقد كان هناك بطريرق أورثوذكسى يظهر اسمه فى القوائم الرسمية ، ولكن سرچيوس كان البطريرق المعترف به من اليعاقبة (Jacobites أو Monophysites) .وكان التكريم لقبيا فحسب ، فلم يسمح لبطريرق يعقوبى أن يعيش فى أنطاكية . ومن سوء الحظ أن يضطرب المجتمع اليعقوبى بعدد من المنازعات الداخلية ، التى لم يستطع يعقوبى أن يوفق بين أطرافها ، برغم أنها سببت له كثيراً من المضايقات . وفى عام ٥٧٨ ، بدأ رحلة له إلى مصر ، ليتشاور مع دميان بطريرق الاسكندرية بشأن هذه الصعوبات ، ولكنه مرض فى الطريق ، ومات فى دير مار روما نوس .

ومع أن الكنيسة اليعقوبية لم تنظم ، ولم تستكمل أمرها باعتبارها هيئة مستقلة قبل زمن يعقوب برذعانه ، كان لها زعماء أذكياء عديدون فى سوريا قبل ذلك الوقت ، أشهرهم يعقوب السروجى وفيلوخينوس .

أما يعقوب السروجى الذى كان أسقفا عاما فى حورا (Haura) من أبرشية سروج حوالى ٥٠٢ — ٥٠٣ ، ونقل القس يتنان فى نفس الإقليم عام ٥١٩ ومات عام ٥٢١ ، فقد ترك رسائل عدة ، معظمها محفوظ فى المتحف البريطانى ، تحت رقم ١٤٥٨٧ و ١٧١٦٢ ، ولكن شهرته تعتمد اعتماداً رئيسيا على قصائد شعرية له ، وعلى الأخص بعض المواعظ المنظومة التى قلدها الكثيرون .

وأما فيلوخينوس ، واسمه بالسريانية أكسينايا ، فقد كان من تلاميذ مدرسة الرها ، حيث تم تدريبه على يد هيبا ، ولكنه كان من الأقلية التى وقفت ضد النسطوريين وتعاليمهم . ويقال إنه هو الذى أوحى إلى الأسقف سيروس أن يغرى زينو باقفال مدرسة الرها عام ٤٨٩ . وفى عام ٤٨٥ تم تنصيبه أسقفا على هيروبوليس (Mabboug أو Hieropolis) على يد بطرس الملىء (the Fuller) الأنطاكى ، وزار القسطنطينية عام ٤٩٩ ، ثم فى عام ٥٠٦ ، وقد قاسى كثيراً فى كل مرة على يد أعدائه من الرجال الرسميين ، وفى عام ٥١٢ رأس مجلساً كهنوتياً ، انتخب فيه سيفيروس بطريرقا على أنطاكية . وعند ارتقاء جستين العرش ، نفى مع ٥٣ أسقفاً من زعماء اليعاقبة . فذهب إلى فيليبوبوليس فى تراقيا ، ثم إلى غنغرا فى بافليغونيا ، وقتل هناك عام ٥٢٣ . لقد ألف عدداً من المواعظ النثرية ، والمؤلفات اللاهوتية ، والرسائل ، وصلوات مختلفة . ولكنه اشتهر بصفة رئيسية بالنسخة الحديثة المراجعة للعهد الجديد بالسريانية ، أعدها تحت توجيهه پوليكارپ ، وانتهى منها عام ٥٠٨ . وقد نشر جزء من هذه النسخة فى انجلترا على يد پوكوك عام ١٦٢٠ ، ولكن مصدر النشر كان مخطوطة غير دقيقة ، توجد

الآن فى (المكتبة البودليانية بأوكسفورد[1] Bodleian) ، وقد نشرت صورة فوتوغرافية لمخطوطة أخرى من هذه النسخة ، مأخوذة عن نسخة بخطية فى ملكية فرد فى أمريكا ، نشرها Isaac H. Hall عام ١٨٨٨ . ولكن النص مجتمعاً لا يسهل الحصول عليه ، ولو أنه قيل عدة مرات إنه قد تم الكشف عنه . وقد اشتهرت هذه الترجمة المراجعة وقتاً طويلا ، ولكن اليعاقبة بعد ذلك أتوا بنسخ أحسن منها طغت عليها .

وأما مارا أسقف آمد (توفى ٥٢٧) ، فقد كان أحد هؤلاء الذين طردوا من مناصبهم على يد جستين عام ٥١٩ ؛ ولقد نفى مع إيسيدور أسقف قنسرين إلى بطرة من بلاد العرب ، وعند موت جستين عام ٥٢٧ ، سمح له بالذهاب إلى الإسكندرية ، حيث قضى السنوات الباقية من حياته . وقد أنتج فى الاسكندرية نسخة من البشارات ، وقد وضع لهذا النص مقدمة بالإغريقية ، وتوضح كل هذه الأمثلة النشاط العقلى للمجتمع اليعقوبى .

ومن قادة اليعاقبة يوحنا بركرسوس ، الذى توفى فى التاسع من فبراير عام ٥٣٨ ، وكان أسقفا على قسطنطينة ، تم تنصيبه عام ٥١٩ ، وكان يعقوب السروجى أحد الذين نصبوه . وفى عام ٥٢١ عزله جستين ، ولكنه ذهب إلى القسطنطينية ليدافع عن نفسه ، وفى طريق عودته إلى أهله قبض عليه إفرايم بطريرق أنطاكية ، الذى كان من كبار من اضطهدوا اليعاقبة ، وألقى به فى سجن دير قومس مانا س (Comes Manasse) ، وقد مات هناك عام ٥٣٨ . ولقد قضى الكثير من سنى حياته فى الدعوة للمذهب اليعقوبى على حدود سوريا ، وبين القبائل العربية المجاورة ، وترك بعده مجموعة من

---

(١) أسسها السير توماس بودلى ١٠٤٥ — ١٦١٣ (المترجم)

القوانين (Canons) والمسائل (Quaestiones) وبعض الكتب النثرية.

ومن معاصريه شمعون ، أسقف بيت أرشم ، بالقرب من سيلوقيا ، وتم تنصيبه فى عهد المطران باباى (٤٩٨ — ٥٠٣ ، ومات عام ٥٤٨) . كان تلميذا من تلاميذ منطق أرسطو ، ومناقشا لايتعب ، وعمل كما عمل يوحنا بركوسوس ، على نشر المذهب اليعقوبى . ورحل حول فارس والعراق مجمعا اليعاقبة ، وداخلا مع النساطرة . واليوتيخيين Eulychians) ، والمانويين (Manichaeans) ، فى مناقشات تعقد لها المجالس ، حتى اكتسب بهذا لقب « المجادل الفارسى » ، وهو أحد المدافعين القليلين الأقوياء عن المذهب اليعقوبى فى بلاد الفرس . وبعد ذلك بقليل (٥٠٣) ، عين أسقفاً على الأبرشية الصغيرة المسماة بيت أرشم ، بالقرب من سيلوقيا . وزار معقل النساطرة القوى فى الحيرة مرات عديدة، وذهب إلى القسطنطينية ثلاث مرات ، ليتشاور مع الامبراطورة ثيودورا ، ثم مات فى خلال ثالثة هذه الزيارات . ولا توجد إلا اثنتان من رسائله ، إحداهما يتحامل فيها بشدة فى شرحه لقيام النسطورية وانتشارها ، وفيها عبارات مهينة للكثيرين من قادة النسطورية ، والأخرى عن اضطهاد النصارى فى نجران من بلاد العرب ، على يد الملك اليمنى اليهودى ذى نواس عام ٥٢٣ ، والمفروض أن هذا الاضطهاد هو موضوع سورة ٨٤ من القرآن[١] .

وكان إيشوع الزاهد (stylite) مدافعا يعقوبيا آخر ، بدأ راهبا فى دير زقنين بقرب آمد (Amida) . وقد كتب تاريخاً للحرب الفارسية لا يزال مرجعنا المفضل لذلك العصر ، ولو أن به ميلا إلى اليعاقبة فى الطريقة التى

---

(١) سورة الأخدود (المترجم) .

يختار بها الأشخاص الذين يستحقون إعجابه . وكتب هذا التاريخ حوالى عام ٥١٥ م

(ed. Martin, Chronique de Yosue le Stylite, 1876, in . Abhand. für d. Kunde d' Morganlondes, VI, and W. Wright, The Chsonicle of Joshua the stylite, composed in Syriac, with trs. and notes, Camb., 1882.)

أما شمعون قوقايا (أى الخزاف) من غرشير ، بجانب دير ماربسوس ، فقد كان يكتب ترانيمه وهو يجلس إلى دولاب صناعته . وسمع عنه يعقوب السروجى من أفواه الرهبان ، فزاره وأخذ بعض ترانيمه ، وشجعه على تنمية مواهبه الشعرية . ويقول رايت فى كتابه تاريخ الأدب السريانى ص ٧٩ إن نموذجا من هذه « القوقاياتا » (أو الترانيم التى كتبها قوقايا) لا يزال محفوظاً فى شكل تسع ترانيم عن مولد المسيح ، فى المتحف البريطانى تحت رقم ١٤٥٢٠ ، مخطوطة من القرن الثامن أو التاسع » .

(Brit. Mus. Add. 14520)

وكان يوحنا الأفتونى (John of Aphtonia) أحد رجال الدين الذين اضطهدوا فى عهد جستين ، وكان رئيساً لدير القديس توما فى سيلوقيا . ولقد طرد من ديره فأنشأ ديراً آخر فى قنسرين بجانب الرها . وازدهر هذا الدير فى بداية القرن السابع بدراسة الإغريقية ، وغشية كثير من أحبار اليعاقبة . ولم يكن لليعاقبة مدرسة قط كمدارس النساطرة فى نصيبين وجنديسابور ، ولكن هذا الدير كان مركزا ثقافياً لا يقل فى القيمة عن هذه المدارس .

أما يوحنا الإيفيسوسى (أو الآسيوى) فكان راهبا يعقوبيا اضطر إلى الهرب من ديره ليتوقى الاضطهاد ، فلجأ إلى القسطنطينية عام ٥٣٥ م

وهناك لقى يعقوب برذعانة . ولقد كان موضع عطف الإمبراطور جستينيان ، الذى سلكه فى الخدمة الامبراطورية ، وأرسله إلى آسيا الصغرى ليبشر الوثنيين الذين كانوا لايزالون حول إيفيسوس . فلما مات جستينيان بدأت حياته تضطرب ، ولا يعرف تاريخ موته ، ولكنه كان حيا عام ٥٨٥ . أما لقبه الرسمى فكان « أسقف إيفيسوس على الوثنيين » ، وهو يستحق الاهتمام من حيث كونه مؤلف تاريخ إكليريكى من أجزاء ثلاثة ، كل من أولها وثانيها مكون من كتب ستة ، تشمل تاريخ الكنيسة إلى عام ٥٧٢ ، أما الثالث ، وهو من كتب ستة أيضاً ، فيذهب بالتاريخ إلى عام ٥٨٥ ، ويشمل العهد الذى له به دراية شخصية . وبما أنه كان على صلة بيعقوب برذعانة، وزعماء اليعاقبة الآخرين ، فإن هذا التاريخ يشتمل على مادة عظيمة القيمة . ولا يزال الكثير من هذا التاريخ يوجد فى شكل مقطوعات مبعثرة، ولكن كثيراً من هذه المقطوعات طويل إلى درجة كبيرة . وفى المتحف البريطانى مجلد (Brit. Mus. Add. 14640) نشره كوريتون (Cureton) عام ١٨٥٣ ، يشتمل على معظم هذا التاريخ . ولهذا ترجمة انجليزية نشرها باين سميث (Payne Smith) عام ١٨٦٠ ، وأخرى ألمانية نشرها شوينفلدر (Schoenfelder) عام ١٨٦٢ .

ولتاريخ يوحنا الإيفيسوسى ملحق من تاريخ زخارياس ريتور الإغريقى (Zacharias Rhetor) ، أو (Scholasticus) ، من رجال أواخر القرن السادس . وهذا المؤلف غير موجود لسوء الحظ ، ولكن هناك مجموعة من القرن السادس فى اثنى عشر كتاباً لمجهول يعقوبى ، تشتمل على مادة مجموعة من مصادر كثيرة ، وتأتى الأجزاء من ثلاثة إلى ستة بأكبر قسط من تاريخ زخارياس ، فتشمل السنوات ٤٥٠ — ٤٩١ . ويبدو أن

المؤلف الأصلى قد ذهب فى تاريخه إلى عام ٥١٨ . وكان المترجم السريانى يكتب فى وقت متأخر ، ربما كان عام ٥٦٩ أو بعد ذلك . ولم يبق من النسخة السريانية لهذا التاريخ إلا جزء محفوظ فى المتحف البريطانى تحت رقم ١٧٢٠٢ .

٥ — اليعاقبة الفرس .

لم يعمل يعقوب برذعانة فى بلاد الفرس مطلقا ، ولكنه حوالى عام ٥٥٩ نصب « أحودمه » أسقفا على تكريت من أعالى أديابين ، وهى منطقة قاومت برسومة والنساطرة باستمرار ، وأصبحت بؤرة اليعقوبية الفارسية . ولقد برهن « أحودمه » على أنه مبشر نشط ، وعمل الكثير من أجل نشر المذهب اليعقوبى ، حتى لقد حول إلى اليعقوبية بعض أعضاء البيت الملكى ، وعمد أحد أبناء الملك خسرو الأول ، ومنحه الإسم « چورچيس » . ولكنه ألقى به إلى السجن لهذا السبب ، ثم أعدم فيه عام ٥٧٥ .

وبعد إعدام « أحودمه » لم يصبح لليعاقبة أسقف فى بلاد الفرس حتى عام ٥٧٩ ، حيث نصب « قاميشوع » الذى وصف بأنه « معلم (doctor) الكنيسة الجديدة ، التى بنيت للأرثوذكس بقرب القصر الملكى » . وهذه هى كلمات بارهبرايوس (Chron - Eccl., ii, 101) الذى يطلق اللقب أرثوذكس باعتباره يعقوبيا ليدل على أبناء مذهبه . ومما يلفت النظر أن نعلم أن اليعاقبة بنوا كنيسه جديدة قريبة من القصر الملكى .

أما فى أديابين ، حيث لقيت تعاليم اليعاقبة أكبر ترحيب ، فقد كان

دير مار متاى مركزاً رئيسياً للنشاط اليعقوبى ؛ وربما كان ذلك هو المكان المعروف الآن باسم حلوان ، على جبل مقلوب ، على بعد ساعات أربع من الموصل ، فى المنطقه التى بين دجلة والزاب الأكبر . ومن أيام « أحودمه » فصاعدا ، كان مقر المطران اليعقوبى (ولو أنه كان له لقب أسقف تكريت) هـــذا الدير المستكن فى باطن الجبل ، حتى حوالى عام ٦٢٨ حين دعا أثناسيوس « الملقب بالجمال » (البطريرق اليعقوبى الأنطاكية) الأساقفة الفرس فى هذه المنطقة إلى سوريا ، لمناقشة الإجراءات التى تتخذ لنشر المذهب اليعقوبى فى هذه المنطقة ، التى اعتنق أكثر المسيحيين فيها المذهب النسطورى . وقد حضر هذا الإجتماع خمسة أساقفة ، من بينهم « كريستوفر » مطران تكريت . وعندما عاد من سوريا ، حول مقره من دير «مارمتاى» إلى مدينة تكريت نفسها . ولكن اللقب الشرفى « مطران » كان يعطى للأسقف حين يقيم فى مار متاى ، ولو أنه كان مجرد تحية ، على حين وضعت السلطة جميعها فى يدى أسقف تكريت ، الذى كان فى ذلك الوقت يقيم فى المدينة المــذكورة فى لقبه . ولقد رقى ماروثا أحد أعضاء دير مار متاى عام ٦٤٠ إلى أسقفية تكريت ، فاتخذ ، ومن بعده خلفاؤه ، لقب « مافريان » (Mafrian) ، الذى أطلق بعد ذلك ليدل على الرأس الأعلى للكنيسة اليعقوبية فى بلاد الفرس ، وعموم آسيا . ولقد انتشرت اليعقوبية فى ذلك الوقت إلى الشرق ، وطلب إلى البطريرق أثناسيوس أن ينصب أساقفة للإقاليم البعيدة ، ولكنه رفض وفضل أن ينظم اليعاقبة الشرقيون أنفسهم بزعامة المافريان ، باعتبارهم طائفة مستقلة . وهكذا خلق ماروثا أسقفية هرات فى خراسان ، وبعض الاسقفيات الأخرى التى ضيفت إليهـــا فى الشرق فى وقت متأخر . (Bar Hebraeus, Chron
Eccl., ii, 121)

أما المراكز الكبرى للدراسات اليعقوبية ، فقد كانت أديرة مار متاى ، ثم طور عابدين على الفرات الأعلى ، الذى يعتبر أقدم دير فى العراق ، ثم قنسرين بقرب الرها . وكثيرون من المطارنة كانوا من خريجى هذا الدير الأخير ، ومنهم أثناسيوس الأول (توفى ٦٣٠ — ٦٣١) وأثناسيوس الثانى أو البلدى (of Balad) (توفى ٦٨٥) ، وآخرون .

ولقد جذب العنصر اليعقوبى القوى فى مصر عددا من الرهبان والعلماء اليعـاقبة السوريين إلى الاسكندرية للدراسة ، وكان من بينهم بولس القسطنطينى (of Tella) ، وتوما الهرقيلى (of Harqel) ، فى أوائل القرن السابع . ويبدى هـ . إڤيلين وايت فى كتابه المسمى (Monastries of Wadi'n Natrun,, ii, 319 sqq) أن جالية من الرهبان السوريين كانت تعيش فى ذلك الوقت فى ستيس (Scetis) عام ٥٧٦ ، وربما كان ديرهم قد أسس هناك على يد ماروثا بن حبيب عام ٧١٠ ، وهو الذى خرجت منه عدة نسخ سريانية خطية قيمة ، فأخذت من القبط أو أشتريت منهم . ومن القرن السادس إلى السابع ، اتخذ بطريرق الاسكندرية مقراً له فى وادى النطرون . ولقد ساعد هذا الاتصال المباشر مع مصر ، وعلى الأخص الاسكندرية ، على نشر التعاليم الاسكندرية بين اليعاقبة السريان والفرس ، وهناك شخصيتان ذواتا خطر خاص بهذه المناسبة .

كان يوحنا فيلو بونوس الاسكندرى (حوالى ٥٦٨) يعقوبيا حتى حين ، ثم انقلب إلى مذهب معروف باسم التثليث (Tritheism) ، كان يبشر به يوحنا أسكوسنا غيس ، وبقى إلى حين زعيما للطائفة التى اتبعت هذه التعليمات ، وقبل أن يصبح يوحنا تثليثيا ، كتب مؤلفا اسمه (Diaitetes)

أو الحكم ، على حسب رغبة أبداها له سيفيروس الأنطاكي وقد جاء القديس يوحنا الدمشقي باقتباس من هذا المؤلف ، لا يزال باقيا ، ولكن المؤلف بصورته الكاملة لا يوجد إلا في شكل ترجمة سريانية ، يحتفي المجتمع اليعقوبي بها كما هو واضح (قارن نسخة المتحف البريطاني ١٢١٧١) . ولقد كتب كذلك تعليقا على إيساغوجي الذي كتبه فورفوريوس ، واتخذ اليعاقبة هذا التعليق متنا معترفا به فيما بينهم . وقد نشر في عام ٥٦٨ نقدا لمقال كنسي كتبه يوحنا بطريرق القسطنطينية ، ولكن التاريخ المضبوط لوفاته غير معروف .

ويجب أن تعقد صلة بين هذا الاتصال بالأسكندرية وبين إحضار مجموعة طبية إلى سوريا كتبها الطبيب الاسكندرى اليعقوبي أهرون ، وهي مجموعة انتشرت في صورة ترجمة سريانية بين النساطرة واليعاقبة ، وأصبحت مفكرة مفضلة في الطب .

وقد كان لها بهذه المثابة نفوذ ضخم على التعاليم الطبية في جنديسابور ، وأخيرا على الأطباء العرب . ويمكن فهم هذا من كون المتأخرين من المؤلفين في الطب من السريان والعرب قد اقتبسوا منها بلا تحرز .

ولم يوقف الغزو العربي عام ٦٣٢ الحياة العقلية أو الدينية في المجتمع النسطورى أو اليعقوبي . وقد جبي العرب الجزية حقيقة ، ولكن الفرس والرومان فعلوا ذلك أيضا ، وتركت المجتمعات التي تدفع الجزية تتبع قوانينها وعاداتها ، وتسلك طريقها الثقافي الخاص . واصبح الاتصال بين مصر وسوريا وبلاد الفرس أسهل إما كان ، فكان ذلك في صالح الثقافة التي اهتدت بهدى الاسكندرية ، ولو أن الاسكندرية انغمست في المصالح التجارية ، حتى أصبح الهدى يرتجى من مدن أخرى ورثتها .

وأشهر عالم سوريانى هذا العصر المتأخر سيفيروس سيبخت (المتوفى عام ٦ — ٦٦٧) أسقف قنسرين، وقد كتب فى موضوعات لاهوتية إلى بازل القبرصى، وسرجيوس رئيس رهبان سكيجار (Shiggar)، كما كتب مقالين عن القديس جريجورى نزيانزن. أما عن المنطق الأرسطوطاليسى، فقد كتب عن القياسات فى تحليلات أرسطو، وتعليقا على الشروح، بناء على تعليق بولس الفارسى، وخطابا إلى أيتيلاها الموصلى (Aitilaha of Mosul) عن اصطلاحات معينة مستعملة فى الشروح (المتحف البريطانى ١٧١٥٦)، وخطابا إلى الأسقف يونان (Yaunan) عن منطق أرسطو (مكتبة جامعة كبردج ٢٨١٢). وبالإضافة إلى هذه المؤلفات فى المنطق، كتب فى موضوعات فلكية (المتحف البريطانى ١٤٥٣٨)، ومؤلفا عن الآلة الفلكية المعروفة بالأسطرولاب، نشره ف نو (باريس ١٨٩٩). وقد ظهر فى كل أولئك بمظهر الذى تشرب العلم الاسكندرى، ونتج عنه، وأوضح إزدياد انتشار الرغبة العلمية فى ذلك العصر. ويبدو أنه اتجه إلى جلب الأرقام الهندية، ولكن ذلك لم ينفذه أى خلف مباشر له. ويمثل عمله أعلى مستوى وصل إليه عالم سوريانى، ويجب أن يلاحظ أن هذا كان على صلة بقنسرين.

لقد كان اليعاقبة مجدين وناجحين فى التبشير، فقطعوا الصحراوات فى حماية بنى غسان، وكانت أديابين، وبيت عربايه، مما حول طور عابدين، منطقة يعقوبية، وكذلك أرمينيا، والمنطقة التى حول جبـــل عزلا (Mount Izla) إلى الشمال قليلا من نصيبين. وكانت مدينـــة شيسار (Sh ssar) مركزا يعقوبيا آخر. وكان فى هـذه المدينة طبيب اسمه جبرائيل، وكان يعقوبيا خالصا، وقد عينه خسرو الثانى رئيس أطبائه،

فاعتنق النسطورية في البلاط ، لأنها كانت المذهب المعترف به من المسيحية . ولكنه رجع إلى اليعقوبية حين رأى ألا خطر في اعتناقه إياها من فقد عطف الملك . ولقد فعل هو والملكة شيرين التي كان يعالجها كل ما في وسعهما لمساعدة اليعاقبة ، وتعكير صفو النساطرة ، وليس مما يسعدنا أن نرى هـذه الجماعات المسيحية المتناحرة تشتغل بالمؤمرات في بلاط غير مسيحي . وكان نشاط جبرائيل إلى هذا الحد ناجحا ، حتى لقد استطاع أن يحول دون تعيين مطران جديد للنساطرة ، حين خلا كرسي سيلوقيا ،وهكذا بقي النساطرة مدة بلا رئيس رسمي .

وفي عهد جوستنيان ، أرسلت الإمبراطورة ثيودورا مبشرا يعقوبيا إلى أكسوم في أثيوبيا،وهكذا ضمنت الأحباش فيحظيرة الكنيسة اليعقوبية، ويقال إن الحبشة قد دخلت في المسيحية على يد القديس متى الحوارى ، ولكن الديانة المسيحية لم تتوغل في البلاد إلى حيث وجدت شعوب بربرية كثيرة ، تستعمل لغات مختلفة ، حتىأيام قسطنطين ، حين جنح فرومنتيوس الشاب المسيحى إلى شاطىء البحر الأحمر ، فبدأ في تعليم بعض هؤلاء الناس العقيدة المسيحية ، ثم نصب من بعد أسقفا على أكسوم ، على يد أثناسيوس . وهذا هو ما يذكره سقراط (H.E.,i,Iq) ، الذى حصل على معلوماته من روفينوس (H.E.,i,q) ، الذى مات عام ٤٢٠ ، ومن هـذا يتضح أنه كان هناك كنيسة حبشية ثابتة الأركان في أوائل القرن الخامس .

وقد شغلت أكسوم وملكها مكانا هاما في السياسة البيزنطية أيام جوستنيان ؛ فلم يكن الامبراطور قادرا على أن يبعث بأسطول لحراسة البحر الأحمر ، لشدة ضغط أعدائه عليه في أوربا وآسيا ؛ فاتفق في عام ٥٢٢

مع ملك أكسوم ، الذى قبل التعهد بهذا الواجب باعتباره حليفا لحكومة بيزنطة . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ ملك أكسوم يحاول بسط نفوذه على الشواطىء الجنوبية لبلاد العرب ، واتخذ كذلك حجة معقولة ؛ هى أن السيطرة على كلا الشاطئين ضرورية لإبطال القرصنة ، وكان بين أهالى الشاطئين قرابة من الناحية الشعبية ، وقد خضع كلا الشعبين من قبل لنفس الحاكم .

وتغلب الأحباش على تهامة ، وهى الشاطىء المنخفض ، ولكنهم فشلوا فى محاولة فتح مكة . ولسنا نعرف حتى متى بقيت تهامة تحت حكمهم ، ولكن محاولة غزو مكة يفرض فيها أنها حدثت حوالى عام ميلاد محمد ، الذى ربما حدث عام ٥٧٠ أو حوالى ذلك .

لقد فشل الهجوم على مكة ، ولكن الأحباش كانوا جنودا ممتازين ، وقد اشترى كثير من أمراء العرب الجنوبيين عبيدا من الحبش ، ليتخذوهم حرسا خاصا ، فاتبعت هذه السابقة فى مكة . ويبدو أن تجار مكة لم يكونوا صالحين للحرب ، فاعتمدوا على المرتزقة فى الدفاع عن مدينتهم ، وقد سلحوا عبيدهم من الأحباش فى بعض المناسبات ، واتخذوا منهم قوة دفاعية ، ولكنهم لم يثقوا فيهم كثيرا ، لأن هؤلاء العبيد كانوا يعاملون وقت السلم معاملة خشنة ، ويهرب الكثير منهم . وهرب عدد من هؤلاء الفارين حين كان محمد فى المدينة ، وتجمعوا حوله هناك ، لأنه كان قد أظهر عطفه عليهم . وكان فى مكة كثير من هؤلاء العبيد فى ذلك الوقت ، وكثير من الصناع الأحباش ، الذين ربما كان بعضهم عبيدا سابقين ، وكان جميعهم متواضعين ، ومعظمهم مسيحيا من اليعاقبة .

وهناك رأى مشهور أن النبى تعلم قصص الانجيل من هؤلاء ، وهى قصص واضحة الورود فى القرآن (٤٤ — ١٢)[١] ، ثم تولوا عنه ؛ وقالوا : معلم مجنون » (١٦ — ١٠٥)[٢] « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ؛ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » . وقد ذكر أن هذا المستشار الأجنبى كان أحد هؤلاء الذين جلبوا إلى هناك بالقوة أو بالغش. (٢٥ — ٥)[٣] وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا » .

وفى هذا إشارة إلى أنه كان من الأحباش . ولكن هؤلاء المسيحيين المتواضعين من أهل مكة لم يكونوا مجتمعا منظما ، فلم تكن لهم كنيسة ولم يكن لهم أسقف .

Cf. H. Lammens, "Lès chrètiens à la Mecque à la Veille de l'Hégire" in l'Arabie occidentale avant l'Hégire (Beyrouth 1920, pp. 47—9).

ويوضح هذا الأصل من أصول النقل عدم التماسك وعدم الدقة فى قصص الانجيل كما تظهر فى القرآن .

وكانت مدينة نجران فى بلاد العرب ، وهى غير بعيدة عن مكة ، مسيحية على المذهب اليعقوبى .

(١) يقصد سورة ٤٤ آية ١٤ .

(٢) يقصد سورة ١٦ آية ١٠٣ .

(٣) يقصد سورة ٢٥ آية ٤ .

وواضح أنه لا يحسن الإشارة إلى موطن اقتباساته ولا يحسن تفسير النص القرآنى إذ يفهم معنى (فقد جاء واظلما وزوراً) كأنه : فقد جىء بهم من بلادهم ظلما وزوراً ويعود بالضمير إلى العبيد الحبشان . وصحة المعنى : فقد اقترفوا (أى كفار مكة) ظلما وزوراً لقولهم إن القرآن من أساطير الأولين .

Cf. H. Lammens, "La Mecque à la Veille de l'Hégire", Beyrouth, 1924, pp. 256—7, 289—90).

وليس من الممكن أن نسمى مركزا يعقوبيا يدعى أنه نقل الثقافة الإغريقية إلى العرب بنفس الثقة التى تصحب تسميتنا المركز النسطورى فى جنديسابور ، ولكن هـذا الاتصال لا يصح أن يتجاهل . حقيقة إن المراكز التعليمية اليعقوبية كانت أديرة ، وليست مدارس كمدرسة جنديسابور ، ولم تكن لهذا واضحة الاتصال بالعرب كالمدرسة النسطورية ولكنها كانت على اتصال ، كما يظهر من أن التصوف على طريقة ديونيسيوس وهيروثيوس يبدو أثره واضحا فى تشكيل الفلسفة الإسلامية . ولكن كثيرا من النفوذ الموالى للإغريق جاء إلى بغداد من مرو ، وإذا علمنا كيف وسعت مرو رقعة الأسقفية اليعقوبية إلى تلك المناطق الشرقية ، بدا لنا محتملا أن عنصرا يعقوبيا قد لعب دورا عن طريق مرو ، ولو أن أسقفاً نسطوريا كان هنالك كذلك .

الفصل السابع

النفوذ الهندى ١ ـ الطريق البحرى

١ ـ الطريق البحري الى الهند :

لم يأت النفوذ الإغريقى إلى العرب مباشرة عن طريق سوريا ومصر فحسب ، ولكنه أتى كذلك من طريق غير مباشر من الشرق ، من الهند ، عبر بلاد الفرس . وفى هذا الطريق المتشابك مراحل ثلاث متميزة تجب الإشارة إليها :

١ ـ مرور الثقافة الإغريقية إلى الهند عبر الطريق البحرى الذى يمتد من الاسكندرية إلى شمال الهند الغربى ، ثم التطور بهذه الثقافة على يد الطلبة الهنود ، ثم نقل نتائج ذلك إلى العرب فى أوائل العصر العباسى ، فى النصف الثانى من القرن الثامن . وقد كان لذلك صلة بمدينة أجين (Ujjain) ، وهى مستودع هندى للطريق البحرى الممتد من البحر الأحمر وقد وصل الطريق البحرى كذلك إلى الجنوب الغربى للهند ، ولكن لم تكن ثمة نتائج علمية فى هذا الجزء .

٢ ـ وجود بؤرة للنفوذ الإغريقى فى آسيا الوسطى ، فى بلخ ، وصغديانة ، وفرغانة ، بقيت من أيام فتوح الاسكندر ، واحتفظت

بتقاليدها الإغريقية ، واستطاعت أن تنشر قسطا من الهلينية فى الهند والشرق الأقصى ، برغم الخراب السياسى الذى أصابها من غزوات البرابرة قبل العهد المسيحى بقليل . وكان ذلك هو العهد الذى وطنت فيه الحروب الفارسية طائفة من الأسرى خصوصا حول مرو ، وقد جاء النفوذ الموالى للإغريق من هذه المدينة ، فساهم ماديا فى إدخال علم الإغريق إلى بغداد .

٣ — النفوذ البوذى الذى مهد الأرض لمخالطة العالم الغربى ، برغم بدئه فى الانحلال فى الهند فى القرون التى سبقت ظهور الإسلام مباشرة ، ثم كان مسئولا عن تفوق الأسرة البرمكية التى كانت تعتبر حامية للهلينية .

وكانت ثمة مخالطة فى القديم بين الهند وبين الإمبراطوريات التى كانت فيما يعرف الآن باسم الشرق الأدنى . وأول الآثار التى تدل على ذلك تأتى فى نقوش الملوك الحيثيين ، من كبادوشيـــا ، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد . وكان لهؤلاء الملوك أسماء آرية ، وآلهة آرية ، ويظهر أنهم كانوا على قرابة مع الهندوس البنجابيين . ولقد استخدمت كتل من أشجار الساج (teak) الهندية فى معبد القمر فى أور ، وفى قصر بختنصر ، وكلاهما من القرن السادس قبل الميلاد . وتظهر القرود ، والفيلة الهندية ، والجمال البلخية ، على عمود شالما نسار (Shalmanesar) الثالث (٨٦٠ ق . م .) ؛ وربما استحضرت هذه الموضوعات براً وبحراً . وتشير ريج ڤيدا (Rig Veda) إلى رحلات بحرية ، وتظهر كثرة من هذه الإشارات فى الأدب البوذى ، والتاريخ فى كلتا الحالتين متأخر ، ولكنه يظهر منه النقل عن القديم . ولقد أتت التجارة البحرية بلا شك من ميناء بحرية بقرب مصب السند (Indus) ومرت على الخليج الفارسى

مرسية على طول ساحل جدروسيا (Gedrusia) . وطرد سناخرب القراصنة من الخليج الفارسي عام ١٩٤ ق م . وربما تمكن الدعوى بأن وجود قراصنة يدل على وجود تجارة زادت بعد اختفاء القراصنة ؛ وفى أواخر القرن السابع ، كانت التجارة فى الخليج الفارسى ، كما يقال ، فى يد الفينيقيين ، الذين استقروا فى شط العرب ، بعد خربت الزلازل مواطنهم الأولى (Justin,18,3,2) . ويشير سترابو إلى معابد فينيقية فى جزيرة البحرين ، قرب قمم الجبل الفارسى (Strabo 16,3,3—5) ؛ وقد وجدت بقايا هذه المعابد وكشف عنها .

ولقد كان الطريق البحرى الذى يوصل بين الهند والصين وبين العالم الغربى معروفا للإغريق قبل العهد المسيحى ، وربما كان ذلك قبل أيام سكيلاخ (Skylax) صديق هيروت وجاره ؛ ومن المؤكد أنهم عرفوه قبل وقت نيرخوس والاسكندر ، لأن نيرخوس أستطاع أن يحصل على دليل (Guide) من جيدروسيا (Gedrusia) ، عرف الطريق إلى خليج أورموز Ormuz (Arrian, Ind'ca, 27,1) . الذى كان للعرب مصالح من ورائه . وكان الطريق أن ترسل السلع برا إلى سيلوقيا على الفرات ، أو إلى زيوجما (Zeugma) ، ثم إلى أسفل النهر ؛ ولكن للطريق من أنطاكية إلى الفرات اشتمل على متاعب ، وربما على عبور خطر للصحراء ، ثم إلى المحمرة (Charax) عند مصب الفرات ، ثم فى الخليج الفارسى ، وعلى طول الساحل الجنوبى لجيدروسيا إلى ، حيدر باد (Patala) من أعمال السند ، وعلى أسفل نهر السند .

ولقد هجر الخليج الفارسى من أجل الفوضى التى عمت فى سوريا حين فقد

السيليوقيون سيطرتهم ، ومن أجل عداوة البارثيين ، الذين كانت البضائع الهندية المجلوبة إلى الخليج الفارسى تحمل عبر بلادهم . وقد أعطى ذلك فرصة للتجار العرب ، لأنه كان من المستطاع أن ترسو البضائع الهندية فى أحد موانيهم ، كعدن وغيرها على ساحل اليمن ، أو تسلم إلى التجار المصريين الذين تاجروا فى البحر الأحمر . وفى أيام أغا ثارخيدس Agatharchides (حوالى ١١٦ ق م) حصلت مصر على البضائع الهندية من التجار العرب فى عدن ، و (مخا) Muza ، ولكن المصريين لم يكونوا على علم تام بأن هذه البضائع كانت تأتى من الهند إلى بلاد العرب (cf. Periplus 26) ، ولم يكن لأغاثارخيدس على ما يبدو أية معرفة مباشرة مع الهند ؛ ولقد كان أمرا استثنائيا أن قطع يودوخوس الفريق من مصر إلى الهند مرتين بالبحر .

وأما التجارة التى رست على شواطىء اليمن ، فقد حملت بالطريق البرى خلال الحجاز إلى بطرة ، وحاول البطالمة أن يغيروا هذا الطريق ، ويجلبوا تجارة الهند عن طريق البحر الأحمر ، إلى ميناء مصرى ، ولكنهم لم يبذلوا أى مجهود فى التدخل فى الرحلة من الهند إلى بلاد العرب . ولقد أرسل أريستون لاستكشاف شواطىء البحر الأحمر ، من أجل جعله طريقا صالحا ، وأنشئت موانىء على طول شواطىء البحر الأحمر نتيجة لذلك . وحاول بطليموس فيلاديلفوس (٢٨٥ — ١٤٥ ق م) أن يجلب التجارة إلى قناة سيزوستريس ، التى توصل خليج السويس بالنيل ، وأنشأ لذلك ميناء السويس (Arsinoe) عند مصبها فى البحر ، ولكنها كان لا بد أن تهمل بالنظر إلى صعوبة الملاحة فى خليج هيروپوليس Heropoolite Gulf

(Cf. Srabo, 16, 4, 6) ، وهو أمر دعا التجار إلى أن يفضلوا لوك كوم (Leuke Kome) أو أيلانا (Aelana ، وكلتاهما تتصل ببطرة لا بوادى النيل . ثم أنشأ بيرينيس (Bérenice) ، التى وصلها بقفط (Coptos) على النيل بطريق برى طوله ٢٥٨ ميلا . وفى عام ٢٤٧ ، أنشأ ميوس هرموس (Myos Hormos) ، وهى تقع على بعد ١٨٠ ميلا شمال بيرينيس ، وبها ميناء أكثر أمنا ، ولها رحلة أقصر إلى قفط . ولكن البحر الأحمر نفسه كان له صعوباته الخاصة ، لأنه كان مليئا بالقراصنة ، حتى وضع بطليموس يورغيتيس Euergetes (١٢٤٦ — ٢٢١ ق م) أسطولا هناك ، ليبطل القرصنة (Diod., 2, 43, 4) .

حين فرغت البضائع فى اليمن ، حملت بالطريق البرى عبر الحجاز ، إلى العلا (Dedan) ، وربما مر الطريق حينا بيثرب (المدينة) ؛ ولكنه فى القرنين السادس والسابع تجنب يثرب ، وأسست عليه مناخات مكة . ويبدو أن ذلك حدث بعد اضمحلال بطرة ، أى بعد أن ضم تراجان بلاد النبط إلى الامبراطورية الرومانية . ولقد دعى النبى محمد إلى يثرب ليكون قائدا للعرب الذين استقروا هناك ، وليجعل فى استطاعتهم إما أن يسلبوا القوافل التى تأتى من مكة ، أو لعله يحول طريق القوافل من مكة إلى يثرب ، ومن المؤكد أن الطريق فى أيامه لم يمر بيثرب ، وقد كان هذا الطريق عبر الحجاز هو طريق العطور الشهير (incense roote) ، الذى نقلت عليه عطور بلاد العرب الجنوبية . وكانت هذه العطور غالبا من المر (Myrrh) ، والكندر Frankincense ، والكاسيا Cassia ، وسنابل الطيب Spikenard منتجات عربية فى الحقيقة ، واشتراها من العرب المصريون ،

والبابليون ، واليهود ، وآخرون . ولاشك أن هذه تجارة مربحة ، ولكنها لا تكاد تفى بالتقديرات المبالغ فيها عن ثروة بلاد العرب ، كما يقدرها الكتاب الإغريق واللاتينيون . ولعل هؤلاء الكتاب قد احتسبوا فى الكلام عن هذه التجارة كل السلع التى كانت تأتى عن طريق اليمن ، ولو أن أكثر هذه السلع كان فى الحقيقة من منتجات الهند ، وبعضها من بلاد الصومال ، على حين كانت الموانى العربية الجنوبية مخازن للتجارة العابرة ، حيث تغيرت ملكية هذه المنتجات . وبما أن العالم الغربى قد حصل على مجموع ذلك من بلاد العرب ، حتى القرن الأول الميلادى على الأقل ، فقد اعتبر هذه المنتجات عربية . وقريب من ذلك أن الهند وبلاد العرب كانتا لوقت طويل مختلطتين فى أذهان الغربيين ، حتى إننا لا نستطيع أن نتأكد فى قصص الإرساليات التى قام بها الحواريون (Apostolic missions) ،وما إذا كان الحواريون فى القصة قد وصلوا إلى الهند ، أو إلى بلاد العرب . ولقد كان ذلك الاختلاط قديم العهد ، أساسه الاعتقاد أن أفريقيا الاستوائية امتدت إلى ما وراء البحار الجنوبية ، ثم اتصلت بالهند . وهكذا يوحد ايسخيلوس (Supplices 268) الهند وأثيوبيا ، وربما فعل هوميروس (Odyss., 1, 23) ذلك وهو يشير إلى الإثيوبيين الشرقيين ، ويقصد بهم الهنود ، فيقع فى نفس الشىء . ولقد صورت الأفكار السابقة لذلك العهد صورة قارة ممتدة من أفريقيا إلى الهند ، جاعلة بلاد العرب بيتا فى منتصف الطريق ، على الساحل الشمالى للمياه الشبيهة بالبحيرة ، جنوب باب المندب (Bab al Mandel)[1] ولم يحدث حتى

(١) فى الكتابة اللاتينية لهذا الإسم كما يبدو فى النص الأصلى خطأ .

القرن الميلادى الثانى أن أظهر الكشف ان هذه الفكرة خاطئة ، ومرت قرون عديدة بعد ذلك حتى اعترف الرأى العام بخطئه .

لقد كان الطريق بين الهند وجنوب بلاد العرب معروفا ، وهو الطريق الذى سلكه نيرخوس والعرب والهنود ، ولكن الإغريق لم يعلموا أية تفصيلات عنه ،الا التقريرات التى وضعها نيرخوس وسكيلاخ (Skylax) ، وربما يكون العرب قد قصدوا أن تكون المعلومات المفصلة سرية ، ليحتفظوا باحتكارهم للتجارة ، فاخترعوا قصصا للأسفار عن المخلوقات البشعة ، والمهالك ، ليصدوا الناس عن المنافسة . وعندما تصل البضائع إلى جنوب بلاد العرب ، تحمل على الطريق البرى إلى أيلة ، أو غزة ، أو تمر إلى سوريا ، متجنبة عبور البحر الأحمر . أما البحر الأحمر نفسه ، فقد فرض مشكلة القراصنة ، وهى مشكلة لم يستطع البطالمة أن يحلوها بصفة دائمة . فكان هذا البحر مليئا بالقراصنة ، واستقر فى شواطئه قوم من الهمج ، ولو أن هؤلاء كانوا خاضعين إلى حد ما للجنوب ، على يد ملوك الحيريين والسبئيين . وكان على سفن التجارة أن تحمل كل منها فصيلة من القواسين ، ليصدوا قراصنة العرب (Pliny, H. N., 6, 101) الذين كانوا مرهوبى الجانب ، لأنهم كانوا يستعملون سهاما مسمومة (ibid., 177) .

ولا يبدو أن الرومان مهدوا هذا الطريق قبل نهاية حكم غايوس (٤١ — ٤٠) ، ثم نشأت عادة التزام الشاطىء العربى فى الرحلة الخارجية ، حتى رأس فرتك (Cape Syagrus) . ثم المخاطرة بعد ذلك بركوب المحيط الهندى إلى حيدرباد (Patala) . وقد سلك الراغبون فى السفر إلى الجنوب

بعد هذا التاريخ طريقا أقصر وأسلم من رأس فرتك عبر المحيط الهندى إلى سيجيروس مباشرة ؛ هو المالزاجارا « the Milizagara of the Periplus Maris Erithrei » الذى ربما كان المقصود منه جيغاش أوراجبور Jaigash or Rajpur . ولقد وجد الرومان فى ذلك الوقت أنهم يستطيعون أن يستخدموا الرياح الموسمية التى تهب من الغرب إلى الشرق ستة أشهر ، ثم ستة أشهر أخرى فى الاتجاه المضاد ، وبهذا تستطيع سفينة ما أن تنطلق إلى الهند فى الموسم ؛ ثم تعود بعد إلى مالابار ؛ أو أى جزء من جنوب الهند ؛ ويبدو من وجود نقود رومانية فى الهند أن كثيرين قد فعلوا ذلك ؛ وفى عام ٥٠ من الميلاد ، أصبح من العادى لهؤلاء الذين يرغبون فى العبور إلى مالابار بعد ترك عدن Arabia Edaimon ؛ أو حصن عزاب (Can) ؛ أن يقذفوا برأس السفينة فى اتجاه الريح ؛ مع جذبة دائمة للدفة ؛ وتحويل لوضع الشراع ، (مبحرين هكذا فى خط منحن) ، فيعبرون إلى أسواق مالابار فى أربعين يوما (E. H. Wa.mington The Commercebetween The Roman Empire and India, 1928, p. 46.) . أما الرجوع فقد كان يتم باتباع خط منحن جنوبى مالابار وحصن عزاب ، أو شاطىء بلاد العرب .

وقد وصف بلينى (Nat. Hist., 8, 100 S q.) المراحل المتعاقبة لهذا الطريق البحرى فى مقطوعة حللها وار منجتون (op. cit., 45—7) بكل دقة . ويظهر من وصف بلينى أن طريقا أمكن أن يسلك ، لأنه فى اتجاه الرياح الموسمية ؛ فقد جعلت الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فى استطاعة سفينة ما أن تقضى رحلة سريعة إلى الهند فى الصيف ، وأن تقضى

رحلة تساوى تلك فى السرعة فى رجوعها من مالابار ، فى بدء الشهر المصرى طوبة Tybis ، وهو يساوى ديسمبر فى الحساب الحاضر ، أو على الأقل فى خلال الأيام السنة الأولى من الشهر المصرى أمشير Mechir ، ويحل ذلك فى الخمسة عشر يوما الأولى من يناير (the Ides of January) بحسب تقويمنا » (Pliny, N. H.,8, 104- 8) ؛ ويبدى بلينى فى كلامه هذا تقدما عظيما فى المعرفة منذ أيام سترابو . ويؤكــد ذكر الشهور المصرية أن تجارة الهند مع الامبراطورية الرومانية كانت تتم من مصر .

ينسب Periplus الكشف عن استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فى تقصيد الرحلة إلى هيبالوس ، وهو دليل بحرى ، أو تاجر ، ويقول إن كل الطرق التى بدأت من الساحل ، وعبرت المحيط كانت من اقتراحه . ولم يذكره بلينى ، ولكن الأسم هيبالوس يطلق على الرياح الموسمية الجنوبية العربية . وإن Periplus لكتاب حريص دقيق فى اتجاهات الملاحة ، ولكنه فى هذا الجزء يجب أن ينظر إليه بشىء من التحفظ هل روى المؤلف المجهول أسطورة شائعة مبنية على الأسم الذى يطلق على تلك الريح ؟ ويطلق كتاب Itinerarium Augusti وبطليموس Ptolemey اسم هيبالوس على بحر من البحور . ولو كان هذا شخصا حقيقيا ، لكان من الغريب أن مآثره لم تكن معروفة إلا قليلا للأجيال اللاحقة .

وليس من شك فى أن الكشف يدل على استعمال دقيق للمعلومات التى جمعت من البحارة ، ويعطى فكرة عن وضع الساحل الهندى . ولقد علم نيرخوس أنه كان لابد له من انتظار الرياح الموسمية الشمالية

الشرقية ، حتى يبدأ رحلته من الهند إلى وطنه ، قبل هيبالوس المزعوم بقرون عدة (Cf. Arrian, Indica. 21—1) . ويشير وار منجتون إلى أن هيبالوس بحسب قد ، لاحظ موقع الموانىء ، وشكل البحر ؛ ويبدو لى أنه هو فقط الذى عرف نظرية الامتداد الجنوبى للهند ، وإمكان استعمال ريح لم يجرؤ على استعمالها بالتدريج إلا لاحقوه ، من أجل العبور إلى نقط متعددة ، (Warmingto , ob cit. 46—7) .

ويقول بليني ، وقد كتب بعد عام ٥١ م : ان الاستخدام المطرد للرياح الموسمية الجنوبية الغربية لم يحدث كل سنة إلا بعد التطور النهائى للاكتشاف ، ولم يحدث شيوع تنال المعلومات الموثوق بها عن الرحلة فى مجموعها ، من مصر إلى موزيريس Muziris ، ونيلسيندا Nelcynda إلا أخيرا (Pliny, N. H., 101, cf, Warmington op. cit. 74) ولم تعرف الرومان أثر استخدام الرياح الموسمية فى تقصير أمد الرحلة من الهند وإليها إلا فى أيام كلوديوس ، ولهذا يتكلم بليني عن حدوث هذا فى أيامه (Pliny, N. H., 8, 101, 86) .

وفى الحق إن الرحلة إلى الهند على أى حال كانت معروفة فى وقت أسبق ، ويبدو أنها كشف عنها البحارة الهنود ، وسلكوها . وقد أبحر يودوخوس إلى الهند عام ١١٨ — ١١٢ ق م ، ودله على الطريق بحار هندى تحطمت سفينته ، وجده عند مدخل البحر الأحمر Strabo. 2, 8,4 وهكذا كان الكشف الذى تم فى القرن الميلادى الأول كشفا عن معرفة الرومان بالملاحة فى المحيط الهندى لأول مرة ، وأطلق الأسم هيبالوس على الريح ، أو على البحر ، ولا يعرف له أصل ، ثم اخترعت أسطورة البحار الذى كان فى القرن الأول ، لايضاح هذا الأسم .

ولم يجرؤ إلا القليلون من البجارة الإغريق أو الرومانيين على الذهاب إلى ماوراء باب المندب إلى المحيط الهندى قبل عهد أغسطس ، ولو أن تجارة كثيرة قد حدثت بين العالم الغربى وبين الهند .

« إن فرص الكشف عن النقود لا تضبطها إلا الصدفة ، ومع أنها تدل على التجارة . لا تدل دلالة نهائية على مداها فى عصر معين ، ولا تكاد نقود بطلمية أو سيليوقية أن تكون قد كشف عنها فى الهند ، وأما النقود الرومانية الجمهورية فقد وجد منها القليل فى الشمال الغربى من الهند . ولكن عددا كبيرا من النقود الذهبية والفضيه ، من العهد الامبراطورى حتى نيرون وجدت فى ولايات تأمل Tamil ، ومن هذه عدد عظيم جدا قد ضرب عليه اسم أغسطس وتيبيريوس » (Warmington, op. cit. 39) ويدل هذا على الأقل على مخالطة متزايدة جدا للهند فى أيام الأباطرة الأوائل .

إن ندرة التجارة الإغريقية والرومانية فى الزمن السابق ترجع إلى حد كبير إلى أن الحميريين ، عرب الساحل الجنوبى الذين سيطروا على التجارة ، والأكسوميين الذين كانوا حميريين مستوطنين فى الجانب الإفريقى من البحر الأحمر ، قد رغبوا فى جعل التجاره الهندية احتكارا لأنفسهم ؛ ولم يدعوا أى غريب يعرف سرهم . ويتضح أن الأكسوميين قد ساهموا فى هذه التجارة من وجود مبنى أثرى يوذى فى أرض أكسوم .

وفى حوالى ١٠٥ — ١٤٠ قم ، غزت قبائل السقا (Yueh - chi or Sakas) شمال غربى الهند ، واجتاحت بلخ . ثم استقروا بالتدريج ،

وألفوا اتحاداً من ولايات السقا ، أصبح فيما بعد مملكة كوشان القوية التى بقيت إلى عام ٢٢٦ من الميلاد .

ولقد كانت هذه المملكة فى أوج عظمها فى عهد ثالث ملوكها كانشكا ملك كوشان (١٢٠ — ١٥٣ م) ، ونشطت التجارة مع العالم الغربى عبر الطريق البحرى الذى يصل الاسكندرية بالهند وعند الطرف الهندى لهذا الطريق ، وعلى مسافة فى الداخل وجد المستودع العظيم ، مدينة أجين . كان كانشكا قد اعتنق البوذية ، وبنيت فى عهده أديرة بوذية كثيرة فى مملكته . وفى أوائل أيامه كانت الكتابة على نقوده كتابة إغريقية ، وبلغة إغريقية ، وكانت الشمس والقمر مكتوبين بصورة إغريقية ، هى Helios و Seiene . ولكن اللغة الفارسيه القديمة المعروفة بالبهلوية كانت تستعمل فى الأيام اللاحقة من عهده ، ولو أن ذلك كان بكتابة إغريقية ؛وكانت الآلهة المرسومة خليطا من الإغريقية والفارسيةوالهندية ، ووضع بعضها فى صورة بوذا . وكان فى العاصمة الكوشانية بشاور Purushauonra برج عظيم مع آثار من بوذا ، ودير بوذى كبير ؛ ظلت هذه البنايات موجودة حتى القرن الحادى عشر حين حطمها محمود الغزنوى أما ملك كوشان الرابع هو فشكا (١٥٣ — ١٨٥ م) ، فقد ظل على الغقيده البوذيه ، ولكن خلفه فيسوديفا (١٨٥ — ٢٢٦) انقلب إلى الهندوسية وعبادة سيفا . ومنذ عهده إلى عام ٣٢٠ نجد التاريخ الهندى غير معروف .

وكان ثمة فى حكم ملوك كوشان اتصال وثيق مستمر بالعالم الإغريقى الرومانى ، وعلى الأخص بالطريق البحرى المتصل بأجين . وجاءت العملة

الرومانية إلى الهند ، ليدفع بها ثمن البهار ، وبعض الكماليات الهندية الأخرى، بكميات انتقدها الامبراطور تيبيريوس (Tacitus, Ann., 2, 33; 3,35; Dio Cassius, 57, 15) ، وهو نقد تبرره النقود الرومانية الموجودة بالهند . وكان ملوك كوشان هم الأمراء الوحيدين من الهنود الذين سكوا عملة ذهبية فى ذلك الوقت ، وهم يقلدون الطراز الرومانى فى عملتهم الذهبية وقد تدوول الذهب الرومانى بحرية فى الهند .

واضمحلت قوة كوشان فى القرن الثالث ، وأصبحت قاصرة على وادى السند وأفغانستان . وبعد عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠ م)، تدهورت تجارة الروم مع الهند ، وبطل استعمال الطريق البحرى تقريباً . ووضع ارتقاء الساسانيين للعرش فى بلاد الفرس عام ٢٢٦ فارس الجديدة القوية فى مكان پارثيا المنهوكة المنحلة ، وكانت هذه القوة الجديدة معادية للرومان . وحاول دقلديانوس أن يعيد تنظيم الامبراطورية الرومانية، ليجابه بها المخاطر الجديدة التى تهدد وجودها ، ولكن لم يحدث إلا فى عام ٣٢٤ أن وحدها قسطنطين تحت قبضة قوية ، ولم تبعث الرغبة فى التجارة الشرقية إلا فى ذلك الوقت . ولكن الأيام كانت قد تغيرت ، وأصبحت القسطنطينية منافسة للإسكندرية ، ولو أن الطريق من القسطنطينية سالكا نهر الفرات ، فالخليج الفارسى ، لم يكن صالحاً من الناحية العملية ، إلا فى أيام السلم بين روما وبلاد الفرس ؛ وهو سلم لم يوجد دائماً . أما الطريق البحرى بين الهند والاسكندرية ، فقد توقف على سلامة البحر الأحمر ، الذى ظل الرومان يحرسونه حتى أيام جوستنيان .

وظهرت أسرة ملكية جديدة فى الهند عام ٣٢٠ من الميلاد ، هى أسرة غبطا التى أسسها راجا من ماغندها اسمه شاندرا غبطا (Chandra gupta)

واتخذ باتالى بوترا (Pataliputra) عاصمة له ، وكانت هذه المملكة فى الشمال الغربى كما كانت مملكة كوشان من قبلها . أما الملك الثانى من هذه الأسرة سامدرا غبطا (Samudra gupta) (٣٣٠ — ٣٨٠) ، فقد تسلط على جميع الشمال الغربى من الهند . ولم يكن يعطف على البوذية ، ولكنه وقف موقفا قومياً ، فاعتنق البرهمية ، وبذلت الجهود لإحياء اللغة السنسكريتية ، وأبطلت الأطرزة البوذية فى البناء ، على حين كان هناك تطور عظيم فى طراز بناء المعابد الهندوكية ، وزخرفتها . أما فى الفن ، فإن النفوذ الإغريقى ، الذى جاء عن طريق غنداهار ، على الحدود الشمالية الغربية ، كان لايزال يرى على أى حال ، وظلت العملة على الأقل تتبع الطرز الرومانية .

ثم إن الملك الثالث من هذه الأسرة واسمه شاندرا غبطا الثانى (٣٨٠ — ٤١٥م) توسع فى فتوحه فى جميع الهند الغربية ، فأخضع بلاد السقا (Surashtru)، وتعرف الآن باسم كاثياور (Kathiawar) ، كما أخضع أمراء السقا المعروفين باسم « الولاة العظماء » (Great Satraps) . وقد جعله هذا يسيطر على مالوا ، وعاصمتها أجين (وهى المخزن الداخلى للتجارة البحرية مع البحر الأحمر) ، والموانى المجاورة مثل باروش (Baroch, Broach)، وسوپارا (Sopara) ، وكامبى (Cambay) وأخريات . وبالرغم من بعث الديانة الهندوكية ، ظل سكان الشمال الغربى بوذيين فى مجموعهم ، غير متقيدين بطائفية ، ولا محرمين السفر .

٢ — العلم الإسكندرى فى الهند :

لقد أصبحت مدينة پاتالى پوترا Pataliputra فى عهد ملوك أسرة غبطا موطناً للدراسات ، وخصوصاً الفلك والرياضيات ، وهما علمان يبدو فيهما

الطابع الإغريقى السائد فى الدراسات المعاصرة فى مدرسة الاسكندرية. لقد كان أريابهاتا Aryabhata الفلكى (ولد ٤٧٦ — ٤٩٩) من المعلمين فى هذه المدينة ، وخلف وراءه مؤلفاً فى الفلك يتناول قسم منه الرياضيات . وأما ڤاراهامى هيسا Varahamihisa (٥٠٥ — ٥٨٧) ، فقد ألف كتاباً يعرف باسم Pance—Siddhanlika ، وهو مجموع متون خمسة فى الفلك وحد بينها . وينتمى أحد هذه المتون الخمسة إلى عصر ما قبل النشاط العلمى وليس له قيمة علمية ؛ ولكن المتون الأربعة الأخرى يبدو فيها النفوذ الاسكندرى الثقافى . ويحمل إثنان منهما أسماء غير هندية هى رومانك Romank ؛ وپوليسا Peulisa ؛ وفى ثانيهما جدول ينبنى على جدول الأوتار (tapie of cherds) الذى وضعه كلوديوس بطليموس . وتشير هذه المتون إلى الإغريق Yavanas باعتبارهم حجة فى العلم ؛ وأحد هذه المتون هو (Surya Siddhanta) أو « المعرفة بطريق الشمس » الذى أصبح متناً رئيسياً عند الفلكيين الهنود . أما براهما غبطا (حوالى ٦٢٨) ؛ فقد كان عاش وعمل فى أچين ؛ حيث كان ثمة مرصد ؛ ولقد كتب متناً فلكياً سماه براهما سدهانتا Brahma Siddhanta ؛ وضعه فى واحد وعشرين فصلا ، وضمنه أقساماً خاصة فى الحساب (Ganitad'haya) ، والمعادلات غير المحدودة . (Kutakhadyaka) . وقد عرف العرب هذا المتن فى حكم هرون الرشيد ؛ أو قبله بقليل ؛ فاتخذوه أساساً المؤلف الذى انتشر تحت اسم السندهند ؛ وهو اسم يمثل الكلمة الهندية سدهانتا .

وفى عهد الساسانيين من ملوك الفرس،جرت العادة أن تجرى الملاحظات الفلكية ، وتسجل لأغراض فلكية فى المقام الأول بلا شك ؛ وقد نشرت

هذه السجلات باسم الجداول الملكية Zik-i-shatroayar . ولم يوقف الفتح العربي إعداد هذه الجداول ، ولم يغير أشكالها . وبقيت اللغة الفارسية مستعملة فيها ، ولم تحل العربية محلها لعدة قرون ؛ وقد جاءت التواريخ فيها بالشهور الفارسية القديمة ، لا بشهور السنة العربية الاسلامية . ومن المعلوم أنه كان ثمة مرصد في جنديسابور ؛ ولاشك أن الملاحظات قد جرت هناك ، كما جرت في المراصد الفارسية الأخرى ؛ ولكن العمل جميعه كان وظل في أيد فارسية . ثم بدا أن العرب أرادوا أن يعلموا كيف تجرى هذه الملاحظات ، وتسجل ؛ ولهذا نشر كتاب السندهند بينهم ؛ وكان هذا أول متن في الفلك يعرفه العرب؛ولم يشتمل على معلومات فلكية فحسب؛ ولكنه اشتمل كذلك على معلومات رياضية ضرورية لاستعمال المعلومات الأولى ؛ يختص معظمها بمثلثات الكرة (Spherical trigonometry) .

وثمة أسطورة مشكوك فيها ترد ترجمة السندهند إلى عصر المنصور ؛ مؤسس بغداد ؛ وتقول هذه الأسطورة : إن العرب غزوا السند (Scind) ؛ وهو إقليم أسفل نهر السند ؛ في أيام توسعهم ، بعد سقوط الملكية الفارسية ؛ ولهذا أساس تاريخي قوى . ولم يكن من نتيجة هذه الغزوة أن استولى العرب على الإقليم جميعه ؛ ولكن عدداً من مشايخ القبائل العربية استقر هناك ؛ ليلعب دور الحامية العسكرية ، للمحافظة على الأرض المفتوحة . وقد أصبح هؤلاء بالطبع نصف مستقلين ؛ فحين شبت الثورة العباسية ؛ انتهزوا الفرصة، فأعلنوا استقلالهم ؛ ورفضوا أن يعترفوا بالدولة الجديدة. ولم يحتمل المنصور هذا ؛ فأرسل جيشاً ليعاقبهم ؛ فقرروا بعد الحرب أن يخضعوا ؛ وأرسلوا سفارة إلى بغداد لتحديد الشروط . وذهب مع هذه السفارة حكيم هندى اسمه كانكاه ؛ أفضى إلى العرب بحكمة الهند ؛ وقوامها

ملخص فى الفلك ، وما يستتبعه من رياضيات . ولم يكن كانكاه يعرف العربيه أو الفارسيه ؛ وكان على حديثه أن يترجم إلى الفارسية ، بواسطة مترجم ، ثم يترجم النص الفارسى إلى العربية ، بواسطة مترجم آخر . وتلك طريقة جعلت نتيجة الترجمة معلومات غامضة ومعقدة . وقد عرف البيرونى (مات ١٠٤٨) هذه القصة ، وهو أول المراقبين المسلمين للهند وما انتمى إليها ، وأحسنهم ؛ ولكنه لم يعتقد صحة هذه القصة ، واعتبرها اختلاقا جىء به لإيضاح سبب الغموض والقصور فى الترجمة العربية للسندهند . ولا يعلم التاريخ أن سفارة قد بعث بها من السند إلى المنصور . ومن المحتمل أن يكون هذا الكتاب ترجمة عربية من نسخة فارسية للسدهانتا ، التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت فى جنديسابور . وعلى أى حال ، لا تبدو محتوياته مجموعة من الملاحظات المكتوبة من مشافهة أى حكيم ، ولكنها ترجمة ، أو على الأصح شرح ، للمتن الهندى الرئيسى المراجع ، وهو سدهانتا ، من تأليف براهما غبطا . وربما كان فى القصة هذا القدر من الحقيقة ، وذلك أن السدهانتا مرت بمرحلتين من الترجمة ، أو لعلها ثلاث مراحل ؛ من الهندية إلى الفارسية ، ثم لعلها إلى السريانية ، وأخيراً إلى العربية .

لقد كان الفلك والرياضيات التى تعلمها العرب من معلميهم الهنود باللغة الفارسية ذوات أصل أغريقى ، انتقلت من الأسكندرية إلى شمال الهند الغربى . ولكنه لا يبدو أن المؤلفات الأغريقية الأصلية قد انتشرت فى الهند ، بل إن تعاليمها قد هضمت ، وأعيدت صياغتها ، على يد العلماء الذين تطوروا بما وقع فى أيديهم من معلومات ، وأضافوا إليها الكثير ، وصيروها أكثر مرونة ، باستعمال الرموز العشرية ، والتوسع فى استعمال

الرموز عامة . ويمكن تقدير ذلك إذا نظرنا إلى تأليف أريابهاتا . ويظهر من البيرونى أن عالمين كانا يحملان هذا الاسم (al - Biruni, India,ii,305-327) ويبدو أن أكبر هذين قد توفى حوالى عام ٥٠٠ من الميلاد ؛ وأما تاريخ الأصغر فغير معروف ، ولا نستطيع دائما أن نميز أيهما المقصود . وقد كان عمل أريابهاتا الأكبر فى پاتالى پوترا ، لا فى أجين . وقد ترك مؤلفات عدة ؛ هى الغتيكا Gitika ، الذى هو مجموعة من الجداول الفلكية والأرياشتساتا Arjashtasata ، الذى اشتمل على مؤلف فى الحساب معروف باسم غانيتا ، ثم مؤلف عن هندسة الدوائر ، وهى الأساس الضرورى للعمل الفلكى ، اسمه غولا ، حل المعادلات الرباعية التى استعملها من قبله ديوفانتوس ، الذى اعترف بجذر واحد فقط على أى حال ، حتى ولو كان كلاهما إيجابيا ، وقد اقترح هيرون حل هذه المعادلات . وحاول أن يحل المعادلات الطولية غير المحدودة بواسطة الكسور المستمرة Co .tinued factians وأن يلخص سلسلة حسابية بدلالة حدها الزائى بطريقة يمكن تلخيصها فيما يأتى :

$$\text{مج} = \text{ن} \left\{ ١ + \left(\frac{\text{ن} - ١}{٢} + \text{ر} \right) \text{ء} \right\}$$

وأن يأتى بقوانين لتحديد مساحة الأشكال البسيطة (Plan · figures) ولكنه غالبا ما يعبر تعبيرا غير دقيق كأن يقول ، إن المساحة الناتجة عن مثلث نتيجة لخط عمودى يقسم القاعدة إلى نصفين ، ويعبر عن مساحة لدائرة بأنها ط نق٢ √ ط نق٣ وبهذا تصير ط ١٦ ! وربما كان ذلك خطأ مما

قرره أحمس Ahmes ($\frac{٢٦}{٩}$)[٢] ومن أجل الحصول على قيمة ط يرى أن « يضاف اربعة إلى مائة ، ويضرب الناتج فى ثمانيـة ، ويضاف إليه اثنان وستون ألفا ، ونكون النتيجة هى القيمة التقريبية للمحيط ، حينما يكون القطر عشرين ألفا » . وبهذا يكون ط = $\frac{٦٢٨٣٢}{٢٠٠٠٠}$ أو ٣٫١٤١٨ .

ولقد اشتملت جداوله الفلكية على جدول مختصر عن الجيوب ، والقواعد التى تستخدم فى إيجادها . وفى كل أولئك آثار من التعاليم الإغريقية ، وتبدو هذه الآثار أيضا فى اصطلاحاته مثـــل جامترا = διάμετρος ، وكندرا = κέντρος ، ودراما = δραχμή. ويذهب مؤلفه إلى أكثر مما ذهب إليه الإغريق ، لأنه يستخدم التعبيرات الجبرية بحرية أكثر ، كما يفعل بقية علماء الهنود ؛ وكانت هذه التعبيرات لا ترد إلا عرضا فى عمـــل ديوفانتوس . ثم هو يستعمل أيضا الأرقام الهندية الأكثر سهولة .

أما براهما غبطا ، فقد عمل فى مرصد أجين ، وكان هو الذى ألف السد هانتا Bashma's revised Siddhanta ، الذى أصبح أساس كتاب السند هند العربى ، ويشتمل هذا الكتاب على فصول فى الحساب ، وعلاج للمعادلات غير المحدودة . ويتناول فى الحساب الأعداد الصحيحة (Integers) ، والكسور (fractions) ، والتوالى (Progression) والمقايضة (banter) وقانون الثلاثة (Rule of three) ، والربح البسيط (Semple interest) ومساحة السطوح ذات الأشكال البسيطة mensuration of Plane figures

و الأحجام (Volumes) ، وقياس الظل (Shadow reckoning)
أو استعمال المزولة . أما قواعده الخاصة بالسطوح ، فهى فى الغالب معيبة ،
لأنه يقول فى المثلث المتساوى الأضلاع (equilateral triangle) ،
الذى أحد أضلاعه ١٢ مثلا : ١٣ × ٥ = ٦٥ ويقول فى المثلث الذى
أضلاعه ١٣ ، ١٤ ، ١٥ مثلا : ٧ × ½ × (١٣ + ١٥) ، والنتيجة
٩٦ . وقاعدته من أجل متوازى الأضلاع ا ، ب ، حـ ، د هى
$\sqrt{(ل - ا)\ (ل - ب)\ (ل - ح)\ (ل - د)}$ ، حيث نجد
ل = ½ (ا + ب + حـ + د) ؛ ولكن هذا صحيح فى الرباعيات
الدائرية (Cyclic quadrilaterals) . ونص قانونه أن « نصف مجموع
الأضلاع مضروبا فى أربعة منقوصا نقصا مختلفا فى الجوانب مضروبا
أحدها فى الآخر ينتج الجذر التربيعى للمساحة المضبوطة) . وهو يجعل
ط = ٣ من أجل أغراض عملية أو $\sqrt{١٠}$ باعتبارها قيمتها الدقيقة .
ويتناول المعادلات الرباعية من نوع س^{٢} + اس — ب = صفر جاعلا
س = $\frac{\sqrt{ا^{٢} + ٤ب} - ا}{٢}$ ، ويأتى هذا بجذر واحد مضبوطا . وأهم

من ذلك تطبيق الجبر على الفلك فى الكوتاخاديا كا (Kutakhadyaka)
وهى أول مثل لمثل هذا التطبيق . ويعتبر المعادلات الآنية فى المرتبة الأولى
ويسمى الكميات المجهولة فيها ألوانا . فإذا نظرنا إلى الحل الذى يقول
ا س — ب د = حـ نجده يقول س = ± حـ ق — ب ص ويقول

د = ± حك — ا ص . وقد قال بهذا أريابهاتا من قبل ، وحله على أى حال . أما الآن فإن براهما غيطا يأتى بالحل . وهذه الحلول تجعل ص = صفر ، أو أى عدد صحيح ، وتجعل ك/٩ هو الذى يئول فى النهاية إلى ٩/٦ (penultimate convergent of $\frac{9}{6}$) ويأتى فى المثلث القائم الزاوية بمجموعتين من القيم ، ٢ م ن ، م^{٢} — ن^{٢} ، م^{٢} — ن^{٢} ثم $\sqrt{\text{م}/١١}$ ، ½ (م/١١ — ن) ، ½ (م/١١ + ن) ، وربما كان آخذاً فى هذا عن أصل إغريقى . وواضح من هذا أنه فى العهد الذى كان الطريق البحرى فيه مستخدما بين الأسكندرية وأجين ، كانت الرياضيات مبنية على التعاليم الاسكندرية الأغريقيه .

وبما أن الفلك العربى قد بدأ فى صورة استمرار للعمل الذى كان موجودا من قبل فى المراصد الفارسية ، التى لم يكن عملها ليمكن لولا استخدام الرياضة الهندية ، يبدو من المؤكد أن العرب لابد أن يكونوا قد استعملوا المعلومات الإغريقية ، التى جاءتهم خلال وسط هندى ، ونقلها الفلكيون والرياضيون الفرس ، عن علماء الهنود ؛ ولو أن الكتب الفارسية التى مدت العرب بهذه المعلومات غير موجودة الآن . ويقال إن العرب حين وجدوا أنفسهم غير قادرين على فهم الماجسطى ، عرف جعفر بن يحى البرمكى العلاج المطلوب فى الحال ، وهو تفهم اقليدس ، وكلوديوس بطليموس ؛ ولم تكن مادة هذين قد نقلت إلى العربية فى ذلك الوقت .

وإذا كانت هذه الدعوى يمكن الاعتماد عليها ، فإنها تدل على أنه وهو فارسى الأصل والثقافة ، كان على معرفة بالمادة المطلوبة ؛ ولو أننا لا نعلم أن نسخة فارسية أو هندية كانت موجودة من هذين المؤلفين . وليس من الضرورى أن تبرهن على أن مؤلفات علماء الأغريق قد تمت ترجمتها إلى الهندية ، أو إلى الفارسية ، إذا أن من الواضح أن تعاليمهم كانت معروفة ومستخدمة .

الفصل الثامن

النفوذ الهندى ٢ ـ الطريق البرى

١ ـ بلخ :

كان الوصول إلى الهند يستطاع بالبر كما يستطاع بالبحر ، ومن المعلوم أنه كان ثمة تجارة مع الهند فى العهد الآشورى ، ولكنه ليس من الواضح ما إذا كان ذلك قد تم عن طريق البر أو البحر . أما الأدلة المباشرة على الاتصال بين الهند وغرب آسيا ، فتبدأ من العصر الفارسى ، بعد أن هزم سيروس القبائل المعادية التى سدت طريقه . أما دارا بن هستاسبس Hystaspes (٥٢١ ــ ٤٨٥ قم) ، فقد توغل فى الشمال الغربى للهند ، وأضاف إلى ممتلكاته دلتا السند ، التى أدعى بعد ذلك أنها ولاية فارسية (a Persian starapy) ، كما يتضح من نقوش برسيبوليس ، ونكشى رستم . لقد كان دارا هو الذى أرسل (فى ٥١٢ ــ ٥١٠) البحار الإغريقى سكيلاخ Skylax الكارياندى of Karyanda فى كاريا Karia (وكان جارا لهيرودوت ولعله كان صديقا له) ليكشف عن إمكان وجود طريق أقصر فى البحر ، فيما بين الخليج الفارسى ومصب السند ، وربما كان ذلك دليلا على المعرفة بإقليم السند . وعندما علم أن ثمة طريقا فى متناوله بعث بأسطول إلى المحيط الهندى .

لقد كانت غزوة الاسكندر للهند فيما بين ٣٢٧ — ٣٢٥ ، وقصد منها المحافظة على أقصى أقاليم الفرس شرقا ، بعد هزيمة الفرس . وقبل أن يخترق جبال حدود الهند ، بنى قاعدة حربية أصبحت فيما بعد مدينة ألا ساندأ ، أو الاسكندرية ، أسفل القوقاز . ويحتمل أن يكون موقعها ثلاثين ميلا شمالى كابول ، وهى إحدى الإسكندريات الكثيرة التى أسسها . وقد كان اسم القوقاز يطلق فى عرف الاغريق على مايعرف الآن باسم هندوكوش . ومات الاسكندر عام ٣٢٣ ، وبموته تنازع قواده على مملكته التى لم يعقب لها وريثا ، وقسمت بينهم عام ٣١٢ . وقد وقع الأقليم الفارسى فى هـذا التقسيم فى نصيب سيليوقوس نيكاتور ، الذى بنى مدينة أنطاكية فى سوريا ، وجعلها عاصمته ، جاعلا الأقاليم الواسعة شرقى سوريا إلى السند فى وضع التابع . ولقد كان همه متجها إلى المنافسات بين الحكام الاغريق على طول البحر المتوسط أكثر مما اتجه إلى شئون الأقاليم الآسيوية الداخلة ، وترك بابل ، وكل ما كان يسمى مملكة الفرس ، إلى نواب عنه . وجاء من بعد سيليوقوس ابنه أنطيوكوس سوتر (٢٨٠ — ٢٦٢ ق م) وخلفه ابنه أنطيوكوس ثيوس (٢٦١ — ٢٦٤ ق م) ، وهؤلاء الثلاثة جميعا دخلوا فى حرب مع بطالمة مصر ، تاركين بلاد الفرس لظروفها الخاصة . وانتهزت القبائل البارثية فى شرق بلاد الفرس (خراسان) الفرصة ؛ وانسلخوا عن الحكم السيليوقى ؛ وكونوا مملكة بارثيا المستقلة حوالى عام ٢٥٠ ق م . واشتملت هذه المملكة البارثية الجديدة على جزء كبير من مملكة فارس القديمة ، ولكنهم لم يحكموا كل ماحكمة ملوك الخمانيين .

وفى حوالى عام ٢١٠ ق م ، اعترف أنطيوكوس الثالث الملك السيليوقى رسميا بأرطبانيس الملك الثالث ، من البارثيين ، ملكا مستقلا .

وكان الملوك البارثيون من غير سلالة الأسرة الملكية الفارسيه ، وهى أسرة الخخانيين ، ولكنهم كانوا من السقا (Scythians) من مايوتيس (Maeotis) ، مع أن أسطورة قد شاعت بعد ذلك تقول : إن مؤسس أسرتهم أرساقيس كان قد ولد فى بلخ . وكان البارثيون موضع احتقار الفرس الأصلاء لأنهم جاءوا من قبائل نصف همجية ، فى شرق بلاد الفرس . وكانوا يعتبرون من جنس أحط . وكانوا هم القبيلة الأولى من قبائل منطقتهم التى لم يرد لها ذكر فى الكتب الفارسية المقدسة ؛ ويبدو أنهم أحتفظوا ببعض العادات البدوية للقبيلة التى نسلوا منها .

وجعلوا عاصمتهم الشتوية بابل ، أو طيشفون ، وهذه الأخيرة من مدن المعسكرات على شاطىء دجلة ، وتجنبوا بذلك الجالية الإغريقية المجاورة فى سيلوقيا ، التى تركت مستقلة بنظمها ولغتها ودياناتها الاغريقية . وكانت عاصمة الصيف اكباتانا (همدان) ، أوراغوص (Rhagus) وكان ثمة قصر فى هيكا تمبيلوس (HecatomPylos) ، فى وسط بارثيا وهى مدينة وسعها السيليوقيون ، وأعادو ابناءها جزئيا . ووسع ثالث ملوك الأرساقيسيين مثرداتيس الأول (مات ١٣٨ — ١٣٠ ق م) من رقعة المملكة البارثية ، وبعد أن مد حدودها من دجلة إلى السند ، اتخذ لنفسه لقب « ملك الملوك » الذى استخدمه الملوك الخخانيون ؛ ومثل على عملته حاملا قوسا كهؤلاء الملوك القدماء ، ولبس عمامة مرصعة

باللآلىء كما فعلوا . وكان الخخانيون يعتبرون ذوى نسب نصف مقدس ، وأرواح مقدسة ، منبثقة من الإله أهور امزدا ؛ وهكذا أطلقوا على أنفسهم أبنـــاء الله ، فاتخذ ملوك البارثيين أيضا هذا اللقب فى صورة Zag Alokin فى النقوش على عملاتهم المحلية ، (θεοπάτηρ) على عملتهم الإغريقية . واندمج ملوك البارثيين فى « العظماء » (Μεγιστᾶνες) ، أو النبلاء الأعلين ، فى المملكة . وكذلك فى أخوة الماغى أو القساوسة الفرس ، كل ذلك كما كان فى أيام الخخانيين القدماء . وحاولوا ، كما حاول كبار عمالهم ، أن يدمجوا أنفسهم فى الفرس بقدر الطاقة ، فقلدوا ملابسهم وسلوكهم ، وكثيرا ما تسموا بأسماء فارسية .

لقد ترك الاسكندر عددا من الجـــاليات مبعثرا فيما كان من قبل امبراطورية له ، وبقيت هذه الجاليات ، وأصبحت منابع للنفوذ الإغريقى . وترك الاسكندر ، بقطع النظر عن هذه الجاليات ،هيبة ونفوذا ثقافيا دام أثره قرونا عدة ، حتى لقد نظر الآسيويون من الشرق الأدنى نظرة احترام لـكل ما كان إغريقيا . ولم تـكن الإغريقية لغة رسمية فى بارثيا ، كما كانت فى مصر ، ولـكنها كانت تستعمل بكثرة على العملة البارثية ؛ ولو أنهـــا أصبحت فى عهد الملوك المتأخرين ركيكة حتى لم تعد تفهم . وأقدم عملة ، وهى بماسكه ڤولوغاسوس الأول ، فى أيام الامبراطور الرومانى كلوديوس ، تأتى بلقب الملك كله مكتوبا بالإغريقية ، قائمة بذكر اسم الملك مختصرا فى شكل « ڤول Voi » فى الفارسية القديمة ، أو البهلوية . ومن حوالى عام ١٨٨ ق م فصاعدا ، اشتمل اللقب الملكى على كلمة (φιλέλην) . وكان للمملكة البارثية إلى حد ما صبغة تهلينية ، ولو أن هذه الهلينية أصبحت

ذات طابع شرقى متزايد . ولم يكن الشعور القومى فى غاية نموه ، لأن الأسرة الحاكمة كانت تعتبر أحط من الناحيه الشعبية ، وتحملها الفرس على عرشهم ، لأنها حررت بلادهم من النير الأجنبى فحسب ؛ وعضدوها لأنها برهنت على أنها تستطيع حفظ الأمن والاستقلال بصورة فعلية . فلما هزمت أمام دولة أجنبية ، فقدت سيطرتها ، وتلفت الشعب إلى ملك شرعى ، من السلالة الأصلية ، التى نسلت من أنصاف الآلهة .

وبعد أن قام أرساقيس بالثورة التى أدت إلى إنشاء بارثيا ، خرجت بلخ ، وصغديانة ، وفرغانة ، على حكم السيليوقيين ، ونشأت مملكة إغريقية فى بلخ ، على الحدود الهندية ، ولو أنها احتفظت بصلتها بالعالم الإغريقى . وبقيت هذه المملكة إلى حوالى عام ١٢٨ ق م ، وكان سكانها من المهاجرين الإغريق ، الذين كانوا يفدون للاستقرار . أما مدينة أنطاكية مارغيانة (مرو) فى بلاد الصغد ، فقد كانت فى نهاية طريق مسلوك بكثرة ، من سوريا وشمال العراق إلى باكترا (أو بلخ) ، عاصمة مملكة بلخ ، ثم إلى الأساندا ، أو الاسكندرية ، فى أسفل القوقاز ، على عتبة الهند — وقد ظلت بلخ فى تاريخها كله إغريقية خالصة ، وكانت مركزاً للنفوذ الإغريقى ، حتى سقطت تحت أقدام المغيرين البرابرة . ولأن بلخ المستقلة كانت فى ثورة على ملوك السيليوقيين فى سوريا ، كان لمنافسيهم البطالمة ، ملوك مصر ، سفير فى بلاط بلخ ؛ فقد كانت هذه الولايات فى وسط آسيا منغمسة فى مؤمرات شرقى البحر المتوسط .

ولم تكن ثورة بلخ بحيث تخرجها نهائيا عن السيليوقيين ، فقد أهملها السيليوقيون ، وفى حوالى ٢٤٨ ق م استقل ثيودونوس والى بلخ .

ويقول جستين (٤١ — ٤٤) إنه أمر أن يسمى ملكا ، ولكن الدلائل على هذا لا تظهر فى عملته ، وقد فعل ذلك ابنه ديودوتوس أو ثيودوتوس الثانى بالتأكيد ، وتحالف مع پارثيا ضد مليكه فى أنطاكية ، فكان ذلك عكس سياسة أبيه ، فلم تكن تلك سياسة مقبولة . فقد ذبحه يوثيديموس ، زوج ابنة الملكة أرملة ثيودوتوس الأول . وحين لامه أنطيوكوس الثالث السيليوكى على ذبح ديودتوس ، دفع عن نفسه بقوله إنه لم يكن ثائرا ، ولكنه قتل ابن ثائر (Polyblus, 11, 34, 2) . وهو دفاع يظهر فيه أن الرأى العام المعاصر كان يرى أن ثيودوتوس ثار ضد ملكه . وفى عام ٢٠٨ ق م ، حاول أنطيوكوس الثالث (العظيم) أن يسترد بلخ إلى المملكة السيليوقية ، ولكن يوثيديموس هدد بعد سنتين من الحصار الفاشل أنه سوف يدعوا السقا (Scythians) إلى نصرته ، ووضح الكارثة التى ستحل بمجىء هؤلاء البرابرة . فرجع أنطيوكوس عن محاولته ، واعترف باستقلال ملك بلخ . وفى عام ١٩٠ ق م وقعت على أنطيوكوس نفسه هزيمة على يد شيبيو أسياتيكوس الرومانى ، فزال خطر الغزو السيليوقى بعض الوقت ؛ ثم مات يوثيديموس نفسه فى السنة التالية .

وكان للملك البلخى الثانى ديمتريوس مطامع لتوسيع مملكته فى اتجاه الهند ، فغزا الهند من جهة هندوكوش ، واحتل پاتاليپوترا عام ١٧٥ ، ولم يكن هذا إلا مرحلة أولى من مراحل تقدمه . ثم وضع خطة لغزوة عظيمة للبنجاب ، مقسما قواته إلى جيوش ثلاثة ، كان على جميعها أن تعمل فى انسجام ، ووضع نفسه فى إمرة الجيش الأول ؛ فاحتل غندهارا ، وتاكسيلا (Taxila) ، وكانت غندهارا هذه معروفة باسم هيلاس الثانية

(The second Hellas) ؛ لأن اللغة الإغريقية والفنون الإغريقية التى أزدهرت هناك قدر لها أن تنتشر شرقا ، وتترك آثارها فى الشرق الأقصى .

ولقد كانت فى ذلك الوقت أرضا مقدسة بالنسبة للبوذية ، وهى قداسة مرجعها إلى وجود ثلاثة من أربعة مبان بوذية أثرية (Stupas) . ولم يزر بوذا هذه البلاد ، ولم يكن لها صلة بحياته ، ولا برسالته ؛ وتعتمد صبغتها المقدسة على هذه المبانى الأثرية ، التى تضم بقايا هامة من بوذا أو من ملابسه . وعهد بالجيش الثانى إلى مناندر ، وقد استولى هذا الجيش على پاتاليبوترا ، عاصمة ساغالة (Sagala) ، أو (Sialkot) ، والمدينه الرئيسية للدراس Madras الذين كانوا أيضا بوذيين . وأما الجيش الثالث ، فقد قاده أخ لديمتريوس اسمه أپولو دوتوس Apollodotus ؛ فتوجه إلى باريجازا (Barygaza) ، والمقصود بها أچين . وتغلب ديمتريوس بهذه العمليات على كل الشمال الغربى للهند ، ولكن السيليوقيين لم يفرطوا فى أملهم فى استرداد بلخ . وفى عام ١٦٨ أرسل أنطيوكوس الرابع حملة يقودها قائده يوكراتيدس ضد ديمتريوس ، وعندما تقدم الجيش السيليوقى ، أمر ديمتريوس مناندر Menander أن يخلى پاتاليبوترا ، وتقدم بنفسه فالتقى بيوكراتيدس ، فى غرب هندوكوش . وقد انهزم البلخيون فى هذا اللقاء ، وذبح ديمتريوس ، ومن ثم أخذ يوكراتيدس غاندهارا ، وأعد عدته لغزو الهند ، ولكنه انتظر أنطيوكوس ، الذى وضع الخطة مع تقدير كونه قائدا للجيش بنفسه ، فى الغزوة التى كان يأمل أن يكون لها من المجد ما كان لغزوة سلفه الاسكندر . ولكن أنطيوكوس مات فى عام ١٦٣ فى غاباى Gabae ، قبل بدء الغزوة (Polybius, 31, 9, 11) . وهذا الحادث غير

المنتظر ترك يوكراتيدس يحكم بلخ المفتوحة ، ولكن هذا لم يدم إلا وقتا قصيرا ، لأن متريداتيس الملك البارثى تدخل ، فأخذ لنفسه غرب بلخ ، ومات يوكراتيدس بعد ذلك بقليل (عام ١٥٩ — ١٥٨) . ولكن الغازى الثالث مناندر خلى ونفسه ، وربما ظل حاكما على ساغالة Sagala حتى عام ١٤٥ ، وكان معظم رعاياه من البوذيين ، الذين كانوا يعطفون على الإغريق ، الذين كانوا فى نظرهم أصدقاء ومنقذين من الهندوس ، الذين اضطهدوا البوذية . ومن أوصاف مناندر أنه كان شديد الميل إلى البوذيين ، ولكن لا يوجد دليل على أنه اعتنق ديانتهم . وثمة أسطورة فى مليندا هانا Melindahana تقول : إنه فعل ذلك ؛ وهناك حوار بوذى أحد المخاطبين فيه يسمى ملندا (Melinda) ، والمفروض أنه يمثل مناندر . ولكن البوذية فى ذلك الوقت لم تكن تنتشر فى آسيا الوسطى ، بل إن مستقبلها كان يتجه إلى الشرق الأقصى .

لقد انتهت دولة بلخ الإغريقية بين عامى ١٤١ و ١٢٨ ا وقد تسببت فى نهايتها رحلة قبائل السقا (Scythians) — « يوهتشى » الذين جاءوا من شمال الصين .

ولقد كان هؤلاء بالطبع من القبائل المغولية ، وهذا ما يدل عليه استعمال كلمة سقا أو (Scythian) ، وقد أخذت منهم مراعيهم فى الصين قبيلة مغولية أخرى ، اسمها « هى يونج نو » ، فتفرقوا ، وذهب بعضهم إلى الجنوب ، وأسسوا مملكة فى الصين ، وذهب بعض آخر إلى الغرب ، حتى وقعوا على قبيلة « وو سون » فقتلوا ملكها ، واحتلوا أرضها ، ولكنهم بعد قليل أخذهم عدوهم القديم « هى يونج نو » ، الذين استدعتهم

القبيلة المغلوبة « وو سون » ؛ وهكذا اضطروا إلى أن يستمرو فى زحفهم إلى الغرب . ثم هاجموا بعد ذلك قبائل « ساى ونج » ، الذين هربوا إلى الجنوب ، ولكن حوالى عام ١٦٠ ق م ، هجمت عليهم قبيلة « وو سون » تحت قيادة ابن الملك القتيل ، فانسحبوا إلى غربى موقفهم أيضا .

ثم تواروا عن الأنظار بعض الوقت ، حتى حوالى عام ١٢٨ ، حين عبروا نهرسيحون ، ثم جيحون ، ثم احتلو أقاليم بلخ ، وصغديانا ، حيث كونوا مجموعة من إمارات السقا . وفى هذه الأثناء ، استولت قبائل « ساى ونج » المسلوبة على إقليم فرغانة الإغريقى ، وأنشأوا إمارة أخرى من إمارات السقا هناك . ولقد غطى قدوم هذه القبائل نصف البربريه نهائيا على الحياة السياسية والاجتماعية فى الممالك الإغريقية فى آسيا الوسطى ، فى تلك الأيام على الأقل ، ولكنها لم تتدخل فى الديانة البوذية ، لأن معظم القبائل الغازية تحولت إلى البوذية .

لقد جاءت قبائل « يوهتشى » من الصين ، وتتبعت حكومة الصين تقلب أحوالهم بعد هجرتهم ، وفى عام ١٢٨ أخذهم القائد الصينى « شانج كيين » فى بلخ ، وعقد محالفة بينهم وبين الصين ، وحاول الصينيون وقتا طويلا بعد ذلك أن يفرضوا نفوذهم عليهم ، ولكنهم حوالى ٤٨ — ٣٥ ق م فقدوا اهتمامهم بأمورهم ،

وبدأت القبائل البدوية تستقر بالتدريج ، وبعد عام ٢٥ ق م بقليل اسس كوجالا شيخ قبيلة كوشان إحدى قبائل « يوهتشى » إمارة من إمارات السقا فى بلخ ، وشمال الهند الغربى ، وهى مجموعة إمارات قديمة

خس ، فبقيت قرنين من الزمان . وقد أصبحت بلخ فى ذلك الوقت أرضا مقدسة بالنسبة للبوذية ، وتطورت هذه القدسية فى ظل حكم ملوك كوشان ، حتى جاء الحجـــاج البوذيون من أماكن كثيرة ، ليزوروا القباب الكثيرة ، أو المزارات التاريخية (relic shrines) ، التى كانت كثيرة هناك .

وتعتبر بلخ تحت حكم ملوك كوشان بعض الوقت ذات اهمية باعتبارها عاملا فى تطور البوذية المنظمة ثم تحولت من بعد إلى دولة ناهضة فى شمال الهند الغربى ، فى حكم الملك كادفيسيس الأول (KadphisesI) ولقد زار « كنج هين » وبعض العلماء الصينيين الآخرين بلخ ، حين أرسلت بعض الكتب البوذية عام ٦٤ من الميلاد إلى الإمبراطور الصينى « منج تى » وكان من نتيجة ذلك أن اعترف بالبوذية بين الديانات الرسمية فى الصين فى السنة التالية . ولقد نمت التجارة مع الامبراطورية الرومانية فى حكم كادفيسيس الثانى (٨٥ — ١٢٣ م) ، وكانت أكثر بطريق البحر منها بطريق البر المار بمرو ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وأما كانيشكا ثالث ملوك كوشان (١٢٣ — ١٠٣ م) ، فقد تحول إلى البوذية وكانت قد تغيرت الأمور فى ذلك الوقت ، حتى أن كوشان صدت التوسع الصينى ، وأخذت كثيرا من الأسرى ، ومن بينهم هان ابن امبراطور الصين ، إلى بلخ . وقد بنى لهم كانيشكا ديرا فى كاپيسا ، وكان يحولهم أيام الـــبرد إلى مكان يسمى تشيناپاتى ، غير معروف الموقع :

لقد سكت النقود فى عهد ذلك الملك على الطراز الإغريقى ، وتظهر عليها كتابة اغريقية ركيكة الشكل نوعا . وكان فى بلاط كوشان بعض الحاذقين فى الحفر ، الذين قضوا أيام مرانهم فى مدرسة فى اقليم غندهارا ، على الحدود ، وقلدوا الإغريق فى فنهم . وكان بوذا فى ذلك الوقت قد أله وعبد ، وبدأت التماثيل التى تمثله تظهر ، وتأخذ محلها فى المعابد البوذية ، فى مكان الرموز التلميحية القديمة . وقد ظهرت أقدم صور هذا النوع فى غندهارا ، ووضع تصميمها على النمط الإغريقى ، فكانت تقليدا لصور أپولو الإغريقية . ويبدى فن غندهارا إيحاءاً إغريقيا فى معظم المجتمع البوذى ، حتى إن تماثيل بوذا فى الصين واليابان تبدى طابعا إغريقيا ؛ وعلى الأخص فيما يتعلق بالملابس . وهذا النوع من صور بوذا فى مطابقة للمعايير الإغريقية ، يبدى بوذا فى شكل الرجل الأنيق ؛ ولكن بعض البوذين الآخرين لم يكونوا راضين عن ذلك الطراز الإغريقى لآلهتهم ، وأرادوا له شكلا أكثر صوفية وروحانية ، لاشكلا آدميا صرفا مهما كان متقنا . وهكذا اخترع شكل آخر فى ماثورا (Mathura) ، على الطريق الأعظم بين الاسكندرية أسفل القوقاز ، وبين « باتالى بوترا » ، فكان فى أول الأمر تقليدا فجا لصوره غندهارا ، ولكنه تحول فى النهاية إلى شخصية قدسية روحانية ، لاتزال تنم على أى حال عن أصلها الإغريقى .

٣ — طريق مرو البرى

يتجه أكبر همنا هنا إلى الطريق البرى بين الامبراطورية الرومانية

والشرق الأقصى ، وقد وصل هذا الطريق ما بين الحدود السورية ومرو ، وهى مدينة أسسها أنطيوكوس الأول (٢٠٨ — ٢٤٠ ق م) ليتخذها مستعمرة اغريقية ، محوطة بقرى زراعية ، معظمها إغريقى . وكانت المدينة والقرى على السواء كثيرا ما تستقبل الجحافل من الإغـــريق المستعمرين للاستقرار فيها ؛ وقد أصبحت هذه المنطقة فى حكم البارثيين سوقا تلتقى فيه تجارة الرومان بتجارة الصين . وفى أيام الفتح العربى ، ولمدة طويلة بعده ، كانت هذه المنطقة مسرحا لازدهار عظيم ، تنتج الحرير والقطن الناعم ، حين كانت هذه المواد نادرة الوجود فى الامبراطورية الرومانية . وازداد سكان الربض الغربى من أرباض هذه المدينة ، فتحولت المصالح التجارية فى المدينة فى أوائل الفتح العربى إلى ذلك الربض . ولقد هرب يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس إلى مرو عند هزيمته ، فلحق به العرب هناك عام ٦٣١ ، وقتلوه فى طاحونة فى قرية قريبة إلى هناك اسمها الرزيق ، فأخذ الأسقف المسيحى (النسطورى) جثة الملك القتيل ودفنها فى بأنى بابان « "Pa - i - Baban"Tabari - Annł i 2881 »[1] وهو حادث يوحى بأن النسطوريين كانوا عنصرا مهما فى هذه المدينة . وكانه ثمة دير نسطورى عظيم فى ماسرغاسان ، شمال الحى الذى عرف فيها

---

(١) « ثم خنقوه بوتر ، وطرحوه فى نهر مرو ؛ فجرى الماء حتى انتهى الى فوهة الرزيق ، فتعلق بعود ؛ فأتاه أسقف مرو ، فحمله ، ولفه فى طيلسان ممسك ، وجعله فى تابوت ، وحمله إلى باب بابان أسفل ماجان ، فوضعه فى عقد كان يكون مجلس الأسقف فيه ، وردمه » . تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٨٥ الطبعة الحسينية .

بعد باسم « سلطان قلعة »، المجاور لهذا الحي(Tabari An., ii, 1925[1]).
ويبدو أن مرو كانت ثغرا من ثغور الهلينية ، وفيها جزء عظيم مسيحي من سكانها من النساطرة واليعاقبة على السواء ، وقد تضخمت بلا شك بأن حل فيها الأسرى الذين أخذهم خسرو الثانى من الرومان ، وأرسلهم إلى مكان شرقى ، من أجل أحكام الحراسة عليهم .

ولقد كانت مرو وبلخ وصغديانا مراكز للهلينية ؛ وأوقفت غزوة السقا لبلخ هذا العنصر الهليني ، ولكنها لم تحطمه . وكان للطرف الغربى من هذا الطريق فى هذه الأثناء حوادثه المتغلبة أيضا ؛ فقد كانت پارثيا سدا رئيسيا بين الإغريق وبين العالم الشرقى ، وكانت تقتطع من الأقاليم السيليوقية ، وفى حوالى ١٥٠ ق م استولت على العراق . ولكن التقدم البارثى توقف ، فقد جاء توغل السقا فى الأقاليم الشرقية بعد غزو العراق بقليل . ولم تعد المملكية السيليوقية من ناحية أخرى عقبة جدية حينما هزم البارثيون أنطيوكوس سيديتيس عام ١٢٩ ، وذبحوه ، ولو أنهم لم يستطيعوا أن ينتفعوا بهذا النصر انتفاعا تاما ، لأن السقا كانوا قد بدأوا يهددون حدودهم الشرقية .

---

(١) ورد فى ص ١٩٢٥ من الجزء الثانى من طبعة ذى غوية ما يأتى :
«فأول من أتى السكرمانى بهزيمة الحارث وهو معسكر بباب ماسرحسان على فرسخ من المدينة النضر بن غلاق» .
وورد فى هامش الصفحة نفسها فى التعليق على كلمة ماسرجان :
Cod ماسرحسان Videtur fuisse Monasterium S. Sergio • dedicatum; cf. Belath• ، • ٢٩ Jâcût II, ، ٦٨٤ ii.

ولقد تركت هذه الهزيمة سوريا أضعف من أن تحمى نفسها ، وتجمع الأعداء حولها فى انتظار فرصة الاستيلاء على أراضيها . وكانت القبائل العربية فى ذلك الوقت تحتك بالأجزاء الشرقية من سوريا ، ونشأت أسرة ملكية وطنية فى الرها ، وأعلنت استقلالها عام ١٣٢ ، على حين كانت البلاد كلها عرضة لهجمات القبائل العربية ، التى لم يمض عليها وقت طويل حتى بدأت فى الهجوم على بارثيا كذلك . وهكذا أصبحت العراق أرضا محايدة ، عليها عدد من الإمارات الوطنية الصغرى ، التى لم تخضع لحكم الملك السيليوقى فى أنطاكية ، ولم يستطع ملك بارثيا أن يسيطر عليها .

وفى عام ٧٩ ق م ظهر عدو أضخم ، فى شخص طغرانيس ملك أرمينيا ، وهى أرض أهلها من سكان المرتفعات ، الذين يتحملون المشاق ، والذين قاوموا التغلغل الإغريقى ، وقد استطاع طغرانيس بسهولة أن يغزو سوريا ، ولكن الرومان فى ذلك الوقت كانوا يتوسعون حول البحر المتوسط ، وبعد قليل هزم پومپى الأرمن ، وأخذ سوريا من أيديهم ، وصيرها إقليما رومانيا ، فيما عدا كوماچين فى الشمال الشرقى ، تركت لتكون إمارة إقطاعية تحت حكم أمراء وطنيين . وإلى هذا الحد ثبت پومپى الحالات الموجودة ، واعترف بالفرات حداً طبيعياً بين پارثيا والامبراطورية الرومانية ، ولو أن هذا لم يمنع الرومان من أن يقبلوا الرها (Osrohene) وعاصمتها إدسا (Edessa) دولة تابعة ، مع أنها كانت على الجانب الآخر من النهر ،

ولقد كانت هناك سلسلة من الإمارات العربية الممتدة من الحدود الأرمنية إلى شمال بلاد العرب ، وأهم هذه الإمارات تدمر . ويبدو أن

أغسطس الذى احترم اعتراف پومبى بالفرات حداً طبيعيا بين بلاد الفرس والامبراطورية الرومانية قد اعتبر هذه الإمارات العربية دول حدود (Buffer states) ، لحماية الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية ، من پارثيا .

ومن أيام تراچان فصاعدا ، يتمركز تاريخ عرب آسيا فى المبارزة الطويلة الأمد ، التى بين روما وپارثيا ، أو فارس ، التى كانت هى پارثيا منظمة تحت سيطرة أسرة ملكية جديدة ؛ وكان لهذه المبارزة انتصاراتها التى اختلفت من وقت إلى آخر بين العدوين ، ولم يتم تهلين الأراضى الداخلية فى سوريا أبداً ، فكانت المجالس الكنسية تستعمل اللغة الإغريقية ، ولكن الأساقفة العراقيين اضطروا إلى استخدام صلوات مترجمة (Schwartz, Acta, Concil. Oecum., ii, i, 184, 193) . وأرسل أساقفة الرها شكوى إلى مؤتمر كالسيدون ، كان أكثر من ثلث التوقيعات عليها بالسريانية (ibid., 35) .

ولقد وضعت الثورة الساسانية فى عام ٢٢٦ من الميلاد أسرة جديدة على العرش ، الذى كان عرش پارثيا ؛ وكان لهذه الثورة ، ككل الحركات المماثلة فى بلاد الشرق ، دافع دينى . فهى لم تضع على العرش مدعيا شرعيا قبل الناس كونه من سلالة أنصاف الآلهة الأقدمين فحسب ، بل قادت كذلك إلى إصلاح جوهرى للدين الذى أسسه زارادشت . وبدأ أزدشير أول ملوك الساسانيين حكمه ، بأن عقد مجلسا عاما لرجال الدين المزدكيين ، فابطلوا الخلافات المذهبية من طوائفهم المختلفة ، وهى خلافات قسمت المجتمع الفارسى ، ووحد العبادة والقواعد الدينية . وتبدو المزدكية فى التاريخ ديانة

متسامحة بصفة عامة ، إلا فيما يخص المرتدين عنها ، مثل مانى ومزدك ، ولكنها يبدو أنها مرت بفترة من الدعاية النشطة ، التى لم تصلنا تفصيلها ، وفى خلالها انتشرت الزارادشتية فى الأقاليم الشرقية من المملكة ، حتى أنه عند ظهور الإسلام ، كانت بلخ وصغديانة وفرغانة إلى حد كبير مزدكية ، مع وجود أقلية قوية من البوذيين ؛ فكان ذلك مشكلة للمسلمين الفاتحين . وهكذا البرامكة ، الوارثون البوذيون للقب رؤساء أديرة « نوابهار » ، والمالكون لثروة عظيمة ، مشتقة بصفة رئيسية من نذور أجيال من الحجاج البوذيين إلى هذه الأديرة ، ويعتبرون من عباد النار حتى تحولوا إلى الإسلام .

أما البرمكيون (أبناء يحى بن برمك) فقد كانوا على صلة خاصة بمدينة مرو ، ولا نعلم ما إذا كانوا قد وفدوا من بلخ ، وكانوا من أهم المحرضين فى الثورة العباسية . وقد أدت هذه الثورة إلى تغلب النفوذ الفارسى ؛ وإلى صيرورة الدولة العربية ، والديانة الإسلامية ، والأدب العربى ، إلى الصبغة الفـــارسية . ولقد كان مثلا بن أثرى اليهودى المروزى (المتوفى ٨١٥ — ٨٢٠) أحد المنجمين الذين دعوا عند تأسيس بغداد ، ومؤلف كتب فى الفلك والرياضيات ، يبد فيها النفوذ الإغريقى . وكان سهل بن ربان الطبرى وهو يهودى آخر من مرو (حوالى ٨٠٠) ، هو الذى أتى إلى بغداد ، ووضع أول ترجمة عربية لعنـــاصر إقليدس .

الفصل التاسع

البوذية باعتبارها وسيلة تهليلية ممكنة

١ — ظهور البوذية

منذ زمن سحيق قبل غزوة الاسكندر للهند ، اكتملت الديانة الهندية المبنية على مذاهب الغزاة الآريين ، والمشتملة على عناصر من الديانات البدائية ، التى بقيت بين السكان الأصليين المنهزمين ، وقد خلقت نظاما طبقيا عنيفا ، يقسم معتنقيها إلى طوائف خاصة محددة ، ووضعت قيودا على الاختلاط بالعالم الخارجى . ولكن حركات دينية مختلفة قد ظهرت حوالى القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد ، وخصوصا فى شمال الهند الغربى ، وقد مالت هذه الحركات إلى الإنفصال عن الطقوس الهندوكية ، وأبدت ميولا صوفية بها عناصر زهدية ، واحترام عظيم لقداسة الحياة الإنسانية والحيوانية . وكانت ديانة الجين (Jain) نتيجة لاحدى هذه الحركات ، وهى لم تنتشر وراء حدود الهند ؛ وكانت البوذية هى الديانة الأخرى ، وقد كانت فى بدايتها مذهب طائفة زهدية صغيرة ، ولكنها نمت بعد ذلك وانتشرت ، حتى أصبحت إحدى الديانات العظمى فى العالم وكلتا الديانتين ترجع فى أصولها إلى النظام الفلسفى المسمى سانخيا (Sankhya) ، الذى بدأه كابيلا (Kapila) .

أما ديانة الجين ، فقد أسسها ماهافيرا (Mahvira) الذى أعلن تعاليمه فى مملكة ما غادها (Magadha) ، جنوب بهار ، فى شمال الهند الغربى ، حوالى ٥٠٧ ق م على احتمال . وجمع غوتاما بوذا منظمة رهبانية حوله ، فى حدائق الغزلان deer par ، فى سارناث ، بقرب بنارس ، ومات حوالى ٤٨٠ ق م . ولكن تعاليمه انتشرت فى المنطقة الغانجيزية فى الجنوب الشرقى وفى كوسالا (Oudh) وما غادها .

وهكذا كانت الديانتان على صلة بما غادها ، وقد اعتبر أقليم ماغادها كله غير صالح لنار القرابين ، ولم تقدم قرابين هندية هناك لهذا السبب ، ولم يكن هذا الأقليم مكانا صالحا لأن يعيش فيه برهمى نبيل المولد خالصه . ولقد شجع عدم وجود البراهمة حرية فكرية أعظم ، وخلق جوا صالحا لظهور الآراء الدينية الجديدة ، التى انتقدت العقيدة المعترف بها إلى حد ما Nalinaksha Dutt, Early, Monastic Buddhism, i, Calcutta 1941, 140) . ولم تحاول إحد هاتين الديانتين أن تقلب نظام الطبقات الهندوكى السائد ، بل لقد استمر أتباع لجين فى استخدام البراهمة فى وظائف القسس ، ولكن العلمانيين فى كلتا الديانتين كانوا أرفع مكانا ، وفقدت الإنقسامات الطائفية كثيرا من أهميتها .

ولقد حكمت ما غادها فى القرن الرابع على ما يقال بواسطة ملوك أسرة ناندا ، ولو أن هذه الأسرة ذات السبعة ملوك تعتبر غالبا أسطورية ، ويبدأ التاريخ السياسى للهند بظهور أسرة موريا (Maurya) حوالى عام ٣٢٣ ق م ، بعد غزوة الاسكندر بثلاث سنين أو أربع ، ولكنه ربما كان من التسرع أن نتجاهل تماما أساطير الملوك الأولين . ويقال إن آخر

ملك من أسرة ناندا كان من طبقة دنيا . وملحدا فى الدين ، وعدوا للطبقتين العليين ، وهما البراهمة Brahmans ، والكشاترة (Kshatriyas)، أو المحاربون ، ولكنه كان غنيا وقويا ، وليس هناك ما يدل على أنه كان بوذيا أو جينيا .

وفى حوالى ٣٢٣ — ٣٢٢ ق م . فى الارتباك الذى نتج عن غزوة الاسكندر ، ثار شاندرا غبطا ، من أسرة موريا ، وخلع ملوك ناندا ، وأسس دولة مستقلة . ولقد كان رجلا ذا مقدرة حربية ، وهزم سيليوقوس نيكاتور عام ٣٠٥ — ٣٠٤ ق م ، حين حاول أن يفرض سيطرته على الأقاليم الشرقية من بلاد الفرس ، بعد أن استعاد بابل عام ٣١٢ . وبعد هزيمته وقع معاهدة مع شاندرا غبطا معترفا به ملكا على ما غادها ، وفى عام ٣٠١ بعث بسفير إغريقى ، اسمه ميغاسثينيس إلى بلاط ما غادها . وقد كتب ميغاسثينيس كتابا يصف به الهند والعادات الهندية ، ولا نعرف هذا الكتاب إلا بما اقتبسه منه كليمنت الاسكندرى ، واسترابو .

ولقد كان بندوراسا الملك التالى من ملوك ماغادها (٢٩٧ — ٢٧٢ق م) هو الذى حل ديماخوس فى بلاطه محل ميغاسثينيس ، وكانت ثمة مكاتبات بين ديما خوس وأنطيوكوس سوتر . وقد اعتبر الهندوس كلا هذين الملكين من أسرة موريا طريفين ؛ غير تليدين ، ومدنسين غير طاهرين ، لأنهما لم يكونا من طبقة الكهنة ، ولا من طبقة المحاربين .

أما الملك الثالث من هذه الأسرة ، واسم أسوكا (Asoka) ، فقد

تحول إلى البوذية وهى ديانة لاتعطى أهمية للنظام الطائفى ، فأعطى هذه الديانة تعضيدا حماسيا . ولقد دعا مجلس بوذيا عاما ثالثا للانعقاد فى أسوكاراما (Asokarama) فى باتالى بوترا ، وتلك قرية زارها بوذا فى سالف الأيام ، وقد نوقشت فى هذا المجلس ثمانى عشرة نقطة خلاف طائفية وتصولح عليها ، ثم شىء آخر أعظم خطرا ، هو قرار المجلس أن تتوخى البوذية مشروعا تبشيريا ، وتعطى قانون التقوى (Law of Piety) لكل الأمم فى العالم .

وقد أرسلت البعثات التبشيرية تنفيذا لهذا القرار إلى الجنوب ، وإلى الغرب ، ولكنها لم تذهب إلى الشرق ؛ ولا تشير المراجع السنسكريتية إلى هذا المجلس ، على حين يوصف المجلس الثالث المذكور فى المراجع السنسكريتية بأنه عقد فى كشمير فى حكم كانيشكا ؛ وهذا المجلس مهمل فى سجلات پالى (Pali) التى تصف مجلس أسوكا . وقد تحولت جزيرة سيلان إلى البوذية بواسطة هذه المجهودات التبشيرية ، ولكنها بوذية من النوع البدائى المعروف بهنيانا (Hinyana) ، ولا تزال ثمة بعض السجلات عن هذه البعثة وعملها : وتشير التواريخ السيلانية إلى بعثات تبشيرية فى الغرب ، فتذكر أن شخصا اسمه ماهاراكشيترا (Maharakshitra) قاد بعثة تبشيرية إلى يافانا (Yavana) أرض اليونان (Jonians)أو الإغريق ، ولا تشير إلى تفاصيل عمل البعثة .

وقد امتدت امبراطورية السيليوقيين فى ذلك الوقت إلى الهند وكوش ، واعتبر كل الآقاليم إلى هذه الحدود إغريقيا . ولم يخرج البارثيون من نير

السيليوقيين إلا فى آخر أيام أسوكا ، وفى عهد أكثر تأخرا ، خرجت بلخ من السيطر ، الإغريقية ، واستقلت على مراجل . وربما كان معنى التعبير بأن البعثات ذهبت إلى الإغريق أن هذه البعثات ذهبت أهل بلخ وصغديانا ، الذين كانوا تحت الحكم الإغريق ، والذين أصبحوا فيما بعد من المراكز الرئيسية للديانة البوذية .

٢ — هل انتشرت البوذية الي الغرب

حاول أسوكا أن ينشر البوذية بسلسلة من الأوامر المكتوبة ، بدأ بها « قانون التقوى » « Law of Piety » وقد اتبع فى نشر هذه الأوامر سابقة الخخمانيين ملوك الفرس ، الذين حفروا أوامرهم على صخور باهستان ، وفى أماكن أخرى . ونعلم أن حوالى أربعة وثلاثين من اوامر أسوكا قد بقيت منها أربعة عشر على وجه الصخرة ، وسبعة على أعمدة ، وأوامر أخرى فى أماكن أقل ظهورا . وتنتشر هذه الأوامر من أفغانستان إلى ميسور .

وقد كتبت هذه إما باللغة البراقريطية Prakrit langage أو بعامية الأقليم الذى توجد فيه ، وكتب أحدها بثلاث لهجات عامية ، إحداها لهجة ما غادها ، ومع أن البراقريطية تطور متأخرة للسنسكريتية ، فهذه أقدم الوثائق الهندية ، لأن النصوص الدينية السنسكريتية رويت شفويا ولم تكتب إلا بعد أسوكا بزمن طويل . وقد كتبت الأوامر بالكتابة الكاروشتية (Karoshti) ، وهى تعديل للكتابة الآرامية القديمة ، التى جاء بها الفرس إلى البنجاب ، فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .

وإن استخدام هذه الطريقة لإعطاء التعليمات للناس ليدل على وجود هؤلاء الذين استطاعوا أن يقرءوا ما كتب ، ويوحى هذا بأن الفيهارات (Viharas)، أو الأديرة البوذية ، كانت توجد بقرب الأمكنة التى وجدت بها الكتابات ، حتى يستطيع الرهبان أن يقرءوها ، ويشرحوا تعاليمها . ولا يكاد المرء يفرض أن ثقافة أدبية قد انتشرت حتى فى شكل بدائى بين قبائل آسيا الوسطى .

وفى مرسوم بهابرا (Bhabra) نستطيع أن نقرأ فى خطاب إلى السلك الرهبانى عموما أن « غزو قانون التقوى الذى كسبه صاحب الجلالة المقدسة فى أقاليمه ، وفى الممالك المجاورة جميعها ، إلى مسافة ستة آلاف فرسخ ، حيث يقطن الملك الإغريقى المسمى أنطيا كا (Antiochus II) ، وفى شمال أنطيا كا هذا ، حيث يقطن أربعة ملوك مختلفون ، يسمون توراماى « بطليموس » (Ptolemy) وأنتيغونوس (Gonatus) ، وماغا (Magas of Cyrene) ، والاسكندر (of Epirus) . وفى الجنوب ممالك الخولا (Cholas) ، والبانديا (Pandyas) ، مع سيلان أيضاً . وهنا أيضاً فى أقاليم الملك بين اليونانيين (Yonas) أو الإغريق ، والكامبوديا (Kambojas) ، والبتنكا (Ptencas) ، وبين الأندهرا (Andhras) والبولندا (pulindas) وفى كل مكان تتبع الناس تعاليم جلالته المقدسة فى قانون التقوى » . وظاهر هذا يدل على مشروع تبشير فى العالم الإغريقى كله ، ولا يعنى هذا بالضرورة أن الأمراء قد تحولوا إلى البوذية ، ولكن يدل على أنهم استقبلوا بعثات أسوكا باكرام (Senart in J.A. [1885] 290 Sqq.)

ولقد مات ماغاس القوريناى (of Cyrene) ، والاسكندر

الابيروسى (of Epyrus) ، حوالى عام ٢٥٨ ق م ؛ وربما لم يكونا بين الأحياء حين صدر هذا المرسوم .

وقد خلف أسوكا إلى جانب ذلك معابد فى كهوف ، ونحت على صخور وثمة أيضاً نقود قديمة ، وإشارات تدل على موضوعات مقدسة فى الديانة البوذية ، كالفيل الذى رأته أم بوذا فى المنام قبل ولادته ، والشجرة التى استنار تحتها ، والعجلة التى تشير إلى تعاليمه ، وكومة التراب على المدفن ، وهى تدل على المكان الذى مات فيه . [ومن المشكل معرفة المدى الذى انتشرت البوذية إليه فى العالم الإغريقى ؛ وثمة شاهد من شواهد القبور البوذية فى الاسكندرية ، ومبنى أثرى بوذى الرموز قطعاً فى أكسوم، وهما يعتبران أثرين رئيسيين من آثار البوذية .] ولكن هذين المكانين كانا من الموانى التجارية الوثيقة الصلة بالتجارة الهنديه ، ويبدو أنه من المحتمل احتمالا كافياً أن تاجراً أو رحالة هنديا قد مات فى أى المكانين . ويصف تاريخ سيلان أسوكا بأنه حول عدداً عظيما من اليونان Yonas أو الإغريق إلى البوذية وأنه أرسل يونانياً اسمه ذماراكيتا (Dhammarakkita) مبشرا إلى أپارانتا (Aparanta) ، على ساحل الغوجيرات (Gujerat) ؛ ولا شك أن « Yona » هنا تدل على آسيوى من رعايا الحكم الإغريقى .

ويقول پوراناس (puranas) إن أسرة « موريا » فى مملكة « ماغادها » انتهت فى عام ١٨٤ ، حينما قتل آخر ملك منها بيد متعصب برهمى اسمه سونغا پوشيا مترا (Sunga Pushamitra) ؛ وقد استولى هذا على العرش وبدأ فى اضطهاد البوذيين . وكان من نتيجة ذلك أن فضل البوذيون الغزاة

الإغريق كلما أرسل السيلوقيون قوات لاستعادة الإقليم التى كانت لهم يوما ما فى الهند .

وتشتمل التواريخ البوذية السـيلانية المعروفة باسم ماهاڤامسا (Mahavamsa) ، والتى ربما ترجع إلى القرن الرابع الميلادى ، على نسخ لبعض الروايات الهندية القديمة ، وتتكلم عن ثيرو (thero) أو رئيس دير يونانى Yavana)، جمع حوله ثلاثين ألف زاهد فى ضواحى الاسكندرية (Alasanda)، عاصمة بلاد اليونان(Mahavamsa, trs-Turnour, P.171) ولو أنه من غير المعقول أن نفترض هنا أن الاساندا تدل على الاسكندرية المصرية ، وأن ثلاثين ألف راهب بوذى كانوا هناك . وتصور الماهاڤامسا اجتماع الزهاد هذا بأنه تم عند تأسيس المزار الأكبر (Maha thupo) ، فى روسا ويلى (Rusawelle)، على يد الملك دوتا غامينى(Duttagamini) عام ١٥٧ ق م . وتأتى ببعض التفصيلات ذات الطابع الخرافى ، عن بعض الأحجار التى تحولت إلى أماكنها بنفسها ، والعمل الذى قام به الجن (dewos) ، وهذا ما لا يمكن اعتباره تاريخياً . ولقد كان هذا الراهب الأكبر هو « ذماراكيتو » ، الذى وصف بأنه بوذى إغريقى ، أرسل ليبشر فى الغوچيرات . وثمة اسكندريات متعددة ، بعضها فى بلخ ، وصغديانا ، وغندارا ، وكل هذه أراض بقيت تحت الحكم الإغريقى حتى حوالى عام ١٣٠ ق م ، وهكذا يسميها الكتاب الهنود بالطبع يونان (Yavana) أو « أرض الإغريق » . أما الاسكندرية المقصودة فى الماهاڤامسا فربما كانت الاسكندرية أسفل القوقاز ، ملكة الجبال ، التى يرد ذكرها فى قصة الاسكندر . لقد كانت فى « أوپيان » (Opiane) ؛ وأسسها الاسكندر

في زحفه إلى الشمال ؛ على الطريق من سجستان إلى كابل ؛ حين قرب من هندوكوش (inradicibus montis) (Curtius, vii, 3, 23)؛ ويبدى تارن (Tarn) سبباً قوياً للاعتقاد في أن الاسكندرية وكابيسا كونتا معا مدينة مزدوجة ؛ ولم يكن مثل ذلك نادراً في آسيا ؛ وكان النصف الإغريقي وهو الاسكندرية نفسها على الشاطىء الغربي من نهر «پانج شير — غوربانده» (panjshir — Ghurband) ، ولا يعلم موقعها الآن ، لأن المنطقة المجاورة لم تستكشف حتى الآن . وهذه منطقة انتشرت فيها البوذية في عهد أسوكا، وبقيت مدة طويلة بوذية في الأعم الأغلب ؛ وثمة كشوف أثرية بوذية عظيمة في « باميان » بالقرب من هناك .

والحجة الرئيسية ضد النشاط البوذى في العالم الإغريقي هى المعلومات الناقصة التى تعرض حول كل شيء يمكن الاعتراف ببوذيته في ما لا يزال موجودا من كتابات الكتاب الإغريق والرومان ، إلا أقلية زارت الهند مثل ميغاسثينيس ، أو تقابلت مع شعراء الهند الذين جاءوا إلى الأراضى الغربية . وكان ميغاستينيس سفيرا سيليوقيا ، في بلاط ماغادها ، من عام ٣٠١ إلى ٢٩٧ ق م ، ولكن كتابه عن الهند لا يعرف إلا من الاقتباسات التى أخذها عنه سترابو ، وكليمنت الاسكندرى . يذكر سترابو قساوسة الهند المعروفين باسم Σαρμάνας التى تشير إلى الكلمة البوذية Sramanas (Strabo, xv,I, 59) ، ويشير كليمنت الاسكندرى إلى Σαρμαναῖοι Βάκτρων وهم بلاشك قساوسة بوذيون ، أو زهاد من بلخ ، كما يشير إلى طبقتين من الصوفيين العراة (Gymnesophists) ، معروفتين باسمى Σαρμᾶναι ، و Βραχμᾶναι (Clemens Alexandrinus, Stromat., 1, 15) . وهو في هذا يقتبس من ميغاستينيس ، ولا شك أن

الاصطلاح الثانى يشير إلى البراهمة ، على حين يبدو الثانى كأنه يدل على الـكلمة البوذية (Sramanas) . ويقتبس من مرجع غير معروف ، فيقول « ثمة بعض الهنود الذين لـكونهم وثقوا بآراء بوذا (Βοῦττα) لقدسيته التى لا تبارى، اعتبروه إليها (εἰς for ὡς) (ibid) . ولـكنه يهمل تعريف هؤلاء الذين يعبدون بوذا بأنهم هم Σαρμαναῖοι أو Σαρμαναι الوارد ذكرهم . ويتكلم فى مكان آخر عن بعض الزهاد الهنود المعروفين بأنهم « رجال مقدسون » ، أو أولياء (Σεμνοί) ، وهم لا يمكن أن يوضعوا فى طبقة واحدة مع الصوفيين العراة ، ولهم مبان مقدسة فى شكل الأهرام (ibid 3, 7) ، ولا شك أن هؤلاء كانوا بوذيين . ومقـالة ميغاستينيس إن هناك بعض الهنود الذين يرفعون بوذا إلى مرتبة الألوهية مقالة هامة ، لأنها تبدى أنه فى أيامه كانت البوذية تمر بمرحله تطور من حالتها البدائية التى كان بوذا فيها معلما دينيا بسيطا ، إلى الحالة الأخرى التى أله فيها . وينسب تأليه بوذا فى العادة إلى انتشار مبدأ البراكتى (brakti)، أو التـكريس الشخصى للرب ، وهو مبدأ من مبادىء ديانة البراڤاغاتا Bravagata ، التى توغلت فى البوذية حوالى عام ١٠٠ ق م ، وأدت إلى تمثيل بوذا فى شكل إنسانى ؛ وكانت الصور الأولى متأثرة تأثراً قوياً بالفن الإغريقى ، وعلى الأخص فى تفاصيل الملابس .

ولقد جاء الـكاتب السورى « بردیزان » بمقالة عن البوذية ، وقد جاء بمعلوماته من السفراء الهنود الذين مروا بسوريا فى طريقهم إلى الاغابالوس Elagabalus أو أى امبراطور أنطونى آخر . وهو لا يشير إلى البوذيين بالاسم ، ولـكنه يتكلم عن(Σαρμαναῖοι) ، ويقتبس منه فرفوريوس (De abstin,, iv,17) ، وستوبايوس (Ecclas., iii, 56,141) .

وفى السفارة التى بعث بها ملك پانديا Pandya إلى أغسطس فى وقت ما حوالى عام ١٣ الميلادى ، كارثة متعصب هندى أحرق نفسه حيـا فى أثينا ، وهو حادث أوجد اضطرابا كثيرا . وقد وصف هـذا الحادث نيقولا الدمشقى Nicolaus of Damascus الذى قابل السفارة فى أنطاكية واقتبس سترابو من مقالته (xvi, 1, 73, 270) كما اقتبس منها ديوكاسيوس (Dio Cassius) (Liv, 9) . وقبر هذا المتعصب كان لايزال موجودا فى أيام بلوتارخ ، وكان مكتوبا عليه : ZAPMANOXHΓAΣ.

INΔOE. AΠO. BAPΓOΣHΣ

وربما دلت الكلمة الأولى على Sarmanokarja ، أى معلم الزهاد ، وهو لقب يدل على أحد رجال الدين البوذيين من الطبقة العليا . وربما كان معنى BAPΓOΣHΣ باريغازا على الشاطىء الهندى .

هذه المعلومات الضئيلة المبعثرة تمثل ما يمكن تعلمه من السفارات الهندية القادمة إلى الامبراطورية الرومانية ، أو من تقارير الرحالة . وهى لا تشير إلى أى شىء قد اكتسب من الدعاية البوذية فى العالم الإغريقى الرومانى ، وهذا ، بالإضافة إلى صمت تواريخ سيلان ، يبدو نهائيا .

أما الاعتقاد فى أنه لا بد أن يكون بعض البعثات النشطة البوذية قد وجد حتى فى مصر ، فتنبنى على افتراض أن الحيـاة الزهدية المسيحية التى وجدت فى مصر لا بد أنها كانت ذات أصل بوذى ، ولـكن لا دليل على هذا الفرض . والمدارس الفلسفية المتأخرة فى الإسكندرية تغرم بالإشارة إلى الزهاد الهنود ، ولـكنها لا تظهر أية معرفة بهم ، ويبقى إمكان أن تكون تعاليم الطوائف الغنوصية ، التى وجدت فى العراق ، قد وقعت

تحت النفوذ البوذى ، وهـــذا محتمل ، ولـكن مرة أخرى ليس هناك دليل قاطع على هذا .

٣ — بلخ البوذية :

استطاع الرومان حوالى عام ٤٥ م أن يحصلوا على معلومات أكثر عن ظاهرة الرياح الموسمية ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح الاتصال أسرع بين العالم الغربى وشواطىء الهند ، وعلى الأخص مع الشمال الغربى للهنـد ، حيث كانت دولة كوشان المنظمة المزدهرة . وقد جعل هذا الوضع موانىء كوشان أسواقا للتجارة مع الأمبراطورية الرومانية ، ومرت ثروة عظيمة عظيمة من هذه الموانىء إلى العالم الهندى ، واستفادت الهند ثقافيا كذلك من هذا الاختلاط بالغرب ، كما يبـــدو من آثار الأفـكار الإغريقية فى الفلسفة الهندية . وإن قوانين القياس فى المنطق ، كما يأتى بهما « كراكى ساميتا » (Carake - Samhita) حوالى ٧٨ م ، وأكسوپادا (Aksopada) حوالى ١٥٠ م ، قد اشتقت جميعها من أرسطو (cf. M. M. Satis Chandra Vidyabhusanain JRAS [1918] 469

وقد كانت كوشان دولة غنية مزدهرة حين ارتقى كانيشكا ثالث ملوكها العرش عام ١٢٣ من الميلاد . وكان محاربا عظيما ، فغزا كشمير ، وجعل عاصمته فى پوروشاپورا (Purushapura) ، أو بشاور . وقد كان ممن تحولوا إلى الديانة البوذية ، وانتهز كل فرصة لنشر تعاليمها فى مملـكته التى اشتملت على جزء عظيم من الشمال الغربى للهند . وقد عرفت بلخ (Bactria) تحت الحـكم الـكوشانى باسم « راچاغريها » الصغرى

(The Little Rajagriha) ولم يفقها فى القدسية إلا المنطقة التى عاش فيها بوذا ، وبلغ تعاليمه . ولم يعش بوذا فى بلخ أبدا ، ولكن فى هذه البلاد عددا عظيما من المزارات (Topes) ، تشتمل على أجـــزاء من جسمه أو ملابسه . وقد أسس الملك أسوكا معظم هذه المزارات ، وهى تبدى فى فى تصميمها آثار الفن الإغريقى . وقد كان فى بلاط كانيشكا عدد من فنانى الحفر الذى تلقوا تدريبهم فى بلاد غاندهارا على الحدود ، حيث سيطرت الأطرزة الأغريقية على الفن المحلى . وهـــذا الفن الإغريقى فى غاندهارا انتشر إلى التركستان الصينية ، ثم إلى الصين ، وفى النهاية إلى اليابان ، آخذا معه شكلا من أشكال الحفر والزخرفة يبـــدو فيه أصله الإغريقى

cf. A. Foucher, Beginning of Buddhist Art trans. F. W. Thonasa, 1917

ويقال إن كانيشكا فى حماسته للبوذية استحضر القديس البوذى أسفاغوزا (Asvaghosa) إلى عاصمته ، وقد كان هذا الولى قد تحول من الهندوكية إلى طائفة سارفاستيفادا ، أو بالأخرى مدرسة سارفاستيفادا (Sarvastivada) ، التى كانت تعاليمها مبنية بصفة رئيسية على استدامة الفضل بالأيمان . وقد عقد البوذيون فى عهد كانيشكا مؤتمرا عاما آخر ، كان من نتيجته تأليف أو مراجعة الشروح المعترف بها على الكتب المقدسة الثلاث (Pitakas) . وقد جاءت عقيدة المهايانا Mahayana من طائفة السارفاستيفادا ، وحلت هذه العقيدة بالتدريج محل العقيدة البوذية القديمة المسماة هينيانا Hinyana ، فمرت البوذية كالديانات الأخرى بمراحل من التطور . والهدف البوذى هو السلوك إلى الخلاص من عالم الأوهام هذا . وقد كان المركب المؤدى (yana) إلى ذلك فى التعاليم القديمة هو الزهد ،

الذي عن طريقه يستطيع الانسان بصعوبة أن يقرب إلى بوذا، وسمى المصلحون ذلك Hinyana ، أو المركب الأقل ، لأنهم كان من تعليمهم أن الانسان يستطيع بالايمان أن يدخل فى اتحاد مع بوذا ، وقد سموا هذا Mahayana أو المركب الأعظم .

ومع أن بعث الديانة الهندوكية أدى بالتدريج إلى اختفاء الديانة البوذية من الهند ، بقيت هذه الديانة زمنا طويلا . وسيلة من وسائل تقوية الاتصال العالمى ، لأنها لم تتقيد بقيود الطائفية التى فى البرهمية . ولقد أصبحت بلخ بوذية فى حكم حكامها الكوشانيين وزارها الحجاج الأجانب وعلى الأخص من الصين وسيلان . وفى حوالى ٤٠٥ — ٤١٠ م سافر البوذى الصينى فا ـ هيين (Fa Hien) إلى شمال الهند ، باحثا عن نصوص صحيحة فى الكتب الرهبانية البوذية ، وترك لنا تعليقا على أسفاره . ويقول إنه كان بين السند وجمنا سلسلة من الأديرة البوذية ، وآلاف من الرهبان ، وكان ذلك فى عهد شاندراغبطا الثانى ، من ملوك أسرة غبطا ؛ ويقول فا ـ هيين : إن جميع أهل خوتان Khutan كانوا من البوذيين ، من مدرسة المهايانا فى الغالب . وكان فى باتالى پوترا ديران : أحدهما من مدرسة الهنيانا ، والثانى من المهايانا .

وكان ثمة اتصال مطرد نوعا ما بين الصين وشمال الهند وبلخ ، بعد فا ـ هيين . وزاد حجاج الصين أراضى غنية ببقايا بوذا ، ولكن هذا لم يدم حتى توغل المسلمين فى بلاد الفرس . لأنه يبدو أن بعثا للديانة المزدكية قد حدث قبل هذا فى فارس . وانتقلت أديرة البوذيين فى بلخ . أو بعضها على الأقل . من البوذيين إلى أتباع زرادشت .

وبعد القرن السادس الذى حملت فيه أسرة غبطا تحول مركز الاهتمام إلى ثانيسار (Thanisar شمال دلهى ، حيث أسس راجا إسمه هرشا Harsha (٦٠٦ — ٦٤٦ — ٦٤٧) دولة قوية منظمة ، بعد سلسلة من الحروب استمرت خمسة وثلاثين عاما . وقد كان هذا الملك من تلاميذ البراهمة والرهبان البوذيين ، فكان أولا من أتباع الهنيانا ، ثم بعد ذلك من أتباع المهايانا ؛ فخرج على الناس بنوع انتقائى من البوذية ، دعا له بحماسة عظيمة . وفى هذا الوقت كانت البوذية تفقد سيطرتها فى سهل الغانجيز ، وهو وطنها الأول ، ولكنها كانت لا تزال قوية فى الهند بالرغم من أنها كانت ديانة أقلية . أما عاصمة هرشا فقد كانت كانوج Kanauj . وكان الحجاج الصينيون فى ذلك الوقت لا يزالون يأتون إلى ماغادها وبلخ ، ومن بينهم هيوين تسانغ . الذى بحث عن نسخ صحيحة للنصوص الدينية البوذية وفاخر بأنه أخذ معه إلى الصين ١٥٠ أثرا من آثار بوذا ، من جسمه أو ملابسه . ولقد ترك وصفا لرحلاته ، وللأرض التى قطعها ، وركز همه فى أمور تتصل بالديانة البوذية . ويسمى هذا الكاتب بلخ Po-ho . وقد استقبله حاكمها استقبالا حسنا . وأخبره أن هـــذه الأرض « تسمى راجا غريها الصغرى (the litfle Raiagriha) ، وأن آثارها المقدسة كثيرة للغاية » (St - Julin Hist, de la Vie ,,.64) . وكان فى غرب العاصمة دير نوبهار العظيم (Skr. nava pihara new monastry) ، أو الدير الجديد . أما صاحب رياسة الدير الوراثية فقد كان يلقب (برمك) ومن هؤلاء البرامكة نسلت الأسرة البرمكية ، التى اشتهرت فى حكم العباسيين الأوائل . وفى أيام المسلمين كان من المفروض أن دير نوبهار

كان مزدكيا ، ولكن ابن ألفقيه (edit. De Goeje, 322[1]) يصف معبده العظيم بأنه مخصص للأصنام ، وأنه يزوره حجاج من الهند وكابل والصين .

ولو كان معبداً مزدكيا لما كانت به أصنام ، ولم يزره حجاج من بلاد لم تعرف عبادة النار . وتوضح المقالات التي كتبها الزوار الصينيون صبغته البوذية إلى درجة لا تحتمل الشك . ولا شك أنه تحول إلى معبد من معابد النار خلال البعث المزدكي الذي سبق الفتح الإسلامي . وتعقد الروايات صلة بين خراسان وبين نشأة ديانة زرادشت في عهد الخمانيين ، ومن الممكن أن تكون المزدكية قد مالت إلى اعتبار بلخ وصغديانة مقدستين بالنسبة لهذه الصلة .

وكان أي — تسنغ رحالة صنيا آخر مشهوراً ، حج إلى هناك عام ٦٧١ — ٦٩٥ م ، وكان تلميذاً في دير (Nalada) ، لمدة إحدى عشرة سنة ٦٧٥ — ٦٨٥) . وحين فقدت البوذية سيطرتها على الهند ، اتخذت لنفسها صبغة عالمية ، وأصبحت أكثر خطراً ، لأنها خلقت دوافع الاتصال المستمر بين الشرق الأقصى وآسيا الوسطى ، رابطة الصين بماغادها وبلخ برباط ديني ، ورابطة إياها أخيراً بالعلم الهليني . وحينما تتبعنا الدور

---

(١) و « بلخ بناها ذو القرنين ، وبها النوبهار وهو من بناء البرامكة ، وكانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ ، قبل ملوك الطوائف ، وكان دينهم عبادة الأوثان ، فوصف لهم مكة ، وحال الكعبة بها ، وما كانت قريش والعرب تؤمن به فاتخذوا عليه بيتا يقال له النوبهار ببلخ »

مختصر كتاب البلدان لإبن الفقيه طبعة لايدن ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

الذى لعبته البوذية ، لم تلق أى اهتمام إلى التبت ، مع أنه يقال أن البوذية دخلت هناك على يد الملك سرنغ بان غامبو (Srong-Ban Gampo) مؤسس لهاسا عام ٦٢٩ — ٦٥٠ م ، لأن البوذية التبتية ترجع فى الحقيقة إلى رهبان من ماغادها ، قاموا بعمل تبشيرى فى التبت فى القرن الحادى عشر ، لا فى ذلك الوقت السحيق .

ويجب أن نشير إلى باميان Bamiyan المدينة الرئيسية فى شرق غور (Ghur) جنوبى بلخ حيث كان هناك مركز بوذى هام ، بمناسبة العنصر البوذى الظاهر فى شرق فارس . ويصف ياقـــوت فى القرن الثالث عشر صورتين عظيمتين لبوذا هناك فى حجرة عظيمة منحوتة فى جانب الجبل ، وتعرف هاتان الصورتان باسم بوذا الأحمر Sushk Bud وبوذا الأشهب (Khing Bud) ، وكانا لا يزالان موجودين فى أيامه ، وذكرهما القزوينى أيضاً . أما باميان فقد خربها جانكيز خان .

ويبدو من المؤكد أن البوذية قد شجعت الاتصال بين العالم الإغريقى الرومانى ، وعلى الأخص الاسكندرية ، وبين أجزاء من الهند ؛ تحتويها إمبراطورية غبطا ، وعلى الأخص فى پاتالى پوترا . ويظهر على الحيـــاة العلمية الهندية آثار مميزة من النفوذ الإغريقى .

٤ — ابراهيم بن أدهم :

وثمة إضافة تثير الإنتبـــاه إلى تاريخ النفوذ البوذى على الإسلام ، فى قصة حياة الولى أبى اسحق ابراهيم بن أدهم ، الذى توفى بين عامى ٧٧٦

— ٧٨٣ . وكان هذا الولى زاهدا شهيراً ، من نوع لم يكن منتشراً بين المسلمين الأوائل . وقد مات خلال حملة بحرية ضد القسطنطينية ، ويمكن اعتبار هذا حقيقة تاريخية . ولكن الذى لا يساوى ذلك فى الإقناع ، على ى حال ، هو تفاصيل حياته السابقة . يروى أنه كان أميراً من أمراء بلخ ، إتجه إلى عبادة الله أثناء انشغاله بالصيد ، فهجر بعد ذلك أمور الدنيا ومتاعها ، مستجيباً لداعى ربه . ولكن النظرة الفاحصة إلى سيرته توضح أنها نسخة إسلامية من حياة « غوتاما بوذا » . ويبدو معقولا أن نفرض أن المسلمين وقفوا على هذه السيرة فى مرو ، حيث انتشرت الرواية البوذية ويحتمل أن هذه القصة قد دخلت الدوائر الإسلامية فى أوائل العصر العباسى .

الفصل العاشر

خلافة دمشق

---

١ — فتح سوريا :

يبدو فى الخريطة الطبيعية لغرب آسيا وشمال شرق أفريقيا واديا نهرين هامين ، أما الوادى الأول ، فوادى دجلة والفرات ، وأما الثانى ، فوادى النيل . وبينهما أرض مرتفعة ، يكسرها البحر الأحمر فجأة . وسبب هذه الظروف تغيرات چيولوچية ، لا تهمنا فى الوقت الحاضر ، فنحن نبدأ من نقطة كان الواديان العظيمان فيها موجودين فعلا ، وبينهما أرض قاحلة شاسعة ، وكان هذان الواديان وطنين لحضارتين بدائيتين ، لا تستطيع أن تقرر أيتهما كانت الأسبق . وفى كلتا الحالتين يفيض النهران ، فيرويان الأراضى المحيطة بانتظام كل عام ، وتعتمد الحضارة الزراعية التى نشأت فى كل منهما على التحكم فى تنظيم هذه الفيضانات ، وتصريف المستنقعات ، وتوجيه المياه توجيها يضمن تخصيب الحقول . ومن المفروض بصفة عامة أن ملكية الأرض فى المجتمعات البدائية كانت مشاعة ، ويأخذ كل عضو فى القبيلة نصيبه منها ، ولكنه لا يملك هذا النصيب ، ولا أى قطعة أخرى . وكون ذلك صحيحا فى كل المجتمعات محل نقاش ، وربما كان ذلك هو الحال عند القبائل البدوية . ولكن فى الثقافة الزراعية التى كانت

فى العراق ومصر ، كان انتاج أى حقل يتوقف على العمل الإنسانى فى الرى والصرف، حتى إن الملكية الفردية وجدت فى وقت مبكر ، واستقر السكان ، وظل أهل الفيافى بين النهرين فى حالة البداوة ، لا يعترفون بالملكية الفردية ، ولا يرقون فى تطورهم الاجتماعى من أى وجه من الوجوه إلى مستوى سكان وديان الأنهار . وكانت حياة هؤلاء البدو قاسية محرومة ، وكانت فى عمومها ، ولا تزال ، على حواشى المجاعة . ومما كان ذا إغراء دائم خاص لهؤلاء البدو الغارة على القرى المنتجة ، وحين زاد عددهم حتى لم يستطيعوا أن يعيشوا على مواردهم القليلة ، فاضوا على الوديان . وهكذا فى خلال التاريخ القديم وجدت آشور وبابل ومصر فى جيرانها البدو منغصا لا ينتهى ، وأصبح من الضرورى دائما أنه يستعدوا لحماية الحدود ، والمقصود بالحدود هنا المستوى الذى يصبح من غير العملى عنده بالضبط أن يرفع الماء من الأنهار ، ليروى الأراضى الصالحة للزراعة . وكلما نقصت القوة العسكرية ، فلم تكن كافية لحفظ الحدود ، وحماية الريف المتحضر من العرب الغازين ، جاء العرب ليهجموا على الريف ، ويستقروا فى الأرض الغنية المنتجة ، ويغتصبوا ثمرات المزارع على حساب الآخرين ، ويخضعوا فى العادة ، أو يستعبدوا ، السكان المستقرين الذين لا يحسنون الحرب .

وحدث مثل هذا الغزو والاستقرار قرب نهاية القرن السابع الميلادى حيث كان العرب متحدين فى ظل أخوة دينية مبنية على الدين ، الذى بلغه النبى محمد . ولا يبدو أن محمداً نفسه كان له أى مشروع للغزو الخارجى ، ولكن هذا الغزو حدث ، لأن أهل المنطقة المغزوة كانوا منهوكين ، بسبب الحروب الطويلة ، مشغولين بالانقسامات الداخلية . كارهين للحكم القاسى ، ولو أن بعض هذه القسوة فى الحكم كان نتيجة حتمية لظروف

الحرب . ويبدو أن نجاح حملات الغرب قد أدهشهم وشجعهم على ادامة احتلال البلاد التي فتحوها . ولم يكن لهم أقل رغبة في زراعة الأرض ، أو أن يستقروا في عمل زراعي . فكان من رأيهم أن يخلقوا احتلالا عسكريا ، وأن يعيشوا على ثمرات تعب السكان المحليين . ولقد شجعهم على هذا بلاشك سوابق الحياة العربية المستقرة على الحدود الفارسية والرومانية . فقد كان من المستحيل في كلتا الجبهتين أن تطرد القبائل العربية . وحاولت كلتا الدولتين نفس الحل ، فسمحوا لرجال القبائل أن يستقروا هناك ، ودفعوا لهم إعانات ، على شرط أن يحرسوا الحدود من هجمات العرب الآخرين، الذين حاولوا غزو الحدود الفارسية والرومانية . ولقد كان العرب الذين استقروا واستلموا الإعانة محل حسد البدو الجياع في الصحراء ، وبدت معيشتهم كأنها مثالية . وحين غزا العرب الأقاليم الشرقية من الامبراطورية الرومانية وبلاد الفرس ، أرادوا أن يحيوا حياة مثل هذه ، فيشغلوا أنفسهم بالصيد وما يعرض من حروب ، ويعيشوا على الجزية التي يدفعها إليهم السكان المغلوبون . ولم يكن السكان المغلوبون غير راغبين في التعب ودفع الجزية ، لأنهم سرهم أن يجردوا من السلاح ، وأن يتخلصوا من الخدمة العسكرية . التي كانت أشد واجباتهم إليهم كرها .

وبما هو موضع نقاش ما إذا كان محمد يقصد بدينه أن يكون عالميا ، أو للعرب فحسب . ففي القرآن (٣٤ — ٢٧)[١]: وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن يظهر من موضع الورود أن هذا النص يشير إلى الرسول وهو ينذر الناس النهاية القريبة للعالم ، وأن النص من

---

(١) سورة سبأ آية ٢٨ .

العلامات على أن النهاية قد قربت . وقد شرحه شراح الحديث بهذا المعنى[١] (Bukhari Sahih, 193, 4a, d. 1 : Muslium, Sahih, i, 53 55) ومن الضرورى لجميع العرب أن يعتقدوا فى رسالة محمد ، إذا أرادوا أن يخلصوا أنفسهم من النار (Muslim)[٢] . ولكن من غير المنصوص عليه ضرورة ذلك الاعتقاد لغير العرب ؛ ولو أن المشركين يذهبون إلى النار فى جميع الحالات . أما العالم غير العربى ، فيبدو أن القرآن قد أعد له الغزو ، لا الهداية (Qur., IX, 19—53)[٣] . وتقول إحدى الايات القرآنية : «ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وذكرى للمؤمنين » (Qur., 18, 91)[٤] ؛ ويقول القرآن فى موضع آخر : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون

---

(١) لقد راجعت صحيح مسلم (طبعة المطبعة المصرية بالازهر) ، وشرح العينى على صحيح البخارى ؛ المسمى عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى لبدر الدين العينى ، فلم أجد فيهما تأييداً لما يقول . (المترجم) .

(٢) راجعت جميع أجزاء مسلم (طبعت المطبعة المصرية بالازهر) وعلى الخصوص « باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ص ٢١٧ » فما وجدت مايفيد تخصيص العرب من بين المسلمين بالمطالبة بالإيمان بمحمد . (المترجم) .

(٣) سورة التوبة ٢٠ — ٢٤ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله أولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم . يأيها الذين آموا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين» .

(٤) النحل — الآية ٨٩ .

الرسول عليكم شهيداً » (Qur., 2, 197)[١] ؛ ولكن هذه الآيات لا تنفى بتحديد أمر الرسالة ، ونشر الإسلام فى كل الأمم على وجه الأرض .

وفى السنوات الأخيرة من الرسالة ، بلغ محمد دينه إلى العرب جميعا ، وحاول أن يجمع القبائل فى وحدة ، « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (Qar., 2, 189[٢]) ، « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » (Our. 2, 186[٣]) « واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » (Qur., 2, 187[٤]) ، « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » (Qur., 9, 1—4[٥]) .

ولكن هذه الأوامر كانت استعداداً لإخضاع بلاد العرب وتوحيدها. وخير تفسير لهذه الأوامر هو سلوك محمد نفسه ، لأنه جاهد بمرارة ليضع العرب فى قبضته ، ولو أنه تسامح مع هؤلاء الذين كانوا « أهل كتاب » ، أى مسيحيين ويهوداً . وقد عززت سياسة الخلفاء الأوائل موقفه هذا ،

---

(١) البقرة — الآية ١٤٣ .

(٢) البقرى ، الآية ١٩٣

(٣) البقرى ، الآية ١٩٠

(٤) البقرى ، الآيه ١٩١

(٥) التوبة الآيتان ٤ ، ٥

وهم رجال من أخصائه وتلاميذه ، الذين عرفوا وجهة نظره كما لم يعرفها أحد ؛ وقد أصر هؤلاء بعض الوقت على أن يصبح المهتدون إلى الإسلام موالى لقبيلة عربية . ويجب أن يعطى بعض الوزن للتردد الواضح من أوائل المسلمين فى نشر الدعوة خارج بلاد العرب ، حتى لا يزيد عدد المهتدين من الأعراب على عدد العرب المحليين ، ويتحول بنفوذهم طابع الدين والحياة ، وهى مخاوف بررتها الحوادث فى العصور اللاحقة .

إن السيرة الأسطورية المروية لمحمد ، المنسوبة إلى ابن اسحق ، والمعروفة لنا فى شكل نسخة نقحها ابن هشام ، تقول إن محمداً قد أرسل بكتب إلى ملوك أجانب ، مثل ملك الفرس ، وأمبراطور الروم ، وآخرين ، دعاهم بها إلى الإسلام . ولكن هذه السيرة قد تم تأليفها فى أول شكل من أشكالها بعد محمد بقرن من الزمان ، وتشتمل على كثير مما لا يمكن اعتباره معلومات تاريخية .

وليس هناك من شك فى أن محمداً أراد أن يجمع العرب جميعاً فى أخوة إسلامية ، وكان هؤلاء العرب هم سكان بلاد العرب ، وليست تلك هى بلاد العرب المحدودة حداً صناعياً على الأطلس ، ولكنها تشمل كل المرتفعات الصحراوية فى غرب آسيا ، منتشرة فى شكل لسان فى داخل سوريا ؛ وفى هذه المنطقة الشمالية بين المملكتين العظيمتين فى بلاد الفرس والروم ، قامت مجموعتا قبائل الحدود ، التى أعانتها المملكتان ، واستقرت وتحضرت . وكان محمد حريصا على أن يضم قبائل الحدود هذه فى أخوته ، وكان للعرب على الحدود الفارسية ضغائن ضد الفرس ، فدخلوا فى الاسلام ، ثم طرحوا ولاءهم عند وفاة محمد . وليكسب محمد القبائل التى على الحدود

السورية (الرومانية) ، أرسل رسولا ليدعوهم إلى اعتناقه الإسلام ، ولكن هذا الرسول قتل عند بصرى ، وتلك جريمة ضد التقاليد العربية ، التى تمنح السفراء طابعا قدسيا . ومن ثم أرسل جيش تحت إمرة زيد لينتقم لهذا ، ولكن قبائل الحدود ، لكونها فى خدمة الرومان ، حصلت على عسكر رومى هزمت به العرب . ولم يمكن أن يحدث شىء بعد ذلك لمدة طويلة ، لأن العرب كانوا مشغولين فى مكان آخر ، ولكن فى عام ٦٣٢ جهز جيش ، وتمت الاستعدادات لغزو سوريا ، ولكن محمدا لحق بالرفيق الأعلى حين كانت الحملة على استعداد للرحيل .

ثم نصب أبو بكر خليفة ، وأمر الجيش بالمسير ، فعاد بعد أربعين يوما ، محملا بالغنائم ، ولهذا لم يكن هناك صعوبات فى إرسال قوات أخرى . وفى عام ٦٣٤ غزت هذه القوات سوريا ، حيث واجهتها مقاومة طفيفة من العسكر المحليين ، سيئى التدريب ؛ ولم يفكر إنسان حتى ذلك الحين أن العرب كانوا يخاطرون بأكثر من هجوم من النوع المعتاد ، ولم يبد أن العرب أنفسهم قدروا أنهم شرعوا فى أكثر من هذا .

ومن المؤكد أن هؤلاء العرب لم يكونوا متعصبين ؛ يحاولون أن يفرضوا دينهم على المغلوبين ؛ فقد فضلوا أن يبقوهم كادحين كما كانوا ، وأن يعيشوا هم أنفسهم على إنتاج تعبهم . وهكذا كان النظام الذى وضعه دستور عمر ، وهو نتاج مشكوك فيه ، وضع فى تاريخ لاحق ؛ ولكنه يدل فى عمومه على اتجاه السياسة العربية الأولى . إن الصورة التى تعطى أحيانا لجمع من العرب المتعصبين ، المندفعين بالسيف فى يد ، والمصحف فى أخرى ، مرغمين الناس على أن ينقلبوا إلى الإسلام ، أو يقتلوا ، هى صورة بعيدة

عن الحقيقة ، فالعربى الساخر غير ميال إلى أن يكون متعصبا . وقد وجد الكثير من المسلمين المتعصبين ؛ ولكنهم لم يكونوا عربا ؛ بل وافدين على الإسلام فى عصر متأخر . لم يفرض العرب دينهم على الشعوب المغلوبة ، بل تركوها إلى دينها الأصلى ، وقوانينها ، وعاداتها ، ولغاتها ؛ وأريد لها أن تكون دافعة جزية ؛ وكان المثل العربى الأعلى أن يعيش العربى فى رفاهية على إنتاج كد هؤلاء .

وفى سوريا ، التى كانت على جانب من الأهمية ، لأن الخليفة وبلاطه وحكومته استقروا فى دمشق عام ٦٦١ ؛ وبقوا فيها أكثر من ثمانين عاما ، وجد العرب أنفسهم حكاما لمنطقة كانت ولاية رومانية ، خاضعة لقانون رومانى كامل التطور ، وإدارة منظمه جداً . وقد أبقوا كل هذا كما كان ، وكل موظف رومانى أراد أن يبقى تحت الحكم الرومانى منح جميع التسهيلات ، فتحول إلى مكان باق تحت حكم الرومان ، وقد فعل الكثيرون ذلك ، ولكن كثيرين آخرين قنعوا بالعيش فى ظل الحكم العربى ، ومن هؤلاء عدد أرتقى إلى المناصب العليا والهيبة فى الدولة الإسلامية . وقد ظلت الكتابة فى السنوات العشرين الأول أو ما يزيد عنهـــا باللغة الإغريقية ، وكان الموظفون المدنيون جميعا من المسيحيين على وجه التقريب . وكان ثمة عدد من القبائل العربية التى استقرت على طول الحدود ، وقد تقبل هؤلاء إعانة من الحكومة البيزنطية ، باعتبارهم حماة الحدود ، وكان هؤلاء من المسيحيين . ولكون هؤلاء وقد استقروا من قديم ، وأثروا ، اعتبروا أنفسهم من الناحية الاجتماعية أرقى من الفاتحين المسلمين ،

البدو الصحراويين ، الفقراء الجياع ، ولم يترددوا فى فرض أنفسهم ، وقد اعترف لهم المسلمون العرب بالمستوى الارستقراطى . وقد تزوج بعض أفراد الأسرة المالكة نساء من هذه القبائل المسيحية ، وسخط المسلمون على هذا التصرف . وفى عهد الخليفة عبد الملك (٦٨٥ — ٧٠٥) ، كانت ثمة غيرة عظيمة ، لأن المسيحيين احتكروا جميع الوظائف الإدارية المدنية ، وحاول الخليفة أن يستخدم العرب فى أمكنتهم . ولكن التغيير لم يكن ناجحا ، لأن العرب لم يفهموا تفاصيل العمل ، فأعيد الموظفون المسيحيون إلى أماكنهم ؛ ومن السهل أن نفهم هذا ، لأن العادة الشرقية كانت ألا يرتب الحساب بالطريقة التى تسمح لمن يريد مراجعته من الخارج أن يفهمه ويفتش عليه ، بل أن يوضع بطريقة لا تجعل أى إنسان إلا الموظف القديم قادراً على فهمه ؛ لقد كان ذلك عن عمد ، حتى يستطيع الموظفون القدماء أن يحتفظوا بالعمل فى أيديهم ، وأن يحتكروه . وأكثر ما استطاع عبد الملك أن يفعله هو أن يحول الكتابة من الإغريقية إلى العربية ، وأن يكتب بالعربية على النقود . لقد قام الأسقف أركولف من بلاد الغال برحلة إلى الأرضى المقدسة عام ٧٠٠ ، وهو يتكلم بتقدير عظيم عن الطريقة المضيافة التى تلقاه بها الحكام المسلمون ، وعن الحرية التى سمح له بها فى السفر من مكان إلى آخر ، وإلى الموقف الحى العام من العرب وحكامهم . وقد بقيت سوريا ومصر تحت حكم العرب المسلمين أرضا مسيحية على وجه التقريب ، حتى أيام الحروب الصليبية ، وانحصر حكم العرب بصفة رئيسية فى جباية الضرائب ، وقد أحسنوا هذا أيما إحسان .

وفى أوائل عهد الخلافة الأموية فى دمشق ، كان هناك ميل بدعى إلى العيب على العادات والمسالك الإسلامية ، ويتضح هذا تماما من شعر أبى مالك غياث بن الصلت بن طريقة الأخطل ، الذى ولد فى الحيره حوالى عام ٦٤٠ ، ومات حوالى ٧١٠ . وكان ينتمى إلى تغلب من جشم بن بكر ، وعاش ومات مسيحيا يعقوبيا ، وتشير قصائده إلى القديس سرجيس (Sergius) ، والصليب المقدس ، والرهبان ، ويقسم بأيمان مسيحية ، ولو أنه لا يشير إلى المسيحية إشارة مباشرة إلا نادرا جدا فى ديوانه . وهو يرفض أن يتحول عن دينه (Diwan, p. 154 [1]) ، ويهجوا هؤلاء الذين يصفهم بأنهم أصبحوا مسلمين تحت ضغط الجوع ، أكثر مما كانوا بسبب العقيدة (Ibid., 315) . وهو يمدح يزيد بن الخليفة معاوية ، وأخاه عبد الله ، وآخرين من الأسرة الملكية . وقد اعتبره عبد الملك رسميا شاعر البلاط (poet laureate) ، فمدحه ، ومدح أقاربه ، وهجا أعداءهم ، فكان حقيقة رجل بلاط . وتبدو فى سفره شواهد على بقايا مسالك عربية وثنية قديمة ، فى أيام الأمويين ، وأمثلة تلفت النظر للاتجاه التسامحى لهذه الأسرة . ويحوى الكثير من قصائده تهكمات قارصة بالإسلام ، وقد حالت هذه القصائد بين كثيرين من المسلمين وبين الاستمتاع بمزايا شاعرية الأخطل ؛ ولكنه كان مع جرير فى أيامهما

---

(١) فى ص ١٥٤ الأبيات الآتية :

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بآكل لحم الاضاحى
ولست بقائم أبداً أنادى كمثل العير حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح

زعيمى الشعر عند العرب . ويعبر بوجه خاص عن احتقاره لهؤلاء الذين يتحولون عن ديانة آبائهم ، سواء أكانوا مسيحيين أم وثنيين ، إلى ديانة الملك الحاكم . وأكثر قصائده إثارة للإعجاب قصيدة مدح (panegyric) للأمويين (Diwan, 98-112[1]) . وبالرغم من موقف الأخطل الساخر من الإسلام ، كان هذا الشاعر تحت حماية عبد الملك ، ولو أنه لم يرض عنه الوليد الأول الذى خلف عبد الملك . وربما كان موته قبل نهاية حكم الوليد ، ولو أن ابن عبدربه يطيل حياته إلى حكم عمر الثانى . وربما رجح أن يؤرخ موته بعام ٧١٠ .

ولقد فشت نغمة تحلل دينى فى البلاط الأموى ، لم يرض عنها المسلمون المتدينون ، فكانت أحد الأسباب للشعور العدائى ضد الأمويين ، الذى

---

(١) فى ص ٩٨ القصيدة التى مطلعها :

خف القطين فراحـــوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

وفى ص ١١٢ القصيدة التى مطلعها :

تغير الرسم من سلمى بأحفار   وأقفرت من سليمى دمنة الدار

وفى هذه القصيدة :

إنى حلفت برب الراقصات وما   أضحى بمكة من حجب وأستار

وبالهـــدى إذا احمرت مـــذارعها   فى يوم نسك وتشريق وتنحار

وما بزمـــزم من شمط محلقـــة   وما بيثرب من عون وأفـــكار

وهذه الأبيات الأخيرة حلف بمناسك إسلامية وقد أثبت فى دراستى للأخطل المطبوعة بعنوان « ترجمة الأخطل » عام ١٩٥٣ أن الأخطل لم يكن يعجب بالدين الاسلامى وأنه فى بداوته كان أخلص للمثل الصحراوية منه للمثل السماوية فقول المؤلف إن الأخطل يقسم بأيمان مسيحية تخصيص لا مبرر له .

نما واشتد حتى انتهى إلى سقوط الأسرة . ووقع العرب فى الخصومات القبلية الجاهلية ، وكان ثمة خصام متأصل الجذور بين الحياة الدنيا التى تحياها دمشق ومكة والمدينة ، وبين الاتجاه المتحفظ لهؤلاء الذين اعتبروا أنفسهم مسلمين أولا ، ثم عربا ثانيا . والاستثناء الوحيد من هذا بين الخلفاء الأمويين هو الوليد الأول (٧٠٥ — ٧١٥) ، الذى كان متدينا بحق ، وقدم الاعتبارات الإسلامية على الاعتبارات السياسية والقومية . وعلى الطرف الآخر يزيد الأول (٦٨٠ — ٦٨٣) ، الذى لا يزال يلعن على ألسنة المتدينين باعتبارة عدو الدين . لقد كان الجيش الذى أرسله يزيد هو الذى حارب فى كربلاء (١٠ اكتوبر ٦٨٠) ، فكان مسئولا عن الموت الفاجع للحسين بن على الابن الذى كان لا يزال حيا لصهر الرسول . وكان الجيش الذى أرسله يزيد هو الذى حاصر مكة المكرمة ، وأحرق الكعبة (عن غير قصد) ، فى نوفمبر عام ٦٨٣ .

٢ — أسرة سرجيوس .

كانت دمشق ، وهى العاصمة الرسمية لسوريا ، مدينة إغريقية جزئيا . ولم تكن ذات صبغة هلينية تامة ، كما كانت أنطاكية . وكانت مقر الأساقفة المسيحيين ، الذين كانوا بعد بطارقة أنطاكية فحسب فى الدرجة ، من وجهة نظر التدرج الإكليرى فى سوريا . وكانت بها مدرسة ذات شهرة فى وقت الفتح العربى ، ولكنها لم تبلغ درجة مدرسة الاسكندرية ولا أنطاكية ، وحفظت هذه المدرسة حسن سمعتها بعد الفتح . ومن بين تلاميذ هذه

المدرسة عالم اللاهوت سوفرونيوس ، الذى أصبح أسقف إيروشليم (٦٣٤ — ٦٣٨) ، وأندراوس الكريتى (Andrew of Crete) (حوالى ٦٥٠ — ٧٢٠) ، الذى حضر العلم بها بعد الفتح العربى ، وأصبح راهبا فى إيروشليم ، وأخيرا أسقف كريت . ويقول مؤرخو العرب : إن سرجيوس (سرجون) كان الوكيل المالى للحكومة الرومانية فى المدينة ، وكان المسئول عن التفاهم مع الغزاة ، ولهذا يسميه يوتيخيوس خائنا . ولكن المواطنين الذين تركتهم الحكومة لم يكن لهم الخيار فى الأمر ومن الممكن أن نفرض أن كل واحد ظن أن الهجوم العربى لم يكن أكثر من غارة على نطاق واسع ، وأنه بعد أن يسلب العرب المدينة سيرجعون مرة أخرى إلى الصحراء . وكان حاكم مدينة كهذه وكيلا ماليا فى العادة ، من واجبه أن يجمع الضرائب الامبراطورية ، وقد حمل على وجه العموم لقبا شرفيا (Patricius) ، وهو لقب كان يعطى من القسطنطينية لكل كبار الموظفين . لقد عينه هرقل ، ولكنه ، ككثير من الموظفين ، ظل فى وظيفته فى حكم معاوية ، حين كان حاكما على الإقليم ، وبقى حين أصبح معاوية خليفة . وأخيرا عمل وزيرا للمالية للدولة الإسلامية كلها ، وصاحب أرزاق الجند العربى . وبقى مع هذا مسيحيا ، وبنى كنيسة مسيحية ، بعد أن أصبح وزيرا للمالية بزمن ، وكان إبنه قيما على الخزانة فى عهد عبد الملك ، كما كان حفيده وزيرا أول لبعض الخلفاء المتأخرين . ولم تكن الوزارة باعتباوها منصبا ولا باعتبارها لقبا قد ظهرت فى ذلك الوقت .

ويقال إن العضو الثانى من هذه الأسرة اشترى عبدآ اسمه قوسماس (Cosmas) ، كان راهبا أسره العرب فى غارة على إيطاليا ، واستعمله مربيا لإبنه يوحنا ، فعندما علمه قوسماس ما عنده ، طلب إذنا بالرجوع إلى الدير ، وعند حصـــوله عليه ، ذهب إلى دير القديس سابا (the Laura of St. Sabas) ، بالقرب من إيروشليم ، وكانت سيرة يوحنا هذا هو يوحنا المقدسى (John of Jerusalem) ، الذى عاش فى القرن العاشر ، بعد الحوادث التى سجلها بزمن طويل . وهو كبقية كتاب سير القديسين فى ذلك الوقت ، يكتب مادته بحرية ، حتى إنها لتعتبر أسطورية فى الوقت الحاضر ، ولـكن الخطوط العريضة لحياة يوحنا يمكن الاعتماد عليها . ويبدو أن يوحنا هذا هو ابن سرجون (سرجيوس) ، وقد عرف فيما بعد باسم القديس يوحنا الدمشقى ، وبالإضافة إلى كونه ابن موظف خطير فى الدولة العربية ، لحق هو نفسه بالبلاط ؛ فعمل مستشاراً أول للخليفة (ربما كان لهشـــام) (٧٢٤ — ٧٤٣) . وبعد أن خدم الخليفة سنوات عدة ، طلب إذنا بالاستقالة ، ولحق بعمله فى دير القديس سابا ، حيث ظل وقتا تحت المران القاسى ، ثم نصب رجل دين قبل عام ٧٣٥ بقليل . ومات قبل عام ٧٤٣ ، وينسب إليه أول مؤلف فى النقاش بين المسيحية والاسلام(Disputatio christiani et Saraceni) وقد طبع فى (Patrologia Graeca XCVI,1363) ، لمجنى (Migne) ويظهر من هـــذا المؤلف أنه كان ثمة حرية عظيمة للنقاش الدينى فى دمشق ، فى القرن الثامن ، وأن المسيحيين قد سمح لهم أن ينقدوا الدين الرسمى بكل حرية . ويقول النص . « حين يقول المسلم ... أجبه ... » ، ويقدم يوحنا الدليل على معرفة قيمة بالقرآن ، وعلم بالعمـــل والنظر الإسلاميين

(ritual and doctrine) ، وقد كان وليم الطرابلسى هو أول من قال إن القديس يوحنا الدمشقى هو ابن سرجون بن منصور .

وكان ثيودور أبو قارا (مات ٨٢٦) تلميذاً للقديس يوحنا ، وترك مؤلفات أيضا عن الخلاف مع الإســلام . ومن الواضح أنه كان ثمة اختلاط غير مقيد بين الدينين ، ولم يحس الناس بتردد فى مناقشة الخلافات الدينية بحرية تامة ، وربما كان من المعقول أن نفترض أن مثل هذا الاختلاط جعل المسلمين الدمشقيين على صلة بالمعلومات العامة عن اللاهوت المسيحى ، والفلسفة ، وبدت الأخطار والمشاكل التى أوحت بها الفلسفة الإغريقية تختمر فى الفكر الإسلامى فى الأجيال التالية .

لقد حدث تسلل شبيه بهذا للفكر الإغريقى فى التشريع ، وهكذا كانت التأملات الأولى لفقهاء المسلمين مليئة بالنظريات المأخوذة من القانون الرومانى ، الذى يشــتمل نفسه على عناصر مأخــوذة من الفلسفة الرواقية ؛ وهكذا انتقلت التعاليم الإغريقية الفلسفية إلى العرب ، خلال وسط قانونى . ولقد كان القانون الرومانى أيام الفتح العربى منتشراً فى الأقاليم الشرقية بالإغريقية ، ولحقه بعض التغيير الطفيف ليلائم الظروف المحلية ، ولكنه اشتمل على القواعد الرواقية التى أخذها المحامون فى روما من أصول إغريقية . ومن أهم النظريات الفلسفية القانونية ، النظرية القائلة إن للإنسان إحساسا داخليا بما هو عدل وحق ، وهذا ما سماه الرواقيون القانون الطبيعى (law of nature) . وقد قال بهذا أوائل الفقهاء المسلمين ، الذين حكموا العقل فى تعضيد النقل ، أو فى رفضه ، حين تكون هناك حالة لم ينص عليها نصا صريحا . ونحب أن نشير هنا على أى

حال إلى أن الدلائل الأولى على الفلسفة الرواقية لا تظهر فى سوريا ، حيث كان العمل بالقانون الرومانى ، ولكن فى العراق ، وعلى الأخص فى البصرة . ومن المؤكد أن أول صلة بين العرب وبين القانون الرومانى كانت فى سوريا ومصر ، فقد فتحوا هذه الأقاليم ، ووجدوا هناك نظاما معقدا للخراج ، وقانون التعاقد ، والتشريعات التجارية التى تتناول أشياء لا يعرفها بدو الصحراء البسطاء . وقد أخذوا هذه القوانين كما هى ، وما كان لهم إلا أن يفعلوا ذلك ، ثم أدخلوها فى الشريعة الإسلامية من بعد . حقيقة إن بعض فروع القانون قد أخذها الشرع اليهودى من قبل ، وربما وصلت هذه الفروع إلى العرب عن طريق اليهود ، وأكثر احتمالا أن كل القوانين التى تتناول الخراج ، والعقـــود ، والرهن (usufruct) ، والميراث ، وأشياء أخرى ، قد جاءت مباشرة من القانون العادى (Customary law) الذى كان سائدا فى سوريا ومصر ، حين غزا العرب هذه البلاد ؛ وقد كان هذا القانون السائد الذى وجدوه هناك هو القانون الرومانى .

وأما فى حالة اللاهوت (علم التوحيد) ، فيمكن أن نشير إلى ما يأتى .

(١) كانت مشكلة قدم القرآن إحدى المشاكل التوحيدية الأولى التى واجهت المسلمين ، وقد قالت النظرية القديمة إنه قديم قدم الله ، ثم بدأت المشكلة القائلة إذا كان ذلك كذلك فإن الله ليس المصدر الوحيد ، والخالق لكل الأشياء ، لأن ذلك يستلزم أن يكون هناك قرآن غير مخلوق ، وبذا يكون إلها آخر ، إلى جانب الواحد الأحد ، وقد حمى وطيس النقاش فى هذه المسألة . رأى المعتزلة أن القرآن من خلق الله ، وأن القرآن يجب أن يكون أقل أزلية من الله ، ما دام المؤلف يسبق الكتاب الذى ألفه . ورأى أهل السنة أن القرآن أزلى مع الله ، ولو أن الكلمات التى عبر بها ،

والورق الذى كتب عليه ، مخلوقات غير أزلية مع الله ، وأخيراً سادت نظرة أهل السنة ، وانقرض المعتزلة وأما هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بهذا الإسم فى الهند ، فهم محدثون من تاريخ قريب ، ولا يربطهم بالمعتزلة القدماء أى رابط . والمهم أن المناقشات بين المعتزلة وأهل السنة هى نفس المناقشات الآرية (Arian Controversy) ، فى الكنيسة المسيحية ، وقد أعيد معظم هذا فى كتابات القديس يوحنا الدمشقى . وفى اللاهوت المسيحى أن الاصطلاح « كلمة » قد استخدم اسماً صوفيا للمسيح . كما استعمله القديس يوحنا فى البشارة الرابعة (fourth gospel) ، على حين استعمل المسلمون نفس الاصطلاح ليدل على الكلمة المكتوبة فى القرآن ، ولكن المناقشات هى نفس المناقشات . ومن الصعب ألا يستنتج المرء أن هذه المشكلة قد أوحى بها اللاهوت المسيحى . سواء أكان ذلك عن طريق تعاليم القديس يوحنا الدمشقى ، أو تعاليم أخرى .

(٢) وثمة مشكلة قديمة أخرى متصلة بحرية الإرادة ، فإذا كان الله قادرا ، فكل شيء محكوم به ، وموجه منه ، ومن ثم ليس للانسان حرية . ولكن الأخلاق الإغريقية ترى أن الإنسان مسئول عند حرية الاختيار فحسب ، ويأتى القرآن بأوامر ونواه بطريقة تدل على أن الانسان مخير . وقد جادل المعتزلة ، فقالوا : إن الله ما دام عادلا ، فلن يحاسب الناس ، إلا عندما يكونون مختارين ، ويختارون الخطيئة . ومن هذه النقطة وما سبقها أطلق المعتزلة على أنفسهم « أهل التوحيد والعدل » . أما التوحيد فلأنهم اعترفوا بخالق واحد ، بمصدر واحد ، ومن ثم قالوا بأن القرآن مخلوق . وأما العدل فلأنهم دافعوا عن حرية الإرادة . باعتبارها ضرورية لاعتبار الانسان مسئولا .

٣ — والمشكلة الثالثة تتصل بصفات الله . فإن الله باعتباره مصدر كل كائن ، يجب أن يكون واحدا لا متعددا ، ومن ثم لم تكن لله كيوف ولا أعراض (accidents) ، وهو نفسه لا يشبه الحوادث (essence) والصفات الوحيدة التي يمكن أن يوصف الله بها سلبية ، ككونه أزليا ؛ أي لا أول له ، وكونه مطلقا ، ليس له حدود ، ولا مكان ، وهكذا . ويبدو أن هذا على أي حال يتنافى مع القرآن ، الذي ينسب إلى الله صفات كيفية معينة . ورأى أهل السنة أن هذه الصفات التي يأتي القرآن بها يجوز أن يوصف بها الله ، لأنها وردت كذلك ، ولكنها لا تدل على نفس المعنى الذي لها عند ما يوصف بها الناس ؛ ولسنا نعلم ما تدل عليه هذه الصفات في القرآن . وهذه هي تعاليم أفلوطين ، وآخرين من الأفلاطونيين المحدثين ، ويبدو أن هذه المشكلة وحلها قد استعارهما العرب منهم .

ويبدو في مبدأ الأمر أن آثار النفوذ الإغريقي على الفكر العربي تتصل — على احتمال قوي — بسوريا ، حيث اختلط العرب والمسيحيون اختلاطا حرا ، ولكن أول آثار هذا النفوذ تظهر في العراق ، في منتصف القرن الثامن الميلادي ، وربما وجد النفوذ الإغريقي في أكثر من نقطة واحدة ، وربما انتشر من منطقة إلى أخرى . ويجب أن نعترف أننا ليس لدينا شواهد على التأملات الفلسفية واللاهوتية في سوريا في الدولة الأموية ، وهي الدولة التي بدأت بمعاوية ، حيث يبدو أن هذه الأمور لم تجذب إليها العرب في ذلك العصر . أما بداية التأمل في الفلسفة والتوحيد والبحث العلمي ، فقد كانت في العراق وعلى الأخص في البصرة ، وإلى درجة أقل من ذلك في الكوفة .

وقد كانت هاتان المدينتان في المنطقة التي كانت فيها الحيرة وجنديسابور القديمتين ، ومن الممكن أن نفوذا عاما مرجعه إلى الاتصال بين المسلمين

والمسيحيين قد وجد،قبل بدء نقل الثقافة الإغريقية مباشرة من جنديسابور إلى المجتمع الإسلامى .

٣ — مدن المعسكرات

بدأ العرب يتعلمون طرق الحرب الرومانية بعد انتشارهم ، واتصالهم بالجيوش الرومانية والفارسية ، وقد علموا أن شيئاً جديداً ينقصهم ، يختلف عن الغارات السريعة والتقهقر السريع ، الذى كان كافياً فى حرب الصحراء . إن الامبراطور ليوتاكتيكوس ، الكاتب البيزنطى ، ليصف العرب بأنهم يقلدون الترتيب والتنظيم الذين فى الجيش الرومانى ، بكل تفصيلاتهما . وقد كان هذا طبيعياً ، لأن أكبر العرب نفوذاً فى العصر الأموى هم سكان الحدود السورية ، التى تدربوا ثم انتظموا فى القوات الإضافية فى الجيش الرومانى . ويجب أن نعترف بأن الفرس فى نفس الوقت قد حاولوا أن يقلدوا الطرق الحربية الرومانية ، وكان أحد الأشكال الجديدة للحرب هو استعمال الهندسة فى حصار المدن المحصنة ، وفى بناء تحصينات للدفاع عن مدنهم . ومن أجل هذا الغرض الأخير ، أخذوا عنهم المعسكر المستطيل المحصن ، الذى عرف عن الطرق العسكرية الرومانية . ففى كل منطقة مفتوحة بنوا مدينة معكسر ، وغالبا ماكان موقعها سيء الاختيار . وأكبر مدينة من هذه المعسكرات فى فلسطين جابية ، وفى مصر الفسطاط ، وفى إفريقية القيروان ؛ ولكن لم تكن واحدة من هذه ذات أهمية عظيمة كما كانت مدينتا المعسكر فى العراق ، وهما البصرة التى أسسها عتبة بن عزوان عام ٦٣٥ أو ٦٣٧ ، والكوفة التى أسسها سعد بن أبى وقاص بعد ذلك بقليل ؛ وقد لعبت هاتان المدينتان دورا هاما فى تاريخ الإسلام .

وحين تحول هم الأمويين إلى الدنيا ، ولم يهتموا بالدين ، وانتشرت عدوى تحللهم إلى المدينة ومكة ، ساء ذلك المتدينين من المسلمين ، فتحولوا عن هذه الأماكن ، كالمدينة مثلا ، وذهبوا إلى إحدى مدينتى المعسكر العراقيتين ، اللتين أصبحتا بعد ذلك ديار تدين ، ثم أصبحتا عرضا ديار مقاومة للخلافة . التى اعتبرها الناس خارجة على الدين .

بدأت الدراسات اللغوية والأدبية فى البصرة ، على يد أبى الأسود الدؤلى ، صديق صهر النبى « على » وثقته . وقد حدث بالطبع أن كثيرين من أهل العراق الذين تعلموا العربية فى وقت متأخر من حياتهم قد لحنوا فى قراءة نصوص القرآن ، وقد ساءت هذه الغلطات عليا ، فطلب إلى الدؤلى أن يضع بعض القواعد ، ليرشد بها هؤلاء الذين لم يتعودوا استعمال اللغة الوحيدة التى يسمح أن تتم بها الصلاة ، وقراءة الكلمة الموحى بها . ولكن الدؤلى قد منع من تنفيذ هذا الأمر ، بمقتل على فى ٢١ يناير عام ٦٦١ ، وتردد فى أن يخطو أية خطوة يساعد بها زياد بن أبيه ، الوالى الذى نظر أبو الأسود إليه نظرة استنكار ، لأنه بعد أن خدم عليا ، حول خدماته إلى معاوية الأموى المغتصب . ومع أن زياداً قد جدد طلب على فقد امتنع أبو الأسود عليه ولم يفعل شيئاً . ثم سمع ذات يوم قارئاً يخطىء فى نطق حركتين فى نص من القرآن (٩ — ٣)(١) ، حتى تحول المعنى من « إن الله برىء من المشركين ورسولُهُ » ، إلى « إن الله برىء من المشركين ورسولِهِ » فكان غلطه فى التنزيل صدمة لأبى الأسود ، حتى لقد بدأ يخترع طريقة يمنع بها مثل هذا الغلط . وجاء لهذا الغرض بنقط تدل على الحركات فى الكتابة

(١) سورة التوبة — الآية ٢ .

العربية ، التى لم تكن تعرف النقط فى ذلك الوقت ، وبدأ يعلم نحو اللغة العربية ومعجمها . ويبدو أنه فى عمله هذا قد تأثر بمنطق أرسطو ، ولم يتأثر بالنحاة الإغريق .

ومن أبى الأسود الدؤلى جاء نسق مطرد من طلاب الدراسات اللغوية ومعلميها بالبصرة ، وبدأت محاضرات مماثلة فى الكوفة بعد ذلك بقرن تقريباً بدأها أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء (مات ٧٢٣ — ٧٢٧) ، الذى كان من قبل معلماً لأبناء عبد الملك . وقد تطور هذان المركزان إلى مدرستين متنافستين ، اتفقتا فى النظرية واختلفتا فى التطبيق ، ولم تكن أشعار الشعراء القدماء ذات القيمة فى تصوير الاستعمالات اللغوية القديمة وإيضاحها قد جمعت فى ديوان مكتوب ، بل كانت تنتقل بالمشافهة ، وكثيراً ما غيرت وشوهت فى عملية النقل . ولعل مدرسة البصرة بذلك ، كانت تنتقد الشعر المسموع بكل احتراس ، وترفض منه ما لايتناسب مع المستوى المقبول ، على حين قبل الكوفيون كل ماسمعوا ، ويقال إنهم استعملوا كثيرا من الشعر المنحول . وتبدو طريقة البصرة أحسن عند النظرة الأولى ، ولكن يجب أن نلاحظ فى مقابل هذا أنه بهذه الطريقة قد صيغت الشواهد لتلائم القاعدة ، على حين حور الكوفيون فى قواعدهم لتناسب الشواهد المسموعة ، وهذا أحسن .

وقد كونت سلسلة النقل فى المدرستين نسبا نحويا يؤدى إلى النحوى البصرى العظيم أبو الحسن (أو بشر) عمرو بن عثمان الحارثى ، المعروف بسيبويه (المتوفى بين عامى ٧٨٣ و ٨١٦) الذى يجب أن نشير إلى أنه لم يكن عربيا ، بل فارسيا ، وقد ألف نحوه فى أوائل حكم العباسيين .

وفى البصرة بدأت الدلائل الأولى على أفكار المعتزلة ، مع شواهد على

الأثر القوى من تأملات الإغريق الفلسفية ، على علم الكلام العربى . وفى العراق ، حول البصرة ، كانت الآثار الأولى للنظرية الفقهية ، التى يظهر فيها أثر القانون الرومانى ، والنظريات الفلسفية التى قبلها المحامون الرومانيون .

وواضح أن نتيجة النفوذ الإغريقى لم تبدأ ظهورها فى سوريا ، حيث كان حكامها المسلمون على صلة وثيقة باللاهوت المسيحى ، وأفكاره الفلسفية ؛ ولكن فى البصرة ، مع أننا ليس لنا أى دليل على وجود اتصال هناك مع الإغريق والعناصر المسيحية . وقد كانت الرياضة والسياسة هواية دمشق وبلاطها ، ولا يمكن أن تكون التأملات الفلسفية قد تأصلت هناك . أما البصرة من جهة أخرى ، فقد احتفظت بتقاليد علمية ، ولا بد أنها أعجبت بالثقافة الإغريقية الوافدة إليها من الحيرة على احتمال ، ومن جنديسابور على احتمال آخر أقوى ، وبهذا تبدى أول آثار لتهلين العرب .

الفصل الحادى عشر

خلافة بغداد

---

١ — الثورة العباسية :

استولى معاوية على الخلافة فى بيت المقدس عام ٦٦١ ، ولكنه تحول حالا إلى دمشق ، حيث كان قد قضى سنوات عدة حاكما لسوريا ، وباستيلائه على الخلافة ، بدأت فترة الحكم المعروفة بالدولة الأموية ، التى حكمت الاسلام حتى ٧٤٩ . ولقد مرت هذه الدولة بمرحلة تحول عام ٦٨٤ ، حين تحولت من أسرة إلى أخرى ، ولكن الأسرة الجديدة التى نسلت من مروان كانت فرعاً من الأمويين ، وهكذا بقى الملك فى يد الأمويين ، وظل كذلك حتى عام ٧٤٤ ، حين استولى مروان آخر من غير الأسرة الأموية على الحكم ، بالقوة العسكرية . وبقى البلاط والادارة فى دمشق حتى عام ٧٢٤ ، حين انتقل الخليفة هشام إلى قصر ريفى . ولم يذهب الخلفاء بعد ذلك إلى دمشق إلا ليبايعوا ، ثم يرجعون بعد ذلك ليقيموا فى مكان آخر ، ولكن الادارة بقيت فى العاصمة السورية ، حتى ولاية مروان الثانى عام ٧٤٤ . وقد كان البلاط بالضرورة فى صحبة الخليفة ، ولكن فى ٧٤٤ ، لم يتحول البلاط فحسب من دمشق ، ولكنه ومعه الادارة تحولا إلى حران ، التى أصبحت عاصمة ، وهبطت دمشق

إلى مستوى مدينة إقليمية ، فكان هـذا التحول موضع سخط عرب سوريا .

وكانت الدولة فى ظل الأمويين دولة عربية بحتة ، تتكون إنتاجاتها الثقافية من الشعر ، الذى يرجع فى مجموعه إلى النوع الصحراوى القديم ، مع تعديل فى بعضه ، ينم عن نغمة الشعر فى بلاط الحيرة ، وبنى غسان ، وكل ذلك فى الروح الجاهلية التى قبل الإسلام . فقد مدح شعراء هذا النوع حماتهم ، وهجوا منافسيهم وأعداءهم ، وصوروا المهالك التى فى حياة الصحراء أو تغنوا بأصداء الحروب القبلية القديمة . ولم تجد الثقافة والعلم الإغريقيين مكانا لهما فى شعر هؤلاء ، وربما لم تعن شيئاً بالنسبة لهم .

وكان الجيش السورى فى عهد مروان الثانى قليل الولاء ، وثار الخوارج فى العراق ، وحصنوا أنفسهم فى الموصل ، فلم يستطع مروان أن يخرج إليهم لأن قبضته على سوريا لم تكن مضمونة ، فلجأ إلى إرسال جيش إلى بلاد العرب ، حيث كانت هناك ثورة خارجية أخرى .

ولكن كبرى متاعبه جاءته من خراسان ، فى شرق بلاد الفرس ؛ فقد كان الفرس ساخطين ، لأنهم شعروا أن فتح العرب لبلاد الفرس سببه مجموعة من الحوادث ؛ نمو الثورة المحلية التى ذهبت بتنظيماتهم العسكرية ، والسلوك الأهوج من ملكهم الشاب . وكانوا يأملون فى فرصة لاسترجاع ملكهم ، من هؤلاء الذين اعتبروهم بدوا نصف متمدنين . وفى مثل هذه الحالات ، كان لابد أن تدبر المؤامرات . حقاً إن كل العهد الأموى يبدو فيه أن المجتمع الإسلامى كان ساخطاً ومستعداً للثورة ، لأسباب قومية من جهة ، حيث أحسوا السخط لغطرسة العرب عليهم ، حتى بعد أن اعتنقوا

الاسلام ، ثم لأسباب دينية من جهة أخرى ، حيث اعتبروا الأمويين متسامحين فى المحافظة على الدين . ومن بين الفرس كثيرون ممن اتبعوا آل على، وقد نظر هؤلاء إلى الخلفاء جميعاً ،فيما عدا عليا نفسه، نظرتهم إلى المغتصبين، ولم يرضوا بقيادة أحد إلا هؤلاء الذين جاءوا من صلب على . أما الغلاة من أتباع على فقد فضلوا عليا على محمد نفسه ، وكل هؤلاء الشيعة ، كما كانوا يسمون ، كانوا منقسمين فيما بينهم إلى طوائف متعددة ، ولكنهم اشتركوا جميعاً فى النقمة على العرب . وفى النهاية بدأت الثورة فى خراسان ، ولكن الدعوة لها انتشرت فى كل مكان فى العالم الإسلامى ، إلا فى أسبانيا ، حيث كان للمسلمين متاعبهم الخاصة . أما شخصية هذا الذى كان سيرقى العرش بعد خلع مروان ، فقد احتفظ بسريتها حتى نجحت الثورة ، ثم أذيع أن الشخص الذى اختير خليفة هو أبو العباس، الذى ينتمى إلى الفرع الهاشمى من قريش، نفس القبيلة التى انتمى إليها الأمويون . وانتقل العرش ببساطة من أسرة عربية ، إلى أسرة عربية أخرى .

بويع أبو العباس بالخلافة فى مسجد الكوفة الأكبر ، فى ٢٨ نوفمبر عام ٧٤٩ ، وجعل من أول همه أن يقضى على من بقى من بنى أمية ، ومن أتباعهم ، وقد فعل ذلك بكل قسوة ، حتى اكتسب لنفسه لقب السفاح . ولم ينج من العائلة المخلوعة إلا شاب واحد ، وبعد مخاطرات ومصاعب لا تصدق ، وصل إلى أسبانيا البعيدة ، حيث أصبح رأساً لدولة مستقلة ، ثم اتخذ أحفاده من بعده لقب الخلافة ، ليعارضوا به الأسرة العباسية . وثمة قصص عن بعض الأمويين الذين لجأوا فى أجزاء أخرى من أفريقيا، ولكن هؤلاء كانوا ، على ما يبدو ، من اتباع الأسرة لا من أفرادها .

وكان سقوط الدولة الأموية نقطة تحول فى تاريخ الإسلام . فلم يكن خلفاء بنى العباس أقل فى عروبتهم من الأمويين ، ولكن أكبر الفضل فى استيلائهم على العرش يرجع إلى مساعدة الفرس ، وكان وزراؤهم الأكابر فى الغالب من الفرس لا من العرب . كما ربى أولياء عهد أكثر الخلفاء العباسيين الأوائل فى محيط فارسى،وجرى فى عروقهم الدم الفارسى عن طريق أمهاتهم . وقد نافست الأفكار والمصالح الفارسية فى معظم الأحوال أفكار ومصالح عربية ، وحلت محلها ، وهكذا صار الإسلام من عدة نواح إلى الصبغة الفارسية . ومع هذا يجب أن تعتبر الخلافة ورعيتها عربية، لأنها كانت تحكمها أسرة عربية ، واستعملت اللغة العربية ، واعتنقت ديناً عربيا ، واشتملت باستمرار على رجال جاءوا من الصحراء ، واستولوا على الشرق الأدنى .

٢ — تأسيس بغداد

اتخذ الخلفاء العباسيون الانبار على الفرات عاصمة لهم فى أول الأمر ، فلم تكن لهم رغبة فى الذهاب إلى سوريا ، حيث كان الشعور العام فى صف الأمويين ، ولكن المنصور الحاكم الثانى من الأسرة العباسية ، وهو أخو أبى العباس قرر أن يؤسس عاصمة جديدة . وبعد أن فكر فى أماكن كثيرة، قرر أخيراً أن يبنى بغداد ، وهى مدينة قديمة جداً ، كانت تعرف فى أيام البابليين باسم « باغ دا دو »،وهو اسم مجهول الأصل . وباللعب بالألفاظ، ادعى الكتاب الفرس المتأخرون أن الكلمة ذات اشتقاق فارسى ، وأن معناها « جنة الله » ; وهذه خرافة .

وقد استنصح فى اختياره هذا وزيره خالد بن برمك ، وحين قرر البناء ، استدعى اثنين من المنجمين ، ليضعا الأساس ، ويختارا الساعة المباركة ، لوضع أول حجر فى مكانه . وهذان المنجمان هما . النوبخت ، وكان فارسيا ، وما شاء الله بن أثرى ، وهو يهودى فارسى من مرو .

وبنصيحة هذين المنجمين ، وضع المنصور الحجر الأول فى عاصمته الجديدة ، قرب نهاية عام ٧٦٢ . وبعد ذلك بثلاثة أعوام تقدم البناء ، فبدأت السكنى بالمدينة . وقد جاء معظم السكان من مدن المعسكرات المجاورة ، كالبصرة ، والكوفة ، وكانت كلتاهما مهـــدا للتحريض والاضطراب والتعصب . وقد يساعد وجود المواطنين الجدد على إيضاح السبب فى أن بغداد منذ البداية كانت ذات جو متقلب متعب . أما الكرخ فقد كانت ضاحية من ضواحى المدينة ، وكانت موجودة قبل ذلك فى صورة قرية فارسية ، وقد أعطيت للجالية الفارسية .

وقد رغب المنصور فى أن يجعل عاصمته ذات شهرة تطبق آفاق الإسلام ، ولهذا دعا إليها عدداً من أكابر العلماء ، والقراء ، والوعاظ ، والنحاة ، والمحدثين ، من مدينتى المعسكر القريبتين من هناك ، واللتين اعترف لهما قبل ذلك بأنهما مركزين من مراكز الثقافة الإسلامية ، التى كانت محصورة فى ذلك الوقت فى الدراسات القرآنية والإلهية . وكان هؤلاء العلماء قد بدأوا يكونون طبقة وسطى محترمة ، ارتفعت بعد ذلك برضا الخلفاء عنها إلى الوظائف العليا فى الدولة ، ولكنها كانت متميزة من الارستقراطية القديمة ، التى بدت فى رؤساء القبائل العربية ، ذوى النسب ، الذين سيطروا على الإسلام فى الدولة الأموية . لقد كون علماء البصرة

والكوفة (وكان بعضهم مشهوراً من قبل) أرستقراطية علمية ، أميل إلى أن تكون رادعا لغطرسة الحسب الموروث ، الذى برهن على أنه كان خطراً فى بلاط دمشق ، وكان لا يزال غير موال للأسرة العباسية ، التى اعتبرها ذووا الحسب نصف فارسية . وكان المنصور لسوء الحظ بخيلا ، وكانت عطاياه واهية ، يصحبها المن ، حتى لقب بأبى الدوانق .

وفى عام ٧٦٥ ، أصيب المنصور بمرض خطير فى معدته . فنصحوه أن يستشير طبيباً نسطوريا ، اسمه جبريل بن بختيشوع ، رئيس مدرسة جنديسابور ومستشفاها . فكان ذلك أول صلة بين بلاط بغداد وبين أسرة بختيشوع ، التى لعبت بعد ذلك دوراً هاماً فى التدريب الثقافى للعرب . ولسنا نعلم شيئاً عن بختيشوع الذى كان أبا لجرجيس ، ولكنه ما دام الاسم يرد مرات متعددة فى تاريخ بغداد ، يحسن أن نسمى هذا بختيشوع الأول .

أما الفرس الشرقيون ، الذين أعانوا ثورة العباسيين ، وجاءوا من بعد إلى الغرب ليحظوا بنصيبهم من نعمة الدولة الجديدة ، فقد انتمى أشهرهم إلى الأسرة البرمكية النسيبة الثرية ، التى أتت فى الأصل من بلخ ، واستقرت بعد ذلك فى مرو . وقد نسلت هذه الأسرة من البرامكة ، أو رؤساء الأديرة البوذية الوراثيين ، فى نوبهار فى بلخ ، ولكنها اعتنقت الديانة المزدكية ، وربما كان ذلك قبل الفتح الإسلامى بقليل ، ثم اعتنقت الإسلام أخيرا . وكان خالد بن برمك رأس الأسرة وزير مالية السفاح . وجعله المنصور حاكما على العراق . أما ابنه يحيى ، الذى كان مرة حاكما لأرمينيا ، فقد عهد إليه المهدى بتثقيف ابنه ، الذى أصبح فيما بعد الخليفة هرون

الرشيد ، ونصب يحي وزيرا للامبراطورية جميعها ، وأعطاه سلطة مطلقة . وقد أبدى يحي فى منصبه أنه عاقل ، وإدارى عادل ، وازدهـــرت الامبراطورية فى ظل إرشاداته . ومن أبناء يحي الثلاثة أصبح الفضل حاكما على خراسان ، ثم مصر ، وخلف جعفر أباه يحي فى الوزارة ، ولكن هذه الأسرة ، بعد أن كانت الأولى فى الثروة والقوة والمهابة فى الدولة الإسلامية ، سقطت من عليائها عام ٨٠٣ ، لأسباب كانت غامضة بالنسبة لمعاصريها ، ولم توضح توضيحا كافيا بعد ذلك . ومات يحي فى السجن عام ٨٠٦ ، كما مات جعفر عام ٩٠٩[1] ؛ ويبدو أن أبناء يحي الآخرين قد أطلق سراحهم بعد موته . وعند استيلاء الأمين على الخلافة عام ٨٠٨ ، أطلق سراح كل الأحياء من الأسرة البرمكية ، وعادت إليهم ممتلكاتهم وهيبتهم .

كان البرامكة شديدى العناية بالثقافة الإغريقية ، التى كانت محل عناية فى مرو فى ذلك الوقت ، وجاءوا معهم بهذا الذوق ووجـــدوا الروح المتقدة موجودة فى المدرسة النسطورية فى جنديسابور .

أما جرجيس بن بختيشوع ، الذى جاء يعالج المنصور ، فقد بقى فى بغداد طبيبا فى البلاط ، حتى اضطره الهرم إلى الاستعفاء ، ورجع مكرما إلى جنديسابور ، حيث مات عام ٧٦٩ . وفى عام ٧٠٥ ، دعا الهادى ، وقد علم بخدمات جرجيس ، بختيشوع الثانى ، الذى خلفه أباه على رياسة مدرسة جنديسابور ، ومستشفاها ، للمجىء إلى بغداد ، ولكنه فى البلاط وجد معارضة قوية من أبى قريش ، طبيب الملكة ، فبعث به مرى أخرى

(١) لعله يقصد ٨٠٩ .

إلى جنديسابور ، حفظا للسلام . ودعى إلى البلاط مرة أخرى فى عهد هرون الرشيد ، ليعالج الخليفة من صداع حاد ، وأحضر ابنه جبريل بعد ذلك إلى البلاط ، وبقى هناك حتى مات عام ٨٢٨ — ٨٢٩ . وحين كان فى البلاط . كان نفوذ البرامكة قد بدأ يعظم ، وكانت الجهود تبذل لتعريف العرب بالثقافة العلمية الجديدة ، المأخوذة من منابع إغريقية ، التى كانت منتشرة بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية . وكان يحي البرمكى داعية متحمسا لهذا البعث العلمى ، الذى كان على صلة به فى مرو ، وعضده فى ذلك علماء النساطرة فى جنديسابور .

أصبح هرون الرشيد خليفة فى عام ٧٨٦ ، وقد تعلم فى فارس ، وتحت النفوذ الفارسى . على يدى يحي البرمكى ، وقد أبدى طوال حكمه ميلا قوياً الى الفرس . وقد كان له شغف عظيم بالعلم والأدب ، أكثر مما كان عند أى واحد من أسلافه ؛ ونضجت الحركة الهلينية فى الإسلام تحت رعايته . ولقد نظر اللاحقون الى حكمه باعتباره عهدا ذهبيا ، ولكن الخلافة كانت قد بدأت تبدى علامات الاضمحلال : ففى عام ٨٠٠ ، وافق هرون على الاستقلال الفعلى للحاكم الأغلبى فى مدينة القيروان من أعمال ليبيا ، وكان ذلك بداية عملية انتقاص ، انتهت أخيرا بتحليل الامبراطورية . ولم يستطع هو ولا أى واحد آخر من خلفاء العباسيين أن يوسعوا رقعة حكمهم الى الأندلس ، التى كانت إقليما تحت الحكم الأموى .

ولما كان هرون واقعاً تحت نفوذ وزيره البرمكى ، عضد العلماء الذين درسوا أو ترجموا المؤلفات العلمية الإغريقية ، مرسلين وكلاء ليشتروا

المخطوطات الإغريقية فى الامبراطورية الرومانية، وهى سياسة سخية، جاءت إلى بغداد بكثير من المؤلفات الهامة، وقد ألحق هذا بكرم مماثل من جانب الأفراد، الذين أنفقوا بسخاء على المخطوطات والمترجمين. وكثير من المادة التى حصل عليها بهذه الطريقة كان طبياً، ومن ثم جذب انتباه أطباء جنديسابور، وقد ترجم هذا إلى السوريانية، كما فعل بمثله فى الأيام السالفة. ولكن النسخ العربية ظهرت قبل أن يمضى وقت طويل، مترجمة فى مبدأ الأمر من السوريانية؛ ثم مباشرة من الأصول الإغريقية فيما بعد. وقد كانت مؤلفات أرسطو معروفة فى الترجمات السوريانية، وكانت معها تعليقات وتلخيصات، ألف بعضها بالسوريانية، وترجم بعضها الآخر من الإغريقية. ولكن المادة الأرسطوطاليسية كانت محصورة فى مبدأ الأمر فى المؤلفات المنطقية. ولم يكن إلا بعد موت هرون الرشيد بزمن، أن شرع العرب فى اختيار مباشر جدى لفلسفة أرسطو. ولكون تعاليم أرسطو قد أخذت عن نسخ وتعليقات سوريانية، جاءت هذه التعاليم مليئة بالافلاطونية الحديثة، وهذا النوع من التفكير ظل يلون الفلسفة العربية حتى وقت متأخر.

ويبدو أن هناك سبباً لفرض أن بعض الترجمات المباشرة القديمة من الأغريقية كانت تهتم بالفلك والرياضيات، وقبل ذلك بزمن، ترجم إلى العربية كتاب السند هند، وهو مؤلف هندى فى الفلك، يتصل موضوعه بالرياضة، مبنى على تعاليم الاسكندرية، وربما كانت ترجمتـــه قد تمت بمساعدة نسخة فارسية. ويقال إن المترجمين إلى العربية كانوا ابراهيم الفزارى، ويعقوب بن طارق، ويقول المسعودى عن أول هذين «وابراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة فى النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئات الفلك»

Masi'udi. Muruj.viii.290 ، ثم يستطرد فيذكر أنه من الأصدقاء الشخصيين للمنصور . أما القصيدة المشهورة فى النجوم فغير موجودة، ويقال إنه أول عربى صنع الأسطرولاب ، وابن ابراهيم هذا اسمه محمد (مات بين ٧٦٩ و ٨٠٦) ، الذى يذكر أحياناً بين المترجمين ، إن تاريخ الترجمة التى تنسب أحياناً للأب وأحياناً أخرى للابن ، يجب أن يكون محل شك . وكان يعقوب بن طارق رياضياً شهيراً ، ينسب إليه مؤلف عن الكرة ، وآخر عن الكرجة (Karaja) ، أو قوس ٢٢٥ ، متبعاً فى ذلك سابقة أرشميدس ، الذى قسم الدائرة إلى ٩٦ درجة ، ويقال إن وضع جداول فلكية . وكون السند هند قد ترجم فى أيام المنصور موضع شك . ولكن من الواضح أن الترجمة كانت معروفة لعبد الله محمد بن موسى الخوارزمى ، الذى جعلها أساس جداوله الفلكية ، ولكن مؤلفه جاء بعد ذلك بخمسين عاما ؛ والجداول مفقودة الآن ، ولكنها كانت مصدر اقتباس ، واشتمل عليها مؤلف متأخر من وضع مسلمة المجريطى (حوالى ١٠٠٧) ، وحين تكون الجداول معروفة لدينا عن طريق الاقتباس فحسب ، أو عن طريق اشتمال مؤلف آخر عليها ، لا نستطيع أن نطمئن إلى الطريقة التى تنوولت بها ، أو التحسينات التى أدخلت عليها ، أو الكمية التى بقيت من الأصل .

وقد وجد ضرورياً من أجل فهم السند هند واستعماله ، أن يترجم الماجسطى لبطليموس ἡμεῖστη σύνταξις ، والعناصر لإقليدس ، ويبدو أن هذين قد ترجما مباشرة من الإغريقية وأن يكونا أول ترجمة تتم بهذا الشكل . ويذكر أنها قد أخذت عن نسخة سوريانية ، ولا ينفى هذا عدم وجود أى نسخة باقية كهذه ، وليس حظ الكتابات السوريانية

كبيراً من المؤلفات الرياضية . وأما من جهة فرض ترجمة تسبق هذا من الإغريقية ، فلا نملك إلا افتراض أنه قد تم رجوع إلى الأصل ، لترجمة الإصطلاحات الفنية ترجمة دقيقة ، وذلك أمر عظيم الخطر فى المؤلفات الرياضية . ولقد روجعت النسخ العربية مراراً ، وصححت مع مقارنتها بالنص الإغريقى ، ولهذا ربما كانت أولى التراجم قد تمت قبل هرون الرشيد ، أو فى أول حكمه . وثمه رواية تروى أن ترجمة أقليدس والماجسطى قد تمتا بإيحاء من جعفر البرمكى ، وتضع هذه الرواية الترجمة قبل ٨٠٣ ، حين وقعت نكبة البرامكة . فاذا كان مرصد جند يسابور قد استعمل قبل أيام النهاوندى (٨١٣ — ٨٣٣) ، وهو ما لا نستطيع التأكد منه ، فلا شك فى أن المؤلفات الضرورية فى الزياضة كانت فى المتناول هناك ، وأنها كانت بالسوريانية ، ومن الممكن بالطبع أن تكون الرياضيات الضرورية قد جاءت من المؤلفات الهندية ، لا من اقليدس ولا بطليموس . وكان لأبناء موسى مرصد فى بغداد ، ولكن هذا لا بد أن يكون بعد أيام هرون الرشيد .

ولا نستطيع أن نتعلم شيئاً من المنجمين اللذين ساعدا المنصور فى وضع أساس بغداد ، ولو أنه يقال إن كليهما قد وضع مؤلفات رياضية وفلكية وتنجيمية . وأحد هذين ، النوبخت (المتوفى ٧٧٦ — ٧٧٧) ، يوصف بأنه تحول إلى الإسلام من الزرادشتية ، وبأنه من أخصاء المنصور ، ويقال أنه كان مؤلفاً لكتاب فى التنجيم القضائى (judicial astrology) ، وأنه جمع جداول فلكية ، ولم يبق من هذه المؤلفات شىء . أما ابنه أبو سهل الفضل النوبخت (المتوفى حوالى ٨١٥) ، فقد كان أمين مكتبة هرون الرشيد ،

وقد صنع ترجمات من الفارسية . ويقال إن المنجم الآخر ، ما شاء الله ، كان يهودياً من مرو ، وكان اسمه فى الأصل ميشا ، وهو مختصر ملسا (Fihrist. i 273) (١) ، وقد بقى عدد من مؤلفاته فى صورة ترجمات عبرية ولاتينية ، وبين هذه كتاب شهير فى الفلك ، لا فى التنجيم .

ويبدو من المؤكد أن المادة الطبية جاءت عن طريق السوريانية ، أما الترجمة المباشرة من الإغريقية ، فقد جاءت فى عصر متأخر . وربما كانت تلك حال الترجمات الفلكية والرياضية أيضا . ولكن الترجمات السوريانية الموجودة تبدو معاصرة للنسخ العربية لا قبلها ، حقا إنها تبدو من عمل حنين ابن اسحق أو مدرسته ، وربما كانت الرياضيات والفلك قد جاءت عن طريق الهند . لا من ترجمات الهند عن الإغريقية ، ولكن من مؤلفات مبنية على التعاليم الإغريقية ، وجاءت الترجمات من الإغريقية إلى السوريانية والعربيـــة ، فى وقت متأخر ، حين بذلت الجهود لإعادة النظر فى المادة الموجودة وتصحيحها . ومن المؤكد أن أوائل الرياضيين العرب كالخوارزمى علموا الكثير الذى لم يظهر فى مؤلفات الإغريق ، وكثير منه لا كله يمكن إرجاعه إلى المؤلفات الهندية . وثمة فجوات فى سلسلة النقل ليس من السهل ملؤها .

(١) ليس ٢٧٣ رقم صفحة وإنما هو رقم موضوع فى الفهرست طبعة جوستاف فلوجل

الفصل الثانى عشر

الترجمة إلى العربية

---

١ — المترجمون الأوائل .

أسست بغداد عام ٧٦٢ ، وأصبح هرون الرشيد خليفة عام ٧٨٦ ، وفى عهده أصبحت بغداد مركز حركة ترمى إلى ترجمة المادة العلمية فى الثقافة الإغريقية إلى العربية . وفى الأعوام الأربعة والعشرين التى مرت منذ تأسيس المدينة ، إلى ولاية هرون الرشيد ، لا بد أن تكون الجهود قد توجهت إلى تنفيذ هذا المشروع . ومن أمثلة النفوذ الذى ساعد على ذلك مثالان واضحان ، أحدهما يشع من مرو ، البعيدة فى خراسان فى الشرق ، والآخر من جنديسابور ، القريبة إلى بغداد . أما مرو فى خراسان ، فقد كانت بعيدة حقا ، ولكنها كانت على صلة عظيمة ببغداد فى مبدأ أمرها ، فقد جاء العباسيون إلى العرش بثورة نبعت من خراسان ، ووجدت تعضيداً كاملا فى هذا الأقليم . أما العائلة البرمكية المروزية ، فقد وهبت الخلافة وزراء أقوياء ، وجهوا الحكومة العباسية ، وسيطروا عليها . وقد هاجر كثير من الفرس ، وخصوصا من خراسان إلى الغرب ، ليشاركوا العباسيين فى انتصار الثورة ، وليأخذوا حظهم من الغنائم . أما فى البلاط

العباسى ، فقد رمى النفوذ الفارسى بالعرب إلى المؤخرة ، ولم يكن الفرس معتدلين فى هذا ، فقد كان العرب متغطرسين ؛ والآن أراد الفرس أن يجازوهم بغطرسة أكبر . وكانوا يهجون العرب بأنهم بدو صحراويون ، نصف برابرة ، محدثى نعمة ، لا تاريخ لهم ولا ثقافة . وهذه المظاهر المكشوفة الواضحة التعبير ضد العرب استمرت باسم الشعوبية . وهو تعبير عن شعور منظم مسموم ضد العرب .

وكان أبو محمد بن المقفع شخصية تمثل ذلك العصر ، وهو فارس دخل فى خدمة عيسى بن على ، ابن عم الخليفتين العباسيين الأولين ، ثم اعتنق الإسلام ، ولو أن الكثيرين اعتبروا اعتناقه الإسلام غير مخلص . وقد ترجم من البهلوية أو الفارسية القديمة كتابا اسمه كليلة ودمنة (Kalilag wa-Dimnag) ، وهو فى صورته الفارسية مترجم أيضاً عن مؤلف بوذى ، أحضره من الهند مبشر مسيحى (the Christian periodeute Budh) ، أرسل إلى الهند ليستحضر بعض العقاقير ؛ وجاء مع العقاقير بهذا الكتاب ، وبلعبة الشطرنج . وقد ترجمه ابن المقفع ترجمة تعتبر نموذجا للعربية الفصحى القديمة ، ولهذا لا يزال يدرس فى المدارس ؛ وقد وضع أيضاً ترجمة لكتاب فارسى اسمه « خداى ناما » ، وهو سيرة تاريخية لملوك الفرس ، وسمى الترجمة العربية « سيرة ملوك العجم » . وهذا الكتاب غير موجود الآن ، ولكنه كان أساس شهنامة الفردوسى ، وجاءت منه اقتباسات كثيرة طويلة فى عيون الأخبار لابن قتيبة ؛ وقد ألف بالعربية فى طاعة الملوك كتابا اسمه (« الدرة اليتيمة فى طاعة الملك » ، طبع فى القاهرة عام ١٨٩٣ (؟) و ١٣٢٦ ، ١٣٣١ من الهجرة) . وكتب أيضاً عدة كتيبات

صغيرة عن آداب السلوك (etiquette) ، وواجبات أصحاب الوظائف المدنية ، وعن الآداب العامة ، وهي موضوع محبوب للأدب الفارسي القديم . ولكونه عاش في البصرة وأحس الأمان في ظل حماة نبلاء ، سمح لنفسه أن يطلق لسانه في سفيان بن معاوية المهلبي ، أمير المدينة ، ساخرا منه بلقب « ابن المغتلمة » Son of a lascivions female ، وقد احتمل سفيان هذا في سكوت ، وبعد ثورة عبد الله على ابن أخيه المنصور ، وافق الخليفة على العفو عن عمه ، وأمر ابن المقفع أن يكتب كتاب الأمان ليوقعه الخليفة ، فجعل في ذلك الكتاب : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حل من بيعته » . وقرأ المنصور مشروع الكتاب ، وسأل عمن وضعه ؛ فلما قيل له وضعه ابن المقفع لم يقل شيئاً ، ولكنه أرسل كتابا إلى سفيان ، أنه يستطيع أن يتصرف في الكاتب كما يشاء . وتروى في طريقة الموت التي حقق الحاكم بها استنكاره لابن المقفع روايات مختلفة ، ولكن كل رواية منها متطرفة في الإيذاء والتشفي . وقد حدث هذا عام ٧٥٧ — ٧٥٨ (Ibu Khallikan, i. 432-3) [1] .

كانت خراسان وعاصمتها مرو مهد الشعوبية ، وقد تمت ثقافة هرون الرشيد نفسه في مرو ، فكانت له ميول فارسية قوية ؛ واستمرت في العهد العربي تلك السجلات الفلكية التي كانت تكتب في عهد الساسانيين ملوك

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٨٨ الطبعة غير معروفة ترد القصة في خلال ترجمة الحسين بن منصور الحلاج .

فارس ، وكانت تكتب بالفارسية ، لا بالعربية ، حتى وقت متأخر . وجاء بعض قدماء المترجمين للفلك من مرو ، ويبدو أن خراسان كانت القناة التى جاءت المادة الرياضية والفلكية عن طريقها إلى بغداد ، وربما كان الوزراء البرامكة المروزيون وكلاء فى هذا النقل . حقيقة أنه كان ثمة مرصد فى جنديسابور ، ولكننا لا نعلم كثيرا عن نشاطه قبل أيام أحمد النهاوندى (٨١٣ — ٨٣٣) ، الذى قام بالمراقبة هناك سنوات بعد موت هرون . ويبدو أن بعض المادة الفلكية والرياضية قد جاء من الهند ، وأخذ هناك عن أصل إغريقى أول الأمر ، ولكن من المحتمل أن يكون قد نقل إلى العرب عن طريق فارسى ، ولو أن المؤلفات الفارسية فعلا التى تم نقلها لا توجد الآن .

وكانت جنديسابور بالقرب من بغداد ، وقد جاء الأطباء المشهورون فى العصر العباسى من هناك إلى البلاط ، وبنجاحهم فى مهنتهم بقوا فى بغداد ، ليكونوا أطباء البلاط ، وأصبحوا أثرياء ذوى نفوذ ، وأوحى نجاحهم إلى الأطباء الآخرين باتباعهم . وقد ألف هؤلاء مع علماء مرو مجموعة تحت رعاية البلاط ، أصبحت شيئاً يشبه الأكاديمية ، كانت جمعية من العلماء أكثر مما كانت جمعية تعليمية . وقد تعود رجال جنديسابور أن يدرسوا العلم الإغريقى فى صورة ترجمته السريانية ، ثم ألحقت الترجمات العربية بالترجمات السوريانية بالتدريج ، ثم حلت محلها أخيراً .

وثمة أسطورة تروى أن السندهند ، وهو النسخة الهندية المراجعة من السانتاهانتا ، التى جاءت من براهما غبطا ؛ قد ترجم إلى العربية فى عهد

المنصور . لقد ترجم فى وقت متقدم ، ولكنه ليس متقدما إلى هذه الدرجة ، وكان عديم الفائدة ، إذ لم يستطيع العرب أن يفهموه . ويروى أن جعفر البرمكى عرف أن السبب فى ذلك أن العرب لم تكن لهم المعلومات البدائية فى الهندسة والفلك ، وهى معلومات ضرورية لفهمه ، وأمر هرون الرشيد ، مستجيباً لنصحه ، أن تترجم عناصر إقليدس وميغال megale (Synaxis) بطليموس . وقد أضاف العرب إلى هذا اللقب الأخير أداة التعريف ، وحولوا ميغال إلى ما جسطى ، عمدا على ما يبدو ، لأن يعقوب يوضح حين يكتب فى عام ٧٩١ ، أن معنى الماجسطى (الكتاب الأعظم) (Ya'qubim, ed. Houtsma. Leiden, 1883) . وهكذا يبدو هذا المؤلف بالعربية باسم كتاب الماجسطى ،وتحول إلى لاتينية العصور الوسطى فى صورة (migasiti) ، وهذه على ما يبدو محاولة لوضع الشكل فى الصورة الكتابية العربية غير المشكلة ، ولا يظهر أن ترجمات إقليدس وبطليموس قد وضعت حتى ما بعد عهد هرون الرشيد ، وعلى هــذا تصبح الرواية التى تقول إن جعفر بن برمك هو الذى اقترحها موضع شك .

ويقال إن مترجم الماجسطى هو الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب ، الذى انتهى منه عام ٧٢٧ ، وذلك بعد سقوط البرامكة بزمن طويل ، وبعد موت هرون الرشيد . ويقال إن نفس المترجم قد وضع نسخة عربية من عناصر إقليدس ، غير مشتملة على الكتاب العاشر ، الذى ترجم بعد ذلك (حوالى ٩١٠) ، مع تعليقات بابوس ، على يد سعيد الدمشقى . إن ترجمة الحجاج لإقليدس مع تعليق النذيرى (an Naziri) (المتوفى

حوالى ١٩٢٢) ، الذى كتب تعليقا على الماجسطى أيضاً ، نشرت على يد
J.L. Heiberg, T.O. Besthorn Euclidis elementa ex enterpritione al Hadschdschadschü cum Comentaris an Nazirü arab et lat., ed natisque...Copenhagen 1893.

ويبدو أن أول تعليق على إقليدس كان تعليق العباسى الجوهرى (المتوفى حوالى ٨٣٣) ، وتقول رواية أخرى إن ترجمة الماجسطى قد وضعهـــا سهل بن ربان الطبرى من مرو ، وهو يهودى كما يدل اسمه « ابن ربان » ؛ وقد كان فى جوار مرو وهى مركز من مراكز الثقافة الإغريقية عدد من اليهود ، الفواجالية خاصة ، كما كانت العادة اليهودية ، لأنهم كانوا يحبون أن يعيشوا فى مجتمعات يمكن فيها مراعاة القوانين اليهودية ، وعلى الطريق بين مرو وبلخ ، تقع بلدة الميمنة ، التى كانت تسمى اليهودية ، ولكن هذا الاسم تحول إلى الميمنة (أى التى يتيمن بها) « the auspeicious » ، بحسب رغبة أهلها، الذين كرهوا أن يخلط بينهم وبين اليهود . ويقال إن سهلا هذا قد ذهب إلى بغداد فى أيام هرون الرشيد ، وأنه وضع الترجمة من أجله . ولقد كان عالما شهيرا ومعلما فى مرو ، وعرف هناك باسم « ربون » أى الممتاز surpassing ، وجاء شىء عنه كتبه ابنه سهل بن ربان الطبرى (المتوفى فى عام ٨٥٠) ، فى كتابه العظيم فى الطب ، فردوس الحكمة (ed.J. Siddiqi, Berlin, 1928.) وتقول رواية أخرى إن سهلا ترجم الماجسطى . والحجاج راجعه، وهذه النسخة القديمة من المؤلف راجعها بعد ذلك حنين بن اسحق (سيأتى ذكره) ثم من بعده ثابت بن قرة (سيأتى ذكره أيضا) ، ومن بعدهما محمد بن جابر بن سنان القبانى (المتوفى ٩٢٩) . أما ترجمة الحجاج لإقليدس ، فقد راجعها قسطا بن لوقا حوالى ٩١٢ — ٩١٣ .

وأول معلومات حصل العرب عليها عن أرسطو من المصادر السريانية اقتصرت على مؤلفاته فى المنطق ، التى ترجمت مرة ، وأعيدت ترجمتها إلى السريانية ، والتى كانت عليها تعليقات كثيرة . ومجموع مؤلفات أرسطو فى المنطق اشتمل على المقولات Categories ، والشروح Hermeneutics ، والتحليلات الأولى prior Analytics ، والتحليلات الثانية Posterior Analytics ، والمباحث Topics ، والسفسطة Sophistica . والخطابة . والسياسة Politics ، وهذان الأخيران عدهما العرب من كتب المنطق ، وقد أضيف إلى هؤلاء مؤلف آخر على يد يوحنا أو يحيى بن بطريق حوالى ٨١٥ ، ولكنه كان لسوء الحظ مفترى ، وذلك هو « سر الأسرار » الذى قبل العرب نسبته إلى أرسطو . وهذا كتاب يشتمل على متنوعات ، منها القيافة ، والتغذية ،

وبعد ذلك بقليل ، حوالى ٨٣٥ ، ترجم مسيحى من حمص اسمه عبد المسيح بن عبد الله وعيمة الحمصى Abd al-Masih ibn Abdellah Waima al-Himsi ، كتابا زائفا يسمى « لاهوت أرسطو » ، وهو يعتبر محورا عن كتاب أفلوطين (cf. Fr Dieterici, Die Sogennate Theologie des Aristotles) (Leipzig 1882)(eneads iv-vi)

وعاش فى نفس الوقت أبو يحيى البطريق (المتوفى بين عام ٧٩٨ و ٨٠٦) ، الذى وضع ترجمة عربية لمؤلف فى التنجيم ، اسمه Tetrabiblos لبطليموس . وقد كتب عمر بن الفرخان (المتوفى حوالى ٨١٥) ، تعليقا على هذا الكتاب وشرحه محمد بن جابر بن سنان البتانى (المتوفى عام ٩٢٩) .

أما جبريل بن بختيشوع المجهول ، الذى جاء من جنديسابور ، فقد

أقام فى خدمة المنصور ، ثم رجع إلى بلده ، وبقى هناك بقية حياته . وعمل ابنه بختيشوع الثانى مدة من الزمن طبيب البلاط فى ظل الهادى ، ولكنه اضطر إلى الرجوع إلى جنديسابور ، لأنه وجد معارضة من طبيب الملكة ، ثم رجع إلى بلاط بغداد فى أيام هرون الرشيد ، ووقف على خدمة الخليفة ووزيره جعفر البرمكى . وقبل أن يموت بختيشوع هذا فى عام ٨٠١ ، أوصى الخليفة بابنه جبريل الثانى ، فأصبح هذا طبيب بلاط فى الوقت المناسب . وليس هناك من دليل على أن العضوين الأولين من أعضاء هذه الأسرة قد فعلا أى شىء فى سبيل نشر الثقافة الإغريقية بين العرب ، ولكن جبريل الثانى فعل . ولكونه عمل بالاشتراك مع جعفر بن برمك ، يتضح أنه كان ذا نفوذ فى بغداد ، حتى قبل أن يعين طبيبا للبلاط . ومات بختيشوع عام ٨٠١ ، وبموته أصبح جبريل طبيب البلاط ، واستمر فى خدمة الأمين بن هرون ، بعد موت هرون عام ٨٠٨ ، ولكن هذا كان سببا فى سجنه حين أصبح المأمون سيد بغداد ، ونكب كل هؤلاء الذين أخلصوا فى خدمة أخيه الأمين . وأطلق سراحه عام ٨١٧ ، فوقف على الوزير حسن بن سهل ، وعاش من غير سوء حتى عام ٨٣٩ ، ولم يكن أقل رعاية وتشجيعا للترجمة من الإغريقية من جعفر بن برمك ، إذ كان شديد الإعجاب بالطب الإغريقى ، ولكنه نفسه ليس مسئولا عن أية ترجمة . وقد ألف كناشة ، أو مجموعة طبية ، بالسريانية ، وفيها أخذ كثيراً من جالين ، وهيبوقراطيس ، وبولس الأيجينى ، وقد ظل هذا المتن فى أيدى الأطباء الذين يتكلمون السريانية ، وكان سببا فى تعريفهم بالتعاليم الطبية الإغريقية وهذا العمل مفقود الآن ، ولكن شيئا من معارفه يمكن الحصول عليه من القاموس السريانى ، الذى يرجع إلى القرن العاشر ، وينسب إلى

برباهــول الذى استعمله ليوضح معنى الاصـطلاحات الطبية (Bar Bahoul, edited by R. Dural, Paris 1888 - 1898) وبحسب اقتراحه أرسل هرون الرشيد رسلا إلى الامبراطورية الرومانية فى طلب المخطوطات ، وأنفق على الترجمة من الإغريقية . وأنفق هو وغيره من المعاصرين الذين رعوا هذه الحركة على الترجمات العربية ، ولـكنهم شجعوا كذلك إعداد تحسينات على النسخ السريانية . ومما يستحق الملاحظة أن ترجمات سوريانية أحسن وأحدث كانت تعد فى الوقت الذى كانت تبدأ فيه الترجمات العربية ، وقد دامت الترجمة إلى السوريانية طالما بقيت مدرسة جنديسابور .

والنتيجة العامة أن العمل فى الترجمة العلمية قد بدأ فى عهد هرون الرشيد ؛ بتشجيع الوزير جعفر بن برمك ، وأن هـذه الترجمة عنيت فى البـداية بمؤلفات الرياضة والفلك . وقد ترجم هذه المؤلفات علماء من « مرو » المدينة التى جاء منها جعفر ؛ وربما بدأت ترجمة المؤلفات الطبية بعد ذلك بقليل ، وأنها كانت على صلة بجبريل الثانى . ويبدو أنه كان ثمة عدد من المترجمين الآخرين ، الذين لا صلة بينهم وبين هـذه المجموعة نصـف الرسمية ، التى تجمعت فى البلاط ، وقد جاءت الترجمات الطبية من نسخ بالسريانية أولا ، وكذلك كانت الحال مع بعض مادة الرياضة والفلك على الأقل ، ولـكن فيما يخص الرياضة ، يبدو أننا قد أشرنا إلى رجوعهم إلى الأصول الإغريقية من قبل . وقد كان هذا من المتوقع ، لأن أهم شىء فى الرياضة هو الدقة المطلقة فى الاصطلاحات . ولم يكن فى العربيـة مثل الاصطلاحات التى يستخدمها علماء الأغريق ، ومن ثم ترجمت الاصطلاحات الأغريقية أحيانا ، ولـكن هذه الاصطلاحات يبدو عليها فى بعض الأحيان

أنها مرت بالآرامية والسريانية في طريقها وهذا أوضح في الاصطلاحات الطبية منه في الرياضية والفلكية ، وعظمت الرغبة كما أشرنا من قبل في دقة المعارف العلمية ، فأدى ذلك إلى إعـــداد ترجمات أدق ، أو إلى مراجعة الترجمات الموجودة فعلا ، ولكنها أدت كذلك إلى وضع تعليقات ومؤلفات ، مبينة المراجع الإغريقية ، مع اقتباسات توضح وتشرح المؤلف الأصلي ، وأصبح من بدعة العصر تشجيع العلم في عهد هرون الرشيد ، وأصبح الكثير من رجال البلاط من دعاة هذه الحركة ، وانفقوا بسخاء على من كانوا في رعايتهم من المترجمين . ولم يكن كل هؤلاء يستوحي عمله هذا من الحب الخالص للعلم ، بل إنه حين أصبح تشجيع العلم بدعة في العصر ، يبدو أن الكثيرين من محي الظهور أرادوا أن يعلنوا عن أنفسهم بهذا التشجيع ، وهذه الحركة العلمية وجدت صدى خافتا خارج دوائر القصر ، ولم يعن العرب بها بصفة عامة ، فقد قضى علماؤهم الوقت في دراسة القرآن والفقه والنحو ، ولم يحـــدث مجهود جدي في فلسفة أرسطو حتى نهاية عصر هرون الرشيد ، لأن أرسطو حتى ذلك الوقت كان في نظرهم حجة في المنطق فحسب .

لقد مات هرون الرشيد عام ٨٠٨ ، تاركا وراءه أمبراطورية لابنيه الأمين والمأمون ، فأخذ الأول النصف الغربي وعاصمته بغداد ، واستولى الثاني على النصف الشرقي واتخذ مرو عاصمة له . ولم يدم هذا الحل . وكان من الطبيعي أن تبدأ حرب أهلية بين الأخوين ، وتغلب جيش المأمون الذي كان أحسن قيادة ، حتى حاصر بغداد بقيادة طاهر عام ٨١٢ ، وجاء هذا الحصار بمتاعب لا نهاية لهـا ، حتى اضطر الأمين أن يفرض فروضا ثقيلة على المواطنين ، فدخل التجار في مكاتبات مع طاهر ، ولما علم الأمين

أن الخيانة وقعت فى صفوفه أراد الهرب ، وخرج يريد الخضوع لطاهر، فوجده بعض مرتزقة الفرس وقتلوه . وقد وصف الخوازرمى هذه الحوادث فى قصيدة قصصية نادرة المثال فى اللغة العربية .

وبموت الأمين وقعت الأمبراطورية جميعها فى قبضة المأمون، ولكنه فضل أن يظل فى مرو ، وأرسل الحسن بن سهل إلى بغداد نائبا عنه . وعمر حكم الحسن ست سنوات ، كانت كلها طغيانا وارتباكا ، صائراً بالتدريج إلى فوضى ، ولم يعلم المأمون بشىء من ذلك . وأخيراً ثارت المدينة ، واختارت منصور بن مهدى حاكما لها ، حتى يستطيع المأمون أن يباشر حكمها بنفسه . وهناك سبب آخر لسخط بغداد بالإضافة إلى طغيان الحسن ، فقد دعى المأمون المطالب بالعرش من العلويين على الرضا إلى مرو ، واستقبله استقبالا فخما ، ووعده أن يجعله ولى عهده ، فغضب لذلك أهل بغداد التى لم ترحب بأن تكون تحت حكم الشيعة .

وعلم الخليفة فى النهاية بسوء الحالة ، وأنذر بأنه إذا لم يذهب إلى بغداد ويأخذ أزمة الأمور فى يديه ، فقد تفلت الخلافة منه . وبهذا الانذار بدأ رحلته إلى بغداد عام ٨١٩ ، بعد أن تخلص بالسم من على الرضا ، وأخذ معه بلاطا واسعا بذخا، وجيشاً ، وطائفة مختارة من العلماء ، لأنه كان بنفسه شغوفا جدا بالدراسات العلمية ، واستقبله البغداديون بفرح عظيم . لقد كان حسن المظهر ، وذلك شىء يعنى الكثير بالنسبة لأمر الشرق ، وكان كريماً أو سخيا لدرجة التبذير ، وكان يعتبر على وجه العموم ذكيا حازما صادق الحكم حليما . ويقول المؤرخون : إن الله أنعم عليه بكل النعم والأفضال التى تجعله أميرا مثاليا . ولكونه تلقى ثقافته فى مرو ، فى محيط

الملينية المحدثة ، طبق القواعد الفلسفية على العقائد الإسلامية ؛ ولا شك أن آخرين قد فعلوا نفس الشيء ، ومنهم أتقياء صالحون ، ولكنهم كانوا حريصين على الاحتفاظ بطلاء خارجي حين تناولوا الأمور الدينية بكل احترام . وليس كذلك المأمون . لقد كان يتذوق نقاش المسائل الدينية ، وقد فعل ذلك بحرية عظيمة ، حتى إن أحد رجال بلاطه مرة لقبه مازحا « أميرا الملحدين » (Prince of Unbéliever:) ، وهو مزاح سمح له أن يمر ، ولكن المازح لم يعف عنه أبدا . ولم يكن ، وهو الميال إلى الفرس ، الجانح ضد العرب ، وابن الفارسية ، وزوج الفارسية ، ليشارك البغداديين الأصلاء تعصبهم المتزمت . وكان لسوء الحظ مقتنعا بآراء المعتزلة ، حتى لقد صمم على فرضها على رعيته ، مختارا من بينها مسألة يختبر الناس بها ؛ هي مسألة خلق القرآن . وأذاع في عام ٨٢٧ أمرا يقضي بعقاب من لم يقل بخلق القرآن ، وعدم قدمه بقدم الله . وقد غضب الناس لهذا الأمر ؛ واعتبروه بدعة ، لأن الإسلام لم يقم الخليفة معلما دينيا ، وإن أمور الدين لا تحددها الدولة ، ولكن يحددها علماء الإلهيات . ولما لم ينجح هذا الأمر ، أعاد المأمون نشرة في عبارات أحزم ، واستنكار شكس لعدم طاعة أوامره ، وخلق محنة بإحضار الناس وسؤالهم عن عقيدتهم ، فإذا خالفوا تحكيم العقل الذي شرعته الدولة ، عرضوا أنفسهم للعقاب . وقد قضى بعض الشهداء نتيجة لهذا القانون ، وسجن قوم ، وعذبوا ، منهم أحمد بن حنبل الفقيه والمحدث المحترم ، وقد اعتبر هؤلاء الذين عذبوا من الأولياء .

وبعد وصوله إلى بغداد بعشر سنين ، حاول المأمون أن يعيد تجربة

االعالم الهندسى الإغريقى ايراطو سثينيس ، بأن يقيس جزءا من محيط دائرة الأرض . ومن أجل هذا جمع طائفة من العلماء فى سهل سنجار ، بالعراق ، غرب الموصل ، وكان من هؤلاء العلماء أبو الطيب سند بن على (المتوفى بعد عام ٨٦٠) ، وهو الذى أشرف فيما بعد على بناء مرصد بغداد ، ثم يحى بن أبى منصور المأمونى ، وهو عتيق ينسب الى أسرة المأمون ، ثم العباسى بن سعيد الجوهرى (المتوفى بعد عام ٨٣٣) ، وعلى ابن عيسى الأسطرلابى . وقد قسم هؤلاء إلى مجموعتين ، سارت كل منهما تستدبر الأخرى ، حتى رأتا تحولا بقدر درجة فى إيقاع العمود (Pole) . وقد وجد بقياس المسافة التى سيرت أن إحدى الطائفتين سارت سبعة وخمسين ميلا ، وأن الأخرى سارت ثمانية وخمسين ميلا ونصف ميل ، وأن كل ميل فى هذا القياس كان يساوى أربعة آلاف ذراع (black cubit) ، وهذا قياس استحدث لهذه التجربة . وقد أعيدت التجربة عام ٨٣٢ ، فى قسيان بجانب دمشق .

وحين غادر جبريل جنديسابور قاصداً بغداد ، خلفه على رياسة المدرسة والمستشفى هناك أبو زكريا يحى بن ماسويه (المتوفى ٨٥٧) ، وهو نسطورى وابن صانع عقاقير ، تلقى تدريبه تلميذاً لعيسى بن نون ، الذى أصبح بطريرقا نسطوريا عام ٨٢٣ . وكان الطب فى ذلك الوقت يحتل مركزا ممتازا بين العلوم ، حتى لقد اعتبروه فى مقدمتها ، ومن هنا صار من الشائع أن تجد رجال الدين النساطرة واليعاقبة فى آسيا من أصحاب الثقافة الطبية ، أكثر مما كانوا من أصحاب الثقافة الأدبية أو الإنسانية . ولكن ابن ماسويه ترك جنديسابور ، وذهب إلى بغداد ، باقتراح من جبريل ، وقدموه إلى البلاط باعتباره طبيبا ماهرا ، وعالما فى الطب الإغريقى . وقد ألف كتابا

فى طب العين Ophthalmology عنوانه « دغل العين »، ومجموعة من الحكم الطبية سماها « النوادر الطبية » ، وقد أهداها لتلميذه حنين ابن اسحق . وقد اشتهر هذا المؤلف الأخير وترجم إلى اللاتينية ، ونسب خطأ إلى القديس يوحنا الدمشقى . وفى عصر متأخر أصبح كتاب ابن ماسويه عن العين حجة ، حتى لقد جعلوه أحد المتون فى الامتحان الذى أنشأه الخليفة القاهر عام ٩٣٢ — ٩٣٤ ، لمنح إجازة مباشرة الطب ، وكان هذا الامتحان فى المبدأ تحت إشراف سنان ابن ثابت . وهناك أيضاً « تعليمات لامتحان أطبـــاء العيون » تنسب إليه ، ولكنها فى كتاب محشو ، مبنى على دغل العين ، وربما جمعت فى عصر لاحق ، ليذاكرها الطلبة الذين يستعدون للامتحان . أما دغل العين ، « فأول مؤلف فى طب العين ، لأن المؤلفات بالإغريقية ، وبالسريانية ، واللغات الأخرى، قد فقدت . ولقد كتب هذا الكتاب بعربية ركيكة ، مع استعمال اصطلاحات إغريقية ، وسريانية ، وفارسية ، فهو مجموعة مربكة ، بلا نظام ، وهى بلاشك تختلط بما جاء بعدها من الحواشى (inte polations) وتوجد نسخة خطية كاملة من هذا الكتاب فى مكتبة تيمور باشا بالقاهرة ، وأخرى فى لينجراد (.M. Meyerhof The Book of the Ten Treatises, Cairo 1928, IX-X) وتوجد تحليلات ومقتطفات بالألمانية من عمل مايرهوف (M. Meyerhof) وسى برويفر (C . Preufer)

Die Augenheilkunde de sJuhanne ibn Mosawaih in Der Islam, vi, 1915 ,pp. 217—256.

٢ — حنين ابن اسحق

وأشهر مترجمى المؤلفات العلمية الإغريقية إلى العربية حنين بن اسحق.

العبادى (المتوفى عام ٨٧٣ أو ٨٧٧) . والخطوط العامة لحياته معروفة معرفة تامة ، من سيرته المكتوبة فى صورة كتب منه إلى على بن يحيى عام ٨٧٥ . (والنص من مخطوطتين فى مسجد أيا صوفيا فى استامبول ، نشرهما مع ترجمة لهاج . برجستر اسر . ليبزج ١٩٢٥) لقد جاء حنين من مدينة الحيرة ، وكان أبوه صانع عقاقير مسيحياً ،(نسطورياً) ، وقد تعلم العربية فى أخريات أيامه ، ومن ثم نرجح أنه لم يكن من الطبقة الحاكمة فى الحيرة وهى طبقة كانت تتكلم العربية ؛ ويشهد لهذا لقبه (العبادى) ، الذى يبدو منه أنه كان ينتمى إلى المحكومين فى الحيرة . وقد حضر فى شبابه محاضرات ابن ماسويه (انظر أعلاه) فى جنديسابور ، وإلى هذا الحد رضى أستاذه عنه ، حتى جعله صيدليا عنده . ولكنه بعد ذلك أزعج ابن ماسويه بكثرة أسئلته فى حجرة الدراسة ، ففقد أستاذه صبره وقال : « ما لأهل الحيرة والطب ، ؟ عليك ببيع الفلوس فى الطريق ، وطرده وهو يبكى (ابن القفطى ١٧٤)[1] . وذهب حنين لدى طرده من المدرسة إلى أرض الإغريق ، وحصل هنالك على معرفة تامة باللغة الإغريقية ، وخبرة بنقد النصوص على طريقة مدرسة الإسكندرية . وعاد فى الوقت المناسب ، واستقر حينا فى البصرة ، حيث تعلم العربية على يدى الخليل بن أحمد ، ثم ذهب قبل عام ٨٢٦ إلى بغداد ، حيث دخل فى رعاية جبريل ، وأعد له ترجمات لبعض

---

(١) « فلما نشأ حنين أحب العلم ، فدخل بغداد ، وحضر مجلس يوحنا ابن ماسويه ، وجعل يخدمه ويقرأ عليه ، وكان حنين صاحب سؤال ، وكان يصعب على يوحنا ، فسأله حنين فى بعض الأيام مسألة مستفهم ، فحرد يوحنا ، وقال : « مالأهل الحيرةوالطب ؟ عليك ببيع الفلوس فى الطريق . » وأمر به فأخرج من داره باكياً . »
تاريخ الحكماء لابن القفطى ص ١٧٤ .

مؤلفات جالين . مات هرون الرشيد عام ٨٠٨ ،وخلفه المأمون عام٨١٣، بعد حكم قصير عاصف تحت خلافة الأمين ، وهكذا ينتمى نشاط حنين إلى عصر ما بعد هرون الرشيد . وقد بلغ إتقان ترجماته شأوا لم يبلغه غيره من قبل ، حتى لقد بلغ من سرور جبريل به أن قدمه لأبناء موسى الثلاثة ، وهم من رعاة الحركة الثقافية الأغنياء . وكان أبوهم موسى بن شاكر بعد العفو عنه قد استقر فى بغداد ، يقضى بقية عمره فى المتعة الثقافية ، إثر حياة حافلة قضاها فى مهنة قطع الطريق المربحة فى خراسان . وقد دفع بأبنائه إلى الخليفة المأمون ، فعين لهم إسحق بن إبراهيم ، ومن بعده يحي بن أبى منصور ، معلمين ، ومن هذين المعلمين استطاعوا أن يحصلوا على تمرينات فى الرياضيات ولم تكن لهم رغبة قوية فى الطب ، ومع هذا رعوا حنين لرسوخ قدمه فى الترجمة . ومن أبناء موسى ارتقى أكبرهم محمد إلى المناصب الكبرى فى عهد المعتضد (٨٩٢ — ٩٣٢) ، وأظهر مقدرة فى الفلك والهندسة . وأما الابن الثانى أحمد فقد امتاز فى الرياضيات ، واشتهر الأخير حسن فى الهندسة . وكان لهم بيت فى بغداد يقرب باب الطريق ، وهو الباب الذى كان على الطرف الشرقى لجسر بغداد الأكبر على دجلة ، يطل بابه على شارع السوق الأعظم ، بشرق بغداد . وهناك بنوا مرصداً أجروا فيه المراقبات ، بين عام ٨٥٠ — ٨٧٠ . ونحن مدينون لهم بمؤلف فى الهندسة البسيطة ، وهندسة الكريات Plain and spherical geometry ، ومجموعة من المشاكل الهندسية ، ومتنافى الهندسة ، ترجم إلى اللاتينية على يد جرهارد الكريمونى (المتوفى ١١٨٧) بعنوان "Liber Trium Fratrum de Geometria" (ed. n. Curtze in Nova acta d. Kais Leop. Carol. deutscsen Akad Naturforsoche xlix, 109 - 167)

وقد بقى مدة طويلة يعتبر مقدمة للهندسة . ولقد كانوا رعاة أسخياء للبحث

العلمى ، ويروى ابن أبى أصيبعة أنهم انفقوا مرة فى المتوسط ٥٠٠ دينار (أى ٢٠٠ جنيه) فى الشهر على العلماء الذين تحت رعايتهم .

وقدم أبناء موسى ، حنين بن إسحق إلى الخليفة المأمون ، قبل موت جبريل عام ٨٢٨ — ٨٢٩ بزمن ، ويبدو أن الخليفة باقتراح من جبريل أسس مدرسة سماها دار الحكمة ، وجعلها معهدا لإعداد التراجم من كتب علماء الإغريق ، ونشرها بين العرب ، ثم جعل حنين ابن إسحق على رأس هذه المدرسة . ومنذ ذلك الوقت استمرت أعمال الترجمة ، ولم يمض وقت طويل حتى وجد الطلاب العرب أنهم مسلحين بالجزء الأكبر من مؤلفات جالين ، وهيبوقراطس ، وبطليموس ، وإقليدس ؛ وأرسطو ؛ وعلماء آخرين مختلفين من الإغريق . وكان عمل الترجمة ذا وجهين ، فقد وضعت النسخ بالعربية والسريانية ، وكانت هذه النسخ الأخيرة لتحل محل النسخ الأولى المعيبة ، التى كانت فى أيدى الناس . وقد تم صلح بين حنين وبين ابن ماسويه الذى طرده من جنديسابور ، وأصبح عضد حنين القوى . وكان لحنين أصدقاء آخرون كثيرون ، وعملاء ، ومعظمهم من أطباء جنديسابور وهؤلاء الذين تحولوا إلى بغداد ، وتكلموا العربية ، مثل سلامويه بن بنان من تلاميذ جنديسابور ، الذى أصبح طبيب بلاط المعتصم عام ٨٣٢ . وكل هذه التراجمات كانت أحسن مما عرف من قبل ، وتمت من مخطوطات إغريقية جيدة استحضر الكثير منها بأيدى وكلاء الخليفة ؛ الذين أرسلوا إلى الإمبراطورية الرومانية ؛ فانفقـــوا الأموال الطائلة فى شراء أحسن المخطوطات .

وقد ترجم حنين إلى السريانية عشرين كتابا لجالين ؛ اثنـان منها

لبختيشوع بن جبريل ؛ وآخران لسلامويه بن بنان ؛ وواحد لجبريل ؛ وآخر لابن ماسويه ؛ وراجع الست عشرة ترجمة التي وضعها سرجيوس الرسعني . وترجم أربعة عشر مؤلفا إلى العربية ، ثلاثة منها لمحمد بن موسى ، وواحد لأحمد . وقد أنتج هو ومساعدوه نسخا بالسريانية والعربية ؛ ولو أن بعض عمله تفوق في لغة واحدة بلا شك ؛ ولم يتفوق في الأخرى . وأكثر المترجمين من الجيل اللاحق تلقوا تدريبهم على يد حنين أو تلاميذه ، حتى إنه ليقف موقف الزعيم بين المترجمين الجيدين ؛ ولو أن بعض نسخه راجعها المتأخرون .

وقد جعل المنهج الكامل في مدرسة طب الإسكندرية في متناول أيدى الطلاب العرب . واشتمل هذا على مجموعة مختارة من كتب جالين هي :

1 — De sectis.
2 — Ars medica
3 — De pulsibus ad tirones,
4 — Ad Glauconem de medendi methods.
5 — De ossibus ad tirones.
6 — De musculorum dissectione.
7 — De newoiu·n dissectione.
8 — De venarum arteriumque dissectione
9 — De elemertis secundum Hippocratem
10 — De temperamentis.
11 — De facultatibus naturalibus.
12 — De causis et symptomatibus.
13 — De locis affectis.
14 — De pulsibus (four treatises).
15 — De typis.
16 — De crisibus.
17 — De diebus decretorüs.
18 — Methodus medendi.

أما مدى عمل حنين وطريقته فمعروفان لنا من سيرته التي كتبها بنفسه « رسالة حنين بن إسحق » ، ومن كتب بعث بها إلى على بن يحيى عام ٨٦٥ ، وقد طبعت نصوصها وترجماتها من مخطوطات فى مسجد أيا صوفيا باستامبول على يد ج . برجستراسرفى ليبزج عام ١٩٢٥ ، وهو عمل تم تحليله على يد الدكتور مايرهوف فى (Jsis, Viii, 1926,685-724)

وانتهى عصر المأمون عام ٨٣٣ ، فخلفه المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢) الذى وجد صعوبة فى السيطرة على أهل بغداد . فكون حرسا من مماليك الأتراك ، ولكن حرسه الخاص الذى كان يمتاز عن البقية ، سرعان ما أصبح مصدر متاعب ، وتقدم الناس بالشكاوى من سلوكهم . وأخيرا رحل المعتصم وبلاطه إلى سامراء عام ٨٣٦ ، وبقى بلاط الخلفاء هناك إلى عام ٨٩٢ . وقد أثر هؤلاء الجنود فى النشاط العلمى تأثيرا عكسيا ، وتدهورت حال بيت الحكمة ، واستمر تدهوره تحت حكم الواثق (٨٤٢ — ٨٤٧) .

ولما كان ابن الواثق أصغر من أن يخلف أباه على العرش ، فقد بويع أخوه المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١) بالخلافة ، وقد أحدثت بيعته تغيرا كبيرا لقد كان الخلفاء السابقون متسامحين من الناحية الدينية ، وكان المأمون يعتبر فى العموم حر التفكير ، ولكن المتوكل كان من أهل السنة المتشددين ، بل كان متعصبا لمذهبه السنى ، وقد يكون ذلك لخوفه من كراهية النصارى السوريين . كان المتوكل ذا مزاج تعذيبى (سادى) ، عابثا ، قاسيا ، ومع أنه لم يكن على علم كما كان المأمون . كان يشمل العلم والعلماء برعايته ، وأعاد فتح دار الحكمة ، ورصد لها هبات جديدة ، ولقد تم خير أعمال

الترجمة فى عصره ، إذ أن تدريب المترجمين وتجاربهم قد بدأت حينئذ تؤتى ثمراتها .

أما العلاقات الشخصية بين المتوكل وبين حنين بن إسحق ، فقد كانت متقلبة . ويروى أن الخليفة أمره بإعداد سم لأعدائه ، فلما رفض حنين أن يمده ، ألقى به المتوكل فى السجن . ولم يطل مقامه به حتى أطلق سراحه ، وأوضح المتوكل له أنه إنما أراد أن يختبر ولاءه لمهنة الطب . ثم اتهمه طبيب نسطورى اسمه إسرائيل بن زكريا الطيفورى ، أو اتهمه صديقه بختيشوع ، بالإلحاد أى الميل عن النسطورية ، لأن حنين لم يتبع الإسلام فى حياته . وكانت الكنيسة النسطورية ، كبقية الجاليات الدينية التى عاشت فى الدولة الإسلامية ، مستقلة بأحكامها فى الأمور الخاصة بأفرادها فكانت تستطيع معاقبة الملحدين والمذنبين الآخرين ، مع أن الخليفة يظهر فى القصة بدون مسوغ . فيقال إن الخليفة قد أمر حنين أن يبصق على صورة العذراء أم الرب Theotolkes المقدسة ، فلما رفض حنين ، بعث به إلى ثيودوسيوس المطران النسطورى (Catholicos) ، الذى حبسه وعذبه . ويبدو من هذا أن الخليفة قد دعاه إلى نبذ المسيحية ، فلما لم يجبه إلى طلبه سلمه إلى المطران النسطورى ليعاقبه . وربما اشتملت هذه القصة الغامضة المختلطة على صدى للمناقشات التى تدور حول تحطيم الصور المقدسة (الايقونات) (Jconoclastic Controversy) ، التى كانت تضطرب بها الكنيسة الشرقية فى ذلك الوقت .

ولقد صادر المتوكل أملاك حنين ، وفيها مكتبته ، التى أحس بفقدها إحساسا مرا .

ثم أطلق سراحه بعد أربعة شهور ، من أجل علاج ناجح لمرض أحد رجال البلاط وأعيدت إليه ممتلكاته ومكتبته . ويبدو الأمر كله فى صورة مكيدة فيما بين أطباء البلاط ، لأنه حين أطلق سراحه اضطر بقية الأطباء فى البلاط إلى تعويضه بعشرة آلاف درهم (١٠٠٠٠) .

ولقد عاش بعد إطلاق سراحه عشرين سنة أخرى ، قضاها فى وضع ترجمات ، وتصحيح ما وضعه الآخرون من ترجمات . واغتيل المتوكل عام ٨٦١ ، بيد حراسه الأتراك ، وبتحريض من ابنه . وقد نال حنين حظوة هذا الابن (المنتصر ٨٦١ — ٨٦٢) ، وخلفائه المستعين (٨٦٢ — ٨٦٦) ، والمعتز (٨٦٦ — ٨٦٩) ، والمهتدى (٨٦٩ — ٨٧٠) ، والمعتمد (٨٧٠ — ٨٩٢) . وكان يشتغل بترجمة كتاب جالين De Constitutione artis medicae حين وفاته عام ٨٧٣ ، كما يقول الفهرست ، أو عام ٨٧٧ ، كما يرى ابن أبى أصيبعة ، وهو فى الغالب غير دقيق فى ذكر التواريخ . ويقول ابن أبى أصيبعة ، إن حنين ألف أكثر من مائة كتاب من عمله هو ، ولكن لم يبق إلا القليل من هذه المؤلفات . ويجب أن ينسب الفضل فى حنين كبير المترجمين إلى جند يسابور . بالرغم من أن معلوماته الأوسع والأدق إنما جاءته عن طريق بلاد الإغريق ، لأن هذه الأسفار والدراسات لم يدفعه إليها إلا ما تعلمه فى جند يسابور ، على يد ابن ماسويه .

وبالرغم من أن المتوكل كان متشدداً متعصبا قاسيا ، كان راعيا كريما للبحث العلمى ؛ وينسب إليه بصفة عامة أنه أعاد منحة دار الحكمة ، وربما كان معنى ذلك أنه أعاد فتحها . بعد العهد المضطرب الذى تبع

موت المأمون ، كما أعاد إليها المنحة التى كانت مخصصة لها . ولقد تم أحسن أعمال هذه المدرسة فى عهد المتوكل ، لأن التجارب أظهرت تأثيرها فى ذلك العصر ، وأحيط حنين بتلاميذ مدربين .

ومن بين هؤلاء الذين عملوا مع حنين ، يجب أن نشير إلى ابنه إسحق المتوفى فى نوفمبر عام ٩١٠ أو ٩١١ ، وابن أخيه حبيش بن الحسن الذى كان يعمل فى أيام المتوكل . ولقد ترجم نصوصا إغريقية من أعمال هيبو قراطيس ، ومؤلفا فى النبات من عمل ديوسكوريديس ، أصبح فيما بعد أساسا لكل ما كتبه العرب عن العقاقير Pharmacopoeia (أنظر بعده) ومما يستحق الملاحظة أن معظم أسماء النباتات باللغة العربية يظهر فيه أنه كان فى صورة أخرى آرامية (سوريانية) (cf. Loew; Aramäische Pflanzennamen, 1881.)

ومن يستحق الإشارة تلميذ آخر اسمه عيسى بن يحى بن إبراهيم ، كان يترجم المؤلفات الطبية إلى العربية ، وكان كل كبار العلماء فى الجيل التالى على وجه التقريب من تلاميذ حنين .

ومع أن حبيشا يعتبر هو الذى ترجم كتاب ديوسكو ريديس ، تجرى نسبة النسخة العربية الشائعة عموما إلى ستفانوس بن باسيلوس ، تلميذ حنين ، الذى ترجم هذا المؤلف إلى السريانية ،ثم ترجمت نسخته السريانية إلى العربية ، على يد حنين نفسه ، أو على يد حبيش ، من أجل محمد ، أحد أبناء موسى . ولكن نسخة مستقلة أخرى من كتاب ديوسكوريديس قد وضعت بعد ذلك بالأسبانية (قارن بعده)

٣ — مترجمون آخرون .

وفيما حول عام ٩٠٨ ، ترجم قسيس اسمه يوسف الخورى القس كتاب أرشميدس (مفقود) عن المثلثات ، من نسخة سريانية ، ثم راجع هذه الترجمة فيما بعد ثابت بن قرة . وهو الذى وضع كذلك ترجمة عربية لكتاب جالين De simplicibus temperamentis et facultatibus وقد راجع ذلك فيما بعد حنين بن إسحق .

ولقد عاش قسطا بن لوقا البعلبكى حوالى ذلك الوقت (٩١٢ — ٩١٣) ، وهو مسيحى سورى وضع ترجمته لمؤلف هبسكايس ، راجعها الكندى من بعده ، وأخرى لكتاب ثيودوسيوس Sphaerica ، وراجعها بعد ذلك ثابت بن قرة ، وثالثه لمؤلف هرون فى المكانيكا ، ثم أوتوليكوس وثيوفراستوس (Meteora) ، وقائمة كتب جالين ، ومؤلف يوحنا فيلوپونوس عن طبيعة أرسطو ، وكتبا أخرى كثيرة ، وراجع كذلك ما كان موجوداً من ترجمة إقليدس .

أما أبو بشر متى بن يونس القنائى المتوفى عام ٩٤٠ ، فقد كان مسئولا عن ترجمة كتاب الشعر لأرسطو .

وقد ترجمت أعمال أخرى فى الطب والمنطق على يد أبى زكريا يحى ابن عدى المنطقى اليعقوبى المتوفى عام ٩٧٤ ، ومن بين هذه Prolegomena أو التقديم الذى وضعه أمونيوس على كتاب إيساغوجى لفورفوريوس

ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء مترجم متأخر هو الحنين بن إبراهيم بن الحسن بن خورشيد الطبرى الناطلى المتوفى عام ٩٩٠ ، ثم أبو على عيسى ابن إسحق بن زرعة المتوفى فى ١٦ أبريل عام ١٠٠٨ ، الذى وضع ترجمات لبعض المؤلفات فى الطب والفلسفة ، وتنتهى بهؤلاء طائفة المترجمين فى آسيا ، ويتحول النشاط بعد ذلك إلى التعليق والعرض مع المراجعة أحيانا لبعض الترجمات القديمة .

ويظهر عهد نهائى للترجمة فى الأندلس ، وهى الجزء الذى احتله العرب من أسبانيا ، فلقد أنشأ الأمير الأموى الهارب عبد الرحمن هناك مملكة مستقلة عام ٧٥٥ ، واتخذ الأمير الثامن فى هذه الدولة الأندلسية عبد الرحمن الثالث لنفسه لقب الخلافة عام ٩٢٩ .

وهكذا أصبح لقرطبة خلفاؤها منذ عام ٩٢٩ إلى عام ٩٧٨ ، وكانت العلاقات بينهم وبين العباسيين فى الشرق سيئة فى العادة ، ولكنها كانت علاقة صداقة مع إمبراطور بيزنطة ، الذى كان عدوهم . وفى عام ٩٤٩ ، أرسل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع سفارة إلى قرطبة ، وكان من بين الهدايا التى أرسلها إلى عبد الرحمن نسخة إغريقية من ديوسكوريدس ، مع صور مرسومة لنباتات كثيرة موصوفة فى نصوص الكتاب . وقد استحوذ هذا الكتاب على انتباه كبير ، ولكن أحدا فى قرطبة لم يكن يقرأ لغة الإغريق ، ولهذا طلب الأمير فى شكره للإمبراطور أن يرسل إليه أحدا يستطيع أن يترجم هذا الكتاب ويشرحه . وفى عام ٩٥١ أرسل الإمبراطور راهبا اسمه نيقولاس يتكلم العربية ، فلم يضع ترجمات

لديوسكوريدس ومؤلفات إغريقية أخرى فحسب ، بل بدأ أيضا يعلم الناس اللغة الإغريقية ، فخلقت دروسه حماسة عظيمة ، وحضرها بعض رجال البلاط ، ومن بينهم حصداى بن شبروط الوزير اليهودى . وكان هناك بعض الترجمات لديوسكوريديس فى ذلك الوقت ، كترجمة حنين بن اسحق من النسخة السريانية ، التى وضعها تلميذه سنفاتوس بن باسيلوس ، وترجمة الناطلى للأمير أبى على السنجورى . ولكن نيقولاس وضع ترجمة أحسن ، جهد فيها أن يعين النباتات الموصوفة ، وبهذا وضع أساس دراسة جدية للنبات سرعان ما ظهرت آثارها فى كتاب أبى داود سليمان بن جلجل (حوالى ١٠٠٠) ، طبيب هشام الثانى ، الذى خلف عبد الرحمن . وقد كتب ملحقا لديوسكوريديس ، وصف فيها عددا من النباتات التى توجد فى أسبانيا ، وهى أرض لها غنى خاص بالنباتات ، ولكنها لم تكن معروفة للمؤلف الإغريقى . ومع أن الأندلس كان لها محصول زراعى غنى ، وأن حكم عبد الرحمن الثالث كان عهدا ذهبيا للثقافة الأندلسية ، لا يبدو أن هناك ترجمات من الإغريقية غير هذه . أما النسخة الأندلسية من كتاب ديوسكوريديس ، فلا تزال موجودة فى مخطوطة المكتبة البودليانية Bodleian ، ويظهر أن النسخة الأقدم التى أعدها حنين بن اسحق ، أو الناطلى ، لم تكن معروفة فى أسبانيا .

٤ — ثابت بن قرة .

وثابت بن قرة شهير بين هؤلاء الذين راجعوا وصححوا الترجمات العربية فى المؤلفات الرياضية والفلكية ، وخلقوا ينبوعا جديدا للاهتمام

بالإغريق لقد كان من مدينة حران ، وهى مدينة (Charrae) القديمة . وقد لزم الناس فيها وثنيتهم القديمة لزوماتاما ، بالرغم من أن أسماء الآلهة التى عبدوها مستعارة من مجمع الآلهة الإغريق (Pantheon) . ولقد كان موقعها فى وسط منطقة الثقافة السريانية المسيحية ، بين الرها ورأس عين ، على رافد صغير من وافد الفرات اسمه بلخ Belias ، وكانت شهيرة بنقاء لغتها الآرامية . ونسب هذا أحيانا إلى خلوها نسبيا من النفوذين اليهودى والمسيحى ، بالرغم من أن أسقفا مسيحيا اتخذها فى الحقيقة مقرا لكرسيه ، وأن طائفة مسيحية يحتمل أنها عاشت فيها . ويبدو أن المدينة كانت على صلة ببعث الثقافة ، وهو البعث الذى كان له أثر فى الكنيستين النسطورية واليعقوبية ، والذى رصعت الأفكار فيه بالأفلاطونية الحديثة .

ونحن نأخذ معرفتنا بالديانة القديمة فى حران فى الأعم الأغلب من ملاحظات الدمشقى المتوفى عام ١٣٢٧ من الميلاد ، بعد انقضاء شهرة المدينة بزمن طويل ، وهو لا يمكن لهذا إلا أن يكون قد حصل على معلوماته بهذه الديانة عن طريق الرواية . وقد تم تلخيص معلوماته فى كتاب Die Ssabier und der Ssabismus, ii, 280 - 411. لمؤلفه Chwolson . ومن هذا التلخيص نعلم أن الحرانيين كان لهم معابد خمسة كبرى ، مكرسة على الترتيب للسبب الأول (First Couse). فالعقل الأول First Reason ، فحاكم العالم (the Rulerof the World) ، فالشكل (Form) فالروح (Soul) . وكان ثمت معابد سبعة أخرى مكرسة للكواكب السبعة . وقد كان من الاستثناء بالنسبة لمدينة وثنية أن تتمتع بحريتها فى ظل الحكم الإسلامى ، ولم يكن عدم التدخل راجعا إلى خمول المدينة ، فقد

كانت عاصمة إقليم ديار مصر ، وكانت فى حكم مروان الثانى الخليفة الأموى مقر البلاط والإدارة الحكومية . ويروى صاحب الفهرست قصة تقول إن المأمون فى نهاية حكمه مر بحران فى غزاة له ، فدهش هو وأتباعه من مظهر أهلها الغريب الخشن ، فلما سأل عمن يكون هؤلاء ، وأجيب بأنهم وثنيون ، صدمه الجواب . ويوحى هذا بأن حران لم تكن معروفة للمسلمين على وجه العموم ، وأنها كانت فى إقليم بعيد منعزل ، وهو غير صحيح . ولقد أمر المأمون أهل المدينة أن يعتنقوا إحدى الديانات المعترف بها ، وهى الإسلام ، أو اليهودية ، أو المسيحية ، أو المزدكية ، قبل أن يعود فى طريقه هذه ، ولكنه لم يعد أبداً ، ولكن الناس خافوا وعيده ، واعتنق كثير منهم الإسلام أو المسيحية . أما المزدكية فقد كانت فى ذلك الوقت لا يتحول إليها أحداً ، ولكن آخرين منهم بقوا على وثنيتهم ، وفكروا فى طريقة يتهربون بها من غضب الخليفة . وعرض عليهم أحد القانونيين أن يريهم طريقة ممكنة للتهرب ، فى نظير أجر ، فلما نقدوه أجره ، نصحهم بأن يدعوا أنهم صابئين (Sabaeons) ، لأن هؤلاء قد ورد ذكرهم فى القرآن ، من بين أهل الكتاب (القرآن ٢ — ٥٩[1] ، ٢٢ — ١٧[2] ، ٥ — ٧٣[3]) ، ولا يعلم أحد من هؤلاء الصابئة .

(١) البقرة — ٦٢ « إن الذين أمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(٢) الحج ١٧ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شئ شهيد» .

(٣) المائدة — ٦٩ « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم والآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

وواضح أن هذه القصة مشكوك فى صحتها ، فما كان الحرانيون ليخملوا ذكرهم إلى هذا الحد فى أيام المأمون ، لأن أباه هرون الرشيد كان قد ضغط عليهم باعتبارهم ملحدين ، وقد كانت مدينتهم مقر الحكومة فى أيام مروان الثانى . والقصة محاولة لإيضاح السبب الذى من أجله سمى الحرانيون المتطهرين (Sabaeans) ، وهو اسم نعلم الآن أنه ليس لهم ، إذ أن الصابئين (Sabaeans) الحقيقيين كانوا قوما فى جنوب بلاد العرب ، لا صلة بينهم وبين حران (١) . ولكن المغتسلة (Mandaeans) فى أسفل الفرات والمعمدين بالدم Haemerobaptists من الآباء المسيحيين ، والكتاب الربانيين(rabbinical) ،الذين عرفوا باسم المتطهرين Baptists لمراعاتهم الشكليات فى تطهرهم ، كل هؤلاء كانوا فى الآرامية يسمون الصابئين ، وقد أخذ اسمهم من مادة (ص ب أ) « ummerse » . وقد كان المغتسلة من الغنوصيين الذين كانوا أميل إلى المعتقدات التنجيمية astrological ، وربما كانوا من عباد للنجوم ، ولم يكن أهل حران من الغنوصيين ، ولكن كانت لهم معابد مكرسة للكواكب ، فأضاف ذلك لونا خاصا إلى الخلط بينهم وبين المغتسلة . وربما اختلطت الأفلاطونية الحديثة الحرانية بالمعتقدات الغنوصية ، ومما يستحق النظر أن الحرانيين يدعون أن دياناتهم قد جاءتهم من هرمس(٢) . وهذا مثال عجيب وإن لم يكن وحيد الطريقة التهرب أحيانا من القانون الإسلامى .

أما ثابت بن قرة : (المتوفى عام ٩٠١) فقد كان فى مبدأ أمره صرافا

(١) يخلط المؤلف هنا بين الصابئين والسبئيين فيسمى الأولين باسم الآخرين المعروفين باسم Sabians أو Snbba

(٢) هرمس بن زيوس بنت أطلس إله إغريقى قديم .

فى سوق حران ، فلما انقلب إلى الفلسفة ، برع فيها حتى أصبح خبيراً بلغات ثلاث ، هى الإغريقية . والسريانية ، والعربية ... وقد ألف بالعربية حوالى ١٥٠ بحثاً فى المنطق والرياضيات ، والفلك ، والطب ، وكتب بالسريانية خمسة عشر بحثاً آخر ، (Bar Hebraeus, Chron., 1x,76) وحوالى عام ٨٧٢ ، شلحه كاهن حران الأعظم (ولسوء الحظ لا نعلم شيئاً عن النظام الكهنوتى فى حران) ، وبعث به إلى كفرتوثا (Cafartutha) بالقرب من دارة (Dara) ولكنه بقى مصراً على دينه ، وقال : إن آباءنا بعون الله قد وقفوا وتكلموا بشجاعة . حتى إن هذه المدينة لم يدنسها إثم الناصرة (أى المسيحية) . ونحن ورثتهم والناقلون عنهم الوثنية فى هذه الأيام : سعيد من يحمل حمله فى أمل تقويه الوثنية (نفس المرجع) . وكان من رأيه أن الوثنيين هم الذين بدأوا زراعة الأرض ، وأنشأوا المدن والموانىء ، وكشفوا عن العلم » نفس المرجع » وبعد طوافه فى بلاد مختلفة قابل محمداً أحد أبناء موسى ، فعرف فضله ، وأخذه إلى بغداد ، حيث قام بمعظم أعماله ، فوضع ترجمات لأبولونيوس ، وأرشميدس ، واقليدس ، وبطليموس . وثيودوسيوس . أو راجع الترجمات الموجودة فعلا . وألف كذلك أبحاثاً مختلفة فى الفلك . والرياضيات . ومن المفروض أنه مسئول عن الشكل الميكانيكى الخالص الذى قدمت فيه دراسات بطليموس الكونية إلى العرب ، ولكن هذا لا يكاد يجد الدليل . وقد عرض فى الرياضة نظرية الأعداد الوفاقية (amicable numbe:s) وهى فكرة صينية . هذه الأعداد يساوى واحد منها بمجموع العوامل فى الآخر . فهكذ إذا كانت ل = ٣ × ٢ن - ١ ، م = ٣ × ٢ن - ١ — ١ ، ر = ٩ × ٢ن — ١ — ١ فإذا فرضنا أن « ن » عدد كامل فإن

١ = ٢ ن ل م و ب = ٢ ن ر هى أعداد وفاقيــة . نفرض أن ن = ٢،
ل = ٣ × ٢ ن – ١ = ١١ : م = ٣ × ٢ ن – ١ – = ٥ :
ر = ٩ × ٢ ن – ١ = ٧١ ١١ : م = ٣ × ٢ ىه – ١ – ١ = ٥ :
– = ٩ × ٢ ىه – ١ – ١ = ٧١ فالأعـــداد الوفاقية هنا ا = ٣٢٠ ،
ب = ٢٨٤ وليست هناك نتيجة خطيرة لهذه الدراسة ، ولـكن مسلمة المجريطى وبعض الرياضيين العرب الآخرين قد تابعوها .

وكان لثابت ابن اسمه أبو سعيد عمل طبيباً للخليفة القاهر ، وقد بقى على وثنيته ، ولـكن الخليفة حاول أن يهديه إلى الإسلام وتعود أن يستخدم تهديدات دموية جداً ليرغمه على ما أراد ، حتى هرب الطبيب البائس إلى خراسان ، وبقى هناك حتى مات القاهر ، وعندئذ رجع إلى بغداد وعاش بها حتى مات ٩٤٣ . وكان لثابت تلاميذ كثيرون ، كان أحدهم مسيحياً يسمى عيسى ابن أسد ، ترجم إلى العربية مؤلفات مختلفة ، ألفها ثابت بالسريانية .

وحل الخراب بحران حـــوالى عام ٩٣٢ — ٩٣٤ ، إما بأيدى العلويين كما يقول الحموى ، أو على أيدى الغزاة المصريين كما يقول الدمشقى ويصف يوحنا الأنطاكى المؤرخ المعاصر هذا التخريب .

وفى عام ٩٧٥ نجح أبو اسحق بن هلال كاتب الخليفتين المطيع والطائع فى أن يحصل على أمر بالتسامح الدينى مع الصابئة ، الذين كان منهم عدد فى بغداد ، وظل بعضهم هناك حتى القرن الحادى عشر ، منهم الرياضى الشهير أبو جعفر الخازن ، وقد تحول إلى الإسلام ، وابن وحشية مؤلف كتاب يعرف بالفلاحة النبطية ، ادعى أنه ترجمة من البابلية القديمة . وقد تم هذا المؤلف عام ٩٠٤ ، وهو مجموعة من المعتقدات الشعبية ، والخرافات

والأساطير . وليس فيه أية معلومات نباتية . ولكنه بكل بساطة يهدف إلى التدليل على أن الحضارة البابلية القديمة قد سبقت بعصور طويلة نهضة العرب ، الذين كانت زراعتهم أقل تقدما . وفى الحقيقة أنه مثال للشعور المضاد للعرب ، الذى اصطبغ به العصر العباسى الأول ، ولم يكن لهذا الكتاب أثر فى تطور الثقافة العقلية بين المسلمين العرب .

وبعد أن تهدمت حران عام ٩٣٢ — ٩٣٤، بنيت مرة أخرى ، ولكنها تهدمت مرة أخرى . عام ١٠٣٢ ، حين لم يبق قائماً إلا الهيكل الأعظم لعبادة القمر . وبعد هذه الأحداث المنحوسة ، ظلت تقاسى الأيام وزارها ابن جبير عام ١١٨٤ ، ولكنها لم يجد منها أبو الفداء عام١٣٣٢ إلا قرية صغيرة فى موضعها .

الفصل الثالث عشر

الفلاسفة العرب

لقد سيطرت فلسفة أرسطو على مدرسة الإسكندرية فى أخريات عهودها ، وانتقل نفوذه من ثم إلى العالم المسيحى ، ومنه إلى الإسلام ، وقد نضجت الدراسة السريانية لأرسطو فى مدرسة الرها ، فى القرن الخامس ، حيث كانت تعاليمه حينئذ محصورة فى المنطق . وقد اتصل بذكر بحوث أرسطو فى المنطق كتاب إيساغوجى لفورفوريوس ، وفلسفته ، عن طريق تلخيص الكاتب السريانى داماسيوس Damascius . وقد توصلوا إلى دراسات أكثر عمقا ، عن طريق التعليقات التى وضعها أولا بروبوس Probus السريانى . ثم أمونيوس ، ويوحنا فيلوبونوس ، الاسكندريان . ويجب أن نشير هنا الى أن هذه الدراسات التى شرحت أرسطو كانت فى غالبيتها أفلاطونية حديثة ، وقد بقى هذا الأثر الأفلاطونى الحديث فى الفلسفة العربية ، وأثر فيها ، وفى الإلهيات الإسلامية . وقد زاد هذا النفوذ بقبول تلخيص أفلوطين Enneads, iv - vi ، باعتباره « لاهوت أرسطو » rhe Theology of Aristolle ، وأنه بحث أرسطوطاليسى أصيل .

لقد انتشرت شهرة أرسطو بين المسلمين منذ بدأوا يواجهون عنايتهم الى المادة العلمية الإغريقية، ولكن مضى وقت كانت تعاليمه هى كل ما حصلوا عليه بالاضافة إلى كونها مقدمة فى صورة غير أصيلة ،وحين عرفوها معرفة أدق ،

لم يجدوا كل مافيها مقبولا عندهم ، وعلى الأخص ما يتصل بمذهب أزلية الكون eternity of the universe ، الذى يناقض التعاليم القرآنية ، فيما يختص بالخلق ، وكذلك إنكار العنــاية الخاصة special providence ، الذى يناقض فكرة التحكم الإلهى فى الأمور ، كما يعلمها القرآن ، ثم مايتصل ببعث الجسم ؛ ولم يبد كل ذلك فى نظر أهل السنة خيراً من الإلحاد والكفر . وقد تقبلوا أرسطو فى البداية باعتباره منطقياً ، ثم وضعت ترجمات بعد ذلك لبعض مؤلفاته فى العلوم الطبيعية ، وترجمة أقل دقة لما وراء الطبيعة ، وأضيف إلى ذلك بحوث مختلفة ، ولو أن الوحيد من بينها الذى كان ذا هدف (tendencious) محدد هو ما سمى باللاهوت (Theology) .

ولم تبدأ دراسة أرسطو دراسة حقيقية إلا على يد أبى يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى ، المتوفى بعد عام ٧٧٣ ، وهو المعروف عموما بلقب « فيلسوف العرب » . فكان صريح النسب فى العروبة ، ولو أن كتاب « جهار مقالة » يشير إشارة غريبة إلى أنه يهودى ، بالرغم من التأكيد الذى تلقاه دائماً صراحة نسبه فى العروبة . ولقد ولد فى الكوفة ، حيث كان أبوه حاكما ، وتعلم فى البصرة وبغداد ، وكان لا يزال حيا عام ٨٧٣ . ولقد عمل فى مبدأ أمره مترجما ، ولم يتعهد بأى عمل أصيل ، حتى برهن على مقدرته على وضع ترجمات للبحوث الإغريقية الفلسفية والعلمية . وكرس نفسه بعد ذلك لتعاليم أرسطو ، ويعتبر أول سلسلة من الفلاسفة العرب ، لم تنكر تبعيتها لمدرسة الأرسطوطاليسيين المحدثين . ولقد أطلق المسلمون لقب الفلاسفة على هؤلاء ، ليدلوا باطلاقه على أنهم ذوى ميول لا يمكن

اعتبارهم معها فى عداد المحافظين من أهل الملة . وكانت تأملات الكندى فى الإلهيات من نوع أفكار المعتزلة ، أو الأفكار العقلية التى سادت فى بلاط المأمون ، والتى حاول هذا الأمير أن يفرضها عامة ، باصدار أمر يدعى فيه أن القرآن مخلوق ، وأنه ليس قديما قدم الله . وقد نصبه المأمون معلما للأمير المعتصم ، التى ارتقى العرش حين جاء دوره (٨٣٣— ٨٤٧) ، ويقال إن الكندى ترجم من أجله الكتاب المسمى « إلهيات أرسطو » Theology of Aristotle ، ولو أن هذه الترجمة قد نسبت كذلك إلى عبد المسيح الحمصى ، وهذا أكثر احتمالا ؛ لأن الحمصى كان مسيحيا سوريا ، ولم يقبل هذا البحث قبولا حسنا إلا فى سوريا . وربما كان الحمصى هو الذى ترجمه ، والكندى هو الذى راجعه ، ومن المؤكد أن الكندى تقبله باعتباره بحثا أرسطوطاليسيا أصيلا ، واتبع تعاليمه التى يبدو فيها نوع من اللاهوت الصوفى mystical Theology ، المائل بسهولة إلى تعدد الآلهة pantheism ، وفى الحق إن الميول التعددية قد ظهرت فى الأرسطوطاليسية العربية .

وقد وقع الكندى كغيره من العقليين تحت طائلة شكوك الخليفة المتوكل السنى المتزمت ، عندما بويع بالخلافة عام ٨٤٧ ، فعوقب بمصادرة مكتبته ، كحنين بن أسحق ولكنها عادت إليه بعد قليل .

ويبدو خطره الأكبر فى قبوله أرسطو باعتباره « الفيلسوف » لا كما كان ينظر إليه معلما للمنطق . واعترف بأنه من أتباعه ، واتخذه معلما وحجة ، واعتبره ملهما تقريبا . وبهـــذا كان مؤسسا للمدرسة الأرسطوطاليسية العربية . بالرغم من أن عمله الفعلى كان ترجمة تعاليم

الفيلسوف . وتقديمها إلى العرب ، بديلا من التخمينات الغامضة غير الدقيقة ، التي جمعوها وبالغوا فيها عند النقل عن الشراح السريان . وكانت تعاليم أرسطو تقبل في المدرسة الأرسطوطاليسية العربية ، حتى لو خالفت النص الحرفي للقرآن . واعتبرت هذه التعليمات حقا لا يتضح إلا للمستنيرين ، على حين يصلح القرآن ، والعقائد الدينية ، لعقول الأميين ويتلاءم معهم . وذهب بعض أتباع المدرسة إلى حد أبعد ، فقالوا إن للقرآن معنى خفيا ، لا يعقله إلا ذووا الفطنة ، وإن هذا المعنى الخفي يتفق مع تعاليم أرسطو . تلك هي المشكلة المعروفة ، التي تقول إذا كان العلم والوحي صادقين ، فلا بد من أن يتفقا ، بالرغم من أنهما يبدوان متناقضين .

إن أبا نصر محمداً الفارابي المتوفى عام ٩٥٠ هو الذي كيف تعاليم الأرسطوطاليسية العربية في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب ، وأسس عمله على معرفة أوسع بنصوص أرسطو ، سهلها له جهد الكندي . لقد كان الفارابي من أسرة تركية ، مما وراء النهر ، ولكنه تثقف في بغداد على يد يوحنا بن هيلم ، الطبيب المسيحي ، وأبي بشر متى ، الذي قلنا إنه كان مترجما وكان يعلق على أرسطو ، وبنى لنفسه نظرية فلسفية ، أخذ مادتها من أرسطو ، والأفلاطونية الحديثة ، وقد فهمت الأفلاطونية الحديثة باعتبارها الشرح الحقيقي لتعاليم الفيلسوف ، فكان من نتيجة ذلك خلق ما يمكن اعتباره أفلاطونية حديثة إسلامية ولهذا عرف بالمعلم الثاني ، أي أنه كان الحجة التي لا يسمو عليه إلا أرسطو . وقبل الفارابي حقيقة القرآن ، ولكنه كان يرى أن الفلسفة حق أيضا ، ولهذا لابد أن يتفق الاثنان . فإذا كانا يبدوان على خلاف في بعض المواضع ، فيجب أن نبحث عن التوفيق بينهما ، لأن

الحق يجب أن يتفق ، أما الخلاف فيه ، فيجب أن تشرح مبرراته .

وقد فرض الفارابي أن أفلاطون وأرسطو متفقان فى فلسفتهما ، وكان ذلك هو النظر المقبول فى ذلك الوقت ، ومادام أفلاطون قد عرف فى صورة أفلاطونية حديثة ، كما شرحها فورفوريوس ، فقد أصبحت نظرية الفارابي الناتجة عن ذلك مليئة بالأفلاطونية الحديثة . » وجاء المتدينون بعنصر ثالث هو القرآن . أما بلوغهم هذا المبلغ ، وعدم انتهاء حركتهم هذه بنهاية جنونية ، فيجب أن يظل عجبا عاجبا ، وشاهدا بليغا على مقدرتهم وصبرهم وأما أن يكون الفارابي كاتبا صارما إلى هذا الحد ، ومفكرا ، وتلميذاً متسع الأفق ، وأما أن يكون ابن سينا عالما ومنطقيا حاذقا ، وواضحا إلى هذا الحد ، وأما أن يكون ابن رشد قد عرف — وعرف حقيقة — ، وشرح أرسطو ، كما فعل ، فان ذلك يبدو منه أن الذهن الإنسانى فى نهاية الأمر ذهن عاقل ، وأن له قدرة على أن يرفض ويطرح بلا وعى ، كل هراء

وزيف D.B. Macdonald, Development of Muslim Theology 163

ومما له دلالة خاصة أن كل العلماء والفلاسفة العرب تقريبا قد اعتبروا من أتباع أرسطو ، ويرجعون بنسبهم العقلى إلى الكندى والفارابي ، وأن معظمهم قد اعترف بأنه تابع لهذه المدرسة .

ولكن دراسة الكندى لأرسطو فى أدق حالاتها لم تتخلص من المحاكاة القديمة للمذهب الأرسطوطاليسى ، التى كانت سائدة بين غير المستنيرين من العرب السابقين . وقد اجتمعت جماعة من الرجال سموا أنفسهم إخوان الصفاء ، ومن المحتمل أن يكون هذا الاجتماع فى السنوات الأولى من القرن العاشر ؛ ويبدو أن المقصود من هذا الاسم أن يدل على أنهم من الفلاسفة

فى وقت خلق فيه استيلاء البويهيين المستبدين الحديث على الحكم شيئا من التسامح والتفكير الحر . فحوالى عام ٩٨٠ من الميلاد ، كتبت هذه المجموعة مقالات أو رسائل كان الغرض منها أن تكون دائرة معارف كاملة للفلسفة والعلم . وعدد هذه الرسائل ٥٢ ، تتناول الأربع عشرة الأولى منها الرياضيات والمنطق ، أما الرسائل من ١٥ إلى ٣١ ، فتبحث فى العلوم الطبيعية ، والرسائل من ٣٢ إلى ٤١ ، تعالج الكلام فى الغيبيات (أى ما وراء الطبيعة) ؛ على حين يتناول الباقى اللاهوت الصوفى ، والتنجيم والسحر . وتصف المقالة الخامسة والأربعين نظام الجماعة ، والقواعد التى تجرى عليها الأخوة بين هؤلاء الأخوان . والمشهور أن الإمام أحمد يعتبر صاحب هذا العمل ، ولكن الشهروزى (Shahruzi) يسمى خمسة من المساهمين ، هم أبو حسن على بن هرون الزنجانى ، وأبو أحمد النهجورى (أو المهرجانى) ، وأبو سليمان محمد بن نصر البستى (أو المقدسى)، والعوفى وزيد بن رفاعة . وقد تمت هذه الرسائل بقرب البصرة أو بغداد ، ويبدو من مادتها شىء من الأرسطوطاليسية الغامضة ، أو غير المصقولة ، كتلك التى سادت فى العصر الأول من بعث الثقافة الإغريقية ، قبل أن يشرع الكندى مستوى معينا لها . ولكن هناك إشارات إلى الفلاسفة القدماء ، كهرمس ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وكلها إشارات مختلطة غامضة . ويبدو أرسطو فى نظرهم منطقيا بصفة رئيسية ، ويقبل كتاب « لاهوت أرسطو » The theology of Aristolle ، وكتاب التفاحة ، باعتبارهما من أعمال أرسطو الأصلية . وليس هناك إشارة إلى الكندى وعمله ، ولكن هناك اقتباسات من أبى معشر ، وكتاب آخرين من القرن الثامن أو التاسع . وليس هناك من أثر للكندى وتأثيره . والمذهب الذى

تشتمل عليه هذه الرسائل مذهب انتقائى (eclectic) ، يوصف العالم فيه بأنه منبثق من الله (an emanatio1 from God) ، وتوصف الروح الإنسانية بأنها من أصل سماوى ، وأنها تسعى إلى الرجوع إلى الله ، والفناء فيه ، وذلك تلاش يوصل إليه بالحكمة ، وذلك هو الغنوص (Gnosis)، الذى قال به المؤلفون الغنوصيون ، والأفلاطونيون المحدثون . ويفسر القرآن فيها بطريقة خفية استعارية ، مع الإشـــارة إلى الكتب المقدسة المسيحية واليهودية ، التى تفسر كذلك . وتبدو من هذه التعاليم ميول شيعية واضحة ، ربما كانت إسماعيلية ؛ ولكن اللغة التى يعبر بها عنها معماة غامضة ، ربما كان ذلك عن عمد ، بغية ستر التعاليم الروحية عن ذوى الأرواح المعتمة (prof. ne) . وهذه الحركة الباطنية ترجع فى أصلها إلى أفكار قديمة غير إسلامية ، ويحتمل أن تكون قد بقيت فى أسفل العراق ، حيث وجدت هنالك ديانات قديمة متعددة ، تختلط كلها بحركات سياسية انقلابية ؛ تلك هى المنطقة التى حاول الخليفة المهدى أن يخضع الزناديق (atheists) فيها ، ثم ظهر فيها القرامطة من بعد ذلك ، فهى مهد الإسماعيلية ، وهى على أى حال تكره العباسيين ، وتبغض العرب . ولقد كانت هذه الأفكار الباطنية فى الإسلام أقوى ما تكون عند الإسماعيلية ، وكانت لها ميول غنوصية قوية ، وعلقت أهمية عظمى على ما هو روحى ، وما هو غيبى باطنى (esoteric) ، فى مقابل ما هو ظاهرى (exoteric)، (Lewis, O igin of Isma'ilism, Cambridge 1940, 44 sq.) . وهذا النوع من الفكر يستحق النظر ، لأنه يمثل « الحكمة » التى تعتز بها الإسماعيلية وأتباعها فى الخلافة الفاطمية فى مصر ، وأخيرا الحشاشون فى آسيا الوسطى وسوريا،

وهم فرع من الفاطميين ، وربما اعتز بها الدروز فى لبنان . ومع أنها بعيدة عن الاتجاه الطبيعى للفكر الإسلامى ، لا تزال تكون فرعا حيا قويا من فروع الإسلام ، وإن لم تكن حركة عربية .

لقد أشرنا من قبل إلى موقف « الفلاسفة » من القرآن ، ومن مذهب أهل الملة بصفة عامة ؛ وخير مثال لهذا الموقف يمكن أن يؤخذ من قصة حى بن يقظان ، التى ألفها الفيلسوف الأندلسى أبو بكر محمد بن طفيل ، الذى توفى بالمغرب (مراكش) عام ١١٨٥ — ١١٨٨ . ويصور هذا الكتاب جزيرتين ، إحداهما آهلة ، وتظن الأخرى غير مأهولة . وفى الأولى قوم عاديون ، يعيشون عيشة مألوفة ، ويرضون عن العادات ، وعن الأفكار الدينية . وفيهم شخصيتان ، هما أسل ، وسلمان استطاعا بالرياضة أن يسموا عن مستوى الآخرين ، ويتظاهر سلمان بأنه من أتباع الدين السائد ، ولكن أسل يحاول أن يصل إلى حقائق أعمق عن طريق التأمل . وليكون تأمله أكمل ، تحول إلى الجزيرة الأخرى ، حيث وجد ساكنا واحدا فيها هو حى بن يقظان ، الذى عاش فى الجزيرة منعزلا منذ طفولته ، واتخذ لنفسه فلسفة عميقة بما فى عقله من قوى داخلية ، وكشف عنه الحجاب حتى بدت الأشياء واضحة فى عينه . وحين يتخاطبان ، يصف أسل الحالة البائسة التى عليها سكان الجزيرة الأخرى ، فيشفق حى عليهم فى كلامه ، حتى ليذهب إلى تلك الجزيرة الأخرى ، ويحاول أن يبشر بالفلسفة العليا التى كانت عنده . ولكنه يكتشف بعد قليل أن السكان هنالك كانوا عاجزين عن الارتفاع إلى مستوى تعاليمه ، ووصل فى النهاية

إلى نتيجة هى أن دياناتهم كانت خير مايتناسب مع طاقتهم . ورجع إلى وطنه الأول ، وهناك كرس نفسه لحياة الوحدة والتأمل . ويؤدى هذا إلى نتيجة هى أن الدين على حالته التى يعرفه عليها العامة ، وهى اتباع العقيدة التى نزلت على محمد ، والأفكار التى وضعها الرسول ، هى خير ما يناسب الإنسان الوسط . ولكن الفلسفة التأملية يجب أن تختص بها القلة المختارة ، الذين لا يجب أن ينشروا نتائجهم على جمهور العامة .

تهميشات

١ — الآرامية ص ١١

كان الآراميون هم الفرع الشمالى الخارجى للعرب ، فقد كانوا بدوا فى الصحراء بين العراق وسوريا . وهم يظهرون فى الكتابات البابلية الأشورية ، التى ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، تحت اسم « آريم » ، أو « أخلام » . وقد هددوا الحدود الغربية لإمبراطوريات وادى دجلة والفرات ، وغزوا سوريا التى كانت توجد فيها حضارة قديمة غير سامية ، فتشبعوا بهذه الحضارة ، وتطوروا بها ، ولكنهم فرضوا لغتهم الخاصة على السكان القدماء . وقد حلت لغتهم فى الوقت المناسب محل اللغة الأشورية فى الإمبراطورية الأشورية ، وأصبحت فى النهاية لغة عامة (lingua franca) فى غرب آسيا ، فى أيام الفرس ؛ وهكذا حلت تماما محل اللهجات الكنعانية القديمة حتى لقد انتشرت إلى مصر . وأقدم الوثائق الآرامية الموجودة يهـــودية ، وهى المقطوعات الآرامية من عزرا (٨ / ٤ — ١٨ / ٦) ، ودانيال (ب ٤ / ٢ — ٢٨ / ٧) ، فى العهد القديم ، والنص الآرامى فى عزرا يظهر فى صورة قديمة ، ولكن النص فى دانيال أحدث ، وهناك كتابات من تدمر ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، حيث كان ثمة قوم من الآراميين يعيشون فى ظل أرستوقراطية

عربية . وهناك أخرى من بلاد النبط ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد ، حيث كان ثمة قوم من العرب يستخدمون الآرامية باعتبارها لهجة أدبية ، إذا اعتبرنا الكتابة على الأحجار عملا أدبيا .

وتظهر الآرامية فى العهد المسيحى فى شكل لهجتين ، هما الغربية ، والشرقية ، وبين أولاهما وبين العبرية شبه صوتى ، وربما كانت هذه هى العامية التى تكلمها أهل الساحل فى سوريا وفلسطين . ولكن اللهجة الشرقية تظل أكثر احتفاظا بمظهر الآرامية القديمة ، وتستخدم هذه اللهجة الشرقية فى الآرامية اليهودية فى الترجوم والتلمود (الجمارا) . أما آرامية فلسطين التى بطلت قبل الفتح العربى ، فعرفتنا إياها قاصرة على كشفيات حديثة العهد من سيناء ومصر ، ومن دمشق . أما فى المرتفعات الداخلية ، فقد بقيت الآرامية فى صورة لهجتها الغربية فى بعض المجتمعات فى لبنان فحسب ، ولكن اللهجة الشرقية انتشرت من مرتفعات أرمينيا إلى الخليج الفارسى ، وكتبت بها نصوص وفيرة . أما بؤرة هذا الإنتاج الأدبى فكانت فى الرها ، وكانت مادته خاصة بالعهد المسيحى ، ولو أن ثمة أدب رهاوى يرجع إلى ما قبل المسيحية . وقد اخترع الكتاب الآراميون المسيحيون الاصطلاح « سوراى Suraye » ليدلوا به على لغتهم ، ومنشأ هذا الاسم أن الإقليم الذى به هذه اللغة هو الإقليم الرومانى المسمى سوريا ، ومن ثم أصبح من العادى أن يطلق اسم « السريانية » على الآرامية المسيحية . والظاهرة المميزة لهذه الآرامية هى استخدام النون بدل المضارعة التى تبدو فى اللغات السامية الأخرى .

٣ - الزرادشتية ص ١٦

كانت الديانة البدائية للميديين والفرس من النوع الآرى ، وكان زرادشت مصلحا ، وربما كان يبشر بدينه فى ميديا (بلاد الفرس الشرقية) ، فى القرن السادس قبل الميلاد (ومن ثم كتاب ا . ج . جاكسون . زرادشت فى إيران القديمة Zoroaster the Prophet of Ancient Irar, New York, 1899) ، ولا يشير إليه هيرودوت ، ولكنه يشير إلى الماغى Magi ، أو طبقة الكهنة ، ويعتبرهم واحدة من القبائل الست التى كان الميديون يتكونون منها (Herodotus, i, 101) . ولم تكن وظيفة الكاهن الفارسى أن يضحى ، ولكن أن يحضر التضحية ، ويتلو الصيغ المعهودة التى لا تقبل التضحية بدونها (Herdt., I, 132) ، وبالإضافة إلى هذه المعرفة الخاصة للصيغ المعهودة ، كان المفروض فى الماغى أن تكون لهم قدرة على تفسير الأحلام (Herdt., I, 107) . ويشير هيرودوت إلى اختلاف واضح بين الكهنة المصريين وبين الماغى ، من حيث إن الأولين كانوا حراصا على تجنب سلب الحياة إلا عند تقديم الضحايا ، ولم يكن عند الماغى ما يمنعهم من ذلك ، بل كانو على استعداد لقتل أى حيوان ، إلا الكلب والإنسان (Herdt, I, 140) . ولم يكن موتى الفرس يدفنون إلا بعد أن تمزق الكلاب أو الطيور الجوارح جثثهم (نفس المرجع) . ولم يكن لديانة الميديين والفرس أصنام ولا هياكل ولا مذابح ، ولكن الضحايا قدمت على أعالى الجبال للكون ، والشمس ، والقمر ، والأرض ، والنار ، والماء ، والرياح (Herdt., I31)

ويظهر أن هذه الديانة كما يصفها هيرودوت هى ديانة الميديين ، الذين ظهر زرادشت فى أرضهم ، وربما كان الميديون قد تغلبوا على الفرس فى ذلك الوقت وجاءوهم بالاصلاحات الدينية التى بشر بها زرادشت ، فاتبعها من الفرس علية القوم على الأقل . ومما يشك فيه أن يكون ملوك الخخمانيين الذين حكموا فارس القديمة قبل الاسكندر كانوا من أتباع زرادشت ، ولكن ج . ه . مولتون فى كتابه Eary Zoroastrianism يأتى بأدلة يدافع بها عن أنهم كانوا كذلك .

وتقول الرواية . إن الكتب المقدسة الفارسية قد تلفت فى غزوة الإسكندر ، ولكن من المحتمل أن الصلوات لم تكن كتبت حتى ذلك الوقت ، وواضح أنها لا توجد إلا فى مقطعات مبعثرة .

وحين أنشأ البارثيون مملكة مستقلة حوالى عام ٢٣٨ قبل الميلاد ، اعتنقوا ديانة زرادشت ، واعتزوا « بالنار الخالدة » واحترموها فى المدينة الملكية « آساك Asaak » ، وظلوا كذلك حتى قرب نهاية دولتهم على الأقل . وما اكتشف بعد ذلك من الآفستا المقدسة ترجم إلى البهلوية ، وهى صورة محورة من فارسية الآفستا والنقوش . ولقد كانت اللغة القديمة تكتب على الطريقة المسمارية ، ولكن البهلوية كانت لها أبجدية آرامية الأصل . ويبدو أن المتأخرين من ملوك الأرساقيسيين كانوا يعتنقون ديانة زرادشت ، حتى قرب العهد الذى يقال إن النـــار المقدسة قد خبت فيه .

ومن الواضح أن ديانة زرادشت كانت لها ديانات منافسة ، هى بقاية

الديانات القديمة التى لم يتعرض لها إصلاح زرادشت إلا باللمس الخفيف. ووقع على عاتق الساسانيين الاوائل أن يفرضوا ديانة زرادشت، ويمحوا الأشكال الإلحادية المختلفة. ورُوجعت نصوص الآفستا، وأكملت على يد كاهن اسمه « أتورپاتى ماراسباندان »، فى أيام شاهبور الثانى (٣٠٩ — ٣٧٩) م . وفى عام ٤٥٦ فرض يزدجرد الثانى ديانة زرادشت على أرمينيا فلم تدم هذه الديانة فيها على أى حال. أما العهد الذهبى للزرادشتية والأدب البهلوى، فقد كان أيام حكم خسرو الأول (٥٣١ — ٥٧٨) م . وكانت الزرادشتية فى ذلك الوقت لا تزال ديانة تبشيرية، يفرضها ملوك الفرس على البلاد التى يخضعونها. وهكذا انتشرت شرقا لتنافس البوذية، دون أن تضطهد أتباعها، وكانت البوذية فى ذلك الوقت تنكمش فى وسط آسيا، ولكنها كانت تنتشر بسرعة فى الشرق الأقصى .

٣ — نسطور ص ٧٧

يقول سقراط فى كتابه (Eccles. Hist., vii,29) : إنه كان ثمة مرشحان لكرسى القسطنطينية عند موت سيسينيوس، أحدهما فيليب السيدى الذى يوصف بأنه كاتب طموح، وهو الذى ألف كتابا لم يسمه التاريخ الإكليروسى Ecclesiastical Hist وإنما سماه التاريخ المسيحى Christian History (Socrates, Eccles. Hist. vii,23) : وأما الآخر، فهو بروكلوس، الذى نصبه سيسينيوس أسقفاً على سيزيقوم Cyzicum ولكن أهل هذه المدينة رفضوا أن يقبلوه أسقفاً عليهم

(نفس المرجع ٢٨) . « وعند موت سيسينيوس ، كان الخير للإمبراطور ألا ينصب أيهما ، بالنظر إلى الانقسامات والمنافسات فى داخل الكنيسة حيث ناضل الكثيرون من أجل تنصيب فيليب ، وكثير غيرهم من أجل بروكلوس . ولهـــذا قرروا أن يستدعوا رجلا من أنطاكية ، لأنه كان فى تلك البلدة رجل يسمى نسطور ، ويطلق عليه الجرمانى (نسبة إلى الإمبراطور الرومانى الفصيح Germanicus) ، لفصاحته وأحاديثه الممتعة » (نفس المرجع ٢٩ و ١ — ٣) ؛ وهذا يوضح كيف أن نسطور كان منذ بدء تنصيبه يواجه طائفتين من الخصوم .

« ولقد أحضر نسطور معه من أنطاكية قسيساً يسمى أنسطاسيوس » . وقد حدث أنه « قال ذات يوم وهو يعظ فى الكنيسة : لا يدعون أحدكم مريم أم الرب(theotikos) ، لأن مريم لم تكن إلا امرأة ، ومن المستحيل أن يولد الرب من امرأة » (نفس المرجع ٤٢ و ٢ — ٣) . وفى هذا الوقت بعد مؤتمر نيسين ، أصبحت العقيدة المعترف بها أن عيسى كانت له طبيعتان ، الناسوتية واللاهوتية ، اتحدت كلتاهما فى شخص واحد . وقد كان انسطاسيوس يعنى أن يقول : إن مريم العذراء المباركة لم تكن أما إلا للطبيعة الناسوتية فقط ، ولكن الرأى العام فى القسطنطينية صـــور أنسطاسيوس فى صورة من يريد إحياء تعاليم بولس الساموساطى ، وفوتينوس ، القائلة إن المسيح كان رجـــلا فحسب . ويقول سقراط الذى ينظر إلى نسطور باحترام وعطف : إن نسطور لم يعتنق هذا الرأى . ولم ينكر ألوهية المسيح ، « ولكنه خاف الاصطلاح وحده كما لو كان شبحاً ، وتوجس لهذا بسبب الجهل العظيم » (نفس المرجع ٣٢ ، ١٢) . وأما « الاصطلاح » ، فيراد به بالطبع « أم الرب » . ويبدو أن من الاستنتاج

المنطق من العقيدة القائلة إن المسيح إله ورجل فى وقت ميلاده أن يمنح لقب (أم الرب theorikos) للعذراء . وقد استعمله يوسيبيوس (De Vita Constant , iii, 43) ، كما استعمله القديس سيرسيل المقدسى Catech., x, 146 والقديس أثناسيوس Orat, IIIC.Arianos. XV, 33 ومن ثم لا بد أن يكون قد اعتبر متفقا مع ما قال به مؤتمر نيسين . ويذهب قسيس مقدسى اسمه حزقيوس Heschius ، مات عام ٣٤٣ ، مذهبا أبعد من ذلك فيسمى داود وهو من أســلاف عيسى « أب الرب » (Theopator, Photius Cod. 275) . أما إيضاح نسطور لاعتراضه على الاصطلاح ، فيورده إيفاغريوس Evagrius (Eceles. Hist., i, 7) « فهو يؤكد أنه اضطر إلى الوقوف هذا الموقف للضرورة الملحة ، لانقسام الكنيسة إلى أحزاب ، يرى أحدها أن مريم يجب أن تسمى « أم الإنسان » ويرى الآخر أنها يجب أن تدعى « أم الرب » ، وقد وضع هو لقب « أم عيسى » ، لأن الخطأ (على حسب ما يقول) يمكن أن يحدث باستعمال أحد اللفظتين المتطرفتين ، أى إما باستعمال لقب يوحد توحيداً تاماً بين العنصر الخالد وبين الإنسانية ، أو لقب يعترف بإحدى الطبيعتين ولا يشير إلى الأخرى .

وقد وجهت التهمة فى مؤتمر إفيسوس الى نسطور أنه صرح بأن « المخلوقة لم تلد موجودا بغير خلق ، وإنما ولدت رجلا هو الأداة للإله . إن الروح القدس لم يخلق الرب الكلمة ، ولكنه جعل من العذراء هيكلا يمكن أن يحل الرب الكلمة به ... فهذا الذى ولد ، واقتضى تكوينه زمنا ، وحمل مدة الأشهر الضرورية فى الرحم ، له طبيعة إنسانية ، ولكنها طبيعة متصلة بالله » « Manci, Con.ilia iii, 1194 » .

أما الرأى العادى فى تعاليم نسطور ، فقد كان يقول إن جسم المسيح قد تم حمله بمعجزة من الروح القدس فى مريم العذراء المباركة ، ولكنه ولد إنسانا ، ثم هبط عليه الروح القدس بعد ذلك ، وداخلته الألوهية . وهذا مثل مايقول به القديس أوغسطين De Haeresibus, Apprendex, ch. 91 ولتعزيز ذلك يجب أن نورد كلمات نسطور كما رواها سقراط Eccles. Hist., vii, 34,4 يقول نسطور : « أنا لا أسميه إلها حين كان عمره شهرين أو ثلاثة أشهر » .

وتقول تعاليم محمد . إن روحا هبطت من عند الله ، لتخبر مريم أنها سوف تلد ابنا « القرآن ١٩ — ١٩ »(١) ، وكانت فى ذلك الوقت عذراء « نفس المرجع »(٢) ، ولكنها حملت دون أن تفقد عذرتها « نفس المرجع ٢٨ — ٢٩ »(٣) أما الحمل الإعجازى للعذراء ، فمؤكد ، ولكن المرفوض هو أن الذى لها كان ابنا لله « نفس المرجع ٣٦ ، ٤ ، ١٦٩ »(٤)

(١) « قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً » .

(٢) « قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً » .

(٣) « ياأخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » .

(٤) يقصد آية ٣٥ من سورة مريم ونصها : « ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . » ويقصد كذلك آية ١٧١ من سورة النساء ونصها « يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ؛ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ؛ فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ؛ انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » .

وقد حل به الروح القدس » القرآن ٥ — ١١٠ «[1] وينظر إلى ولادته باعتبارها عملا من أعمال الخلق . وقالت الأم العذراء : « رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . » (القرآن ٨ — ٤٢) « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » (القرآن ١٩ = ١٧ — ٢٢ ، ٥ = ١١٠)

٤ – الحيرة ص ٩٦

أسست الحيرة (بالسريانية حرتا) حوالى عام ٢٤٠ من الميلاد ، وقد ذكرت باعتبارها مدينة بارثية اسمها (ارثا) فى كتاب غلاوكوس (Glaucus) ،المسمى Fragmenta ، طبعة مولار Mullar ص ٤٠٩ ، وفى كتاب ستفانوس البيزنطى ، المسمى Ethnica ، طبعة مينيكه Meineke ص ٢٧٦ . وقد تكونت المدينة من عدد من القصور المحصنة التى كان كل منها من مستطيل يحيط بساحة ، وليس فى محيطه إلا باب واحد ينفتح فى الساحة ، وفى أعلا حوائطه مزاغل (فتحات مستطيلة ضيقة رأسية) للدفاع ، وعلى كل زاوية من زواياه برج . وقد تجمعت كل القصور حول ميدان واسع لم يكن له وسائل دفاع خاصة ، ولم يكن حول هذه القصور سور للمدينة ، كما لم يكن هناك حصن مركزى ، أو قلعة يمكن أن تحفظ

---

(١) يقصد آية ١١٠ من سورة المائدة ونصها : « وإذ قال الله : ياعيسى بن مريم ؟ اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » .

فيها النفائس ، فحين سار خالد بن الوليد فى خريف عام ٦٣٤ إلى الحيرة ليفتحها ، تحصن أهلها بقصورهم ، فلم يستطع خالد أن يأخذها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يستحضروا قطعانهم أو أغنامهم فى مكان أمين ، فتركوها فى الخارج ، فساق العرب الحيوانات إلى زرعهم الذى لم يكن قد حصد ، وعندئذ طلب أهل الحيرة المفاوضة على التسليم .

ولقد عاش العرب من أهل الحيرة فى ظل حكم الأسرة الحاكمة من اللخميين ، الذين منح كبيرهم لقب « ملك » من الملك الفارسى . وقد كان لهؤلاء العرب صلة منذ قديم الزمن بالمبشرين المسيحيين ، وقامت كنيسة هناك منذ بداية القرن الخامس ، ومن بين التوقيعات التى وقعت فى مجالس سيلوقيا عام ٤١٠ توقيع هوشا « أسقف حرتا » . وقد وصف موسيل Musil هـذا المجلس خطأ بأنه مجلس نسطورى ، ولكن النسطوريين لم يوجدوا حتى عام ٤٣٠ ، وكانت هناك مجالس فى الكنيسة الفارسية قبل هذا التاريخ . وقد بقيت الأسرة الحاكمة والمواطنون العرب وثنيين زمنا طويلا على أى حال ، ولم تكن إلا فى عهد البطريق ايشوعيهب (٥٨٢ — ٥٩٥) أن جرى تعميد النعمان الخامس على يد سيميون أسقف الحيرة . ولقد أسست هند أخت النعمان ديراً سمته باسمها فى شمال الحيرة (دير بنى هند) ، وقد أحضر إليه جثمان إيشوعيهب بعد موته فى بيت قوش Beth Ansh ، ودفن . وكان إيشوعيهب قد مات فى منفاه ، حيث هرب من بلاد الفرس ليتجنب غضب كسرى ؛ فبعد أن سقطت الحيرة فى يد خالد عام ٦٣٤ ، خير الحكام العرب بين ثلاث — الاسلام، أو الجزية ، أو الحرب وكان ذلك لأن أهل الحيرة كانوا يعتبرون من بلاد العرب ، التى كان محتما

على أهلها أن يدخلوا فى الأخوة الإسلامية ، ولم يكن هذا الخيار موجها إلى الآراميين من سكان الحيرة . ورضى أهل الحيرة باعتناق الإسلام ، كما كانوا قد فعلوا من قبل موت محمد ، ولكنهم ارتدوا من بعد . أما العباديين وهم السكان الآرامون والمحكومون من الحيرة فقد ظلوا على المسيحية على المذهب النسطورى ، ودفعوا الجزية .

وكان فى وسط الحيرة دير عظيم آخر يعرف بدير ابن مزعوق وكان يؤمه الناس للنزهة فى الأعياد Ash - Shabushti,Diyaret, MS, fo. loir, cited by Musil The Middl Euprates 103

وتبدو الحيرة فى تاريخ الكنيسة حصنا من حصون النسطورية ، ولكن لم تكن دائما كذلك . يقول اليعقوبى فى تاريخه (ed. Houtsma, i, 258) إن قبيلة إياد هاجرت من اليمامة الى الحيرة ، حيث كانت لهم قصور عدة ، ولكنها تحولت بأمر كسرى إلى تكريت ، وهى سوق مركزية لأعالى العراق . وكانت تكريت يعقوبية ، وربما كانت إياد كذلك . فإذا كان بنو إياد مسيحيين حين كانوا بالحيرة ، فلابد أنهم كانوا ضد النساطرة ، ومن المحتمل على أى حال أنهم لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية حين كانوا بالحيرة ، وليس من الواضح أن الحيرة فى ذلك الوقت كانت مسيحية .

ولم يكن بالحيرة مدرسة نسطورية ، برغم كونها مركزاً نسطوريا هاماً ، ومن ثم ذهب المسيحيون الراغبون فى ثقافة أعلا إلى جنديسابور ، كما فعل حنين بن إسحق . ومن إشـــارة ابن ماسويه الساخرة إلى الحيرة وأهلها يبدو أنه كان ينظر إليها باعتبارها بلدا مشغولا بالتجارة ، مهملا للبحث .

ولكن كان القصر الملكى اللخمى فى الحيرة يوحى إلى العرب بالرفاهية والفخامة ، كما يبدو منعكسا فى شعر أولئك الشعراء الأولين الذين اتصلوا بالحيرة . فإذ تغنى الشاعر البدوى القديم بالحروب القبلية ، والتقشف فى حياة الصحراء ، خلط أغانيه بمدح حماته، وهجاء أعدائهم . وهؤلاء الشعراء الذين نعلم صلتهم ببلاط الحيرة يزيدون عنصرا غزليا إلى شعرهم . وغالبا ما يتغنون بمدح النبيذ ، ومجالس الشراب ، وهو موضوع غير مطروق بالنسبة للشاعر البدوى الحقيقى ، ولم تكن الحال كذلك بالنسبة لطرفة ابن العبد ، الذى كان على صلة ببلاط عمرو بن هند (حوالى ٥٥٤ — ٥٦٨) لأن قصائده صيغت قبل أن يذهب إلى البلاط ، كما لم تكن الحال مع لبيد بن ربيعة أبو عقيل (توفى ٦٦١ ، ٦٦٢ أو ٦٦٣) ، الذى يفخر بكونه عضواً فى مجلس الحيرة ، ويبدو فى شعره عنصر جاد خلق ، تنعكس فيه نغمة تعاليم المسيحية فى عصر ما قبل الإسلام ، وهى نغمة واضحة كذلك فى شعر النابغة ، وزهير ، وكلاهما كان مقربا إلى النعمان بن المنذر فى الحيرة . ويشتمل شعر الأعشى ميمون بن قيس على مقطعات تبدو فيها التعاليم المسيحية ، ولكن مقطعات أخرى تتكلم عن النبيذ أو مجالس الشراب أو كليهما ، فيعطى لونا لمخالطته لتجار الخمور الذين عرفهم من نصارى الحيرة .

وأسست الكوفة الى جانب الحيرة بعد عام ٦٣٨ بقليل ، ولما قدم على اليها عام ٦٥٧ ، كانت قد أصبحت مدينة عظيمة ، وكلما نمت تحول أهل الحيرة اليها ، ولكن القصرين العظيمين « الخورنق » و « السدير » ، القريبين منها ، بقيا يستعملان استعمالا جزئيا ، واستغل الخورنق مأوى لرحلات الصيد فى أيام أوائل الخلفاء العباسيين . ويدل على الحيرة الآن

رابية من الأنقاض فى الجنوب الشرقى من رابية « السكنيدرة » ، فى منتصف الطريق بين خرائب الكوفة والخورنق (cf Musil, The Middle Euphrates, p. 36, n 26) .

٥ — بوتيخيس ص ١١٠ :

لقد سئل يوتيخيس وحكم عليه فى مجمع مقدس محلى عقده البطريق. فلاڤيان القسطنطينى وقد وردت إجراءات هذا المجمع فى قرارات مؤتمر كالسيدون (Mansi. Concilia, vi, 649 sqq) ، وحين طلب إليه أن يعترف بأن فى المسيح طبيعتين ، رفض ذلك وحكم عليه (Eutyches letter to Pope Leo in Mansi, 5, 1116 "expetebar duas naturas pateri at anthematizare eos qui hoc negari" وقد فرض أن الطبيعة الانسانية قد فنيت فى الطبيعة الإلهية ، وهذا من التعاليم التى تنسب إلى اليعاقبة كما يفهم من أسمهم « Monophysites » ، وقد رفضوا قرارات كالسيدون . وتأتى الصعوبة من أن الساخطين على مؤتمر كالسيدون يشتملون على طوائف متعددة ، ولم يصل بهذا الرأى إلى نتيجة الطبيعة إلا طائفة واحدة هى اليوليانيون ، أتباع يوليان أسقف هاليكارناسوس ، ولقد وصف هؤلاء اليوليانيون بأنهم Aphtharto doketai أو Phantasiastae ، أى هؤلاء الذين رأوا أن الجسد الإنسانى فى عيسى قد اختلط بالربوبية ، حتى إنه لم يكن له إلا المظهر الإنسانى ، ولم يكن عرضة للعطب ؛ وذلك مذهب ينكره المعتدلون أتباع سيڤيروس الأنطاكى . وكلتا الطائفتين (اليوليانيون والڤيريون) انقسمت إلى شيع فرعية لا تهمنا الآن . واختفى أتباع يوليان فى النهاية اختفاء تاما ، ولكن الباحثين

المحدثين فى اللاهوت بوجه عام ينسبون إلى اليعاقبة جميعا آراء اليوليانيين المتطرفين .

٦ — تكريت ص ١٣٥

كانت تكريت تقع على بعد ثلاثين ميلا شمالا سامراء ، على الشاطىء الأيمن لنهر دجلة ، وكان لها حصن قوى يطل على النهر . ولقد جاءت قبيلة إياد إليها من اليمامة ، بعد أن نقلها كسرى (خسرو ؟) من الحيرة . وكانت تكريت سوقا مركزيا لكل القبائل البدوية التى قطنت ما بين دجلة والفرات .

وأشار ابن حوقل فى القرن العاشر إلى أن معظم سكانها كانوا من المسيحيين ، وأنه كان هناك دير عظيم ؛ وكان مسيحيو تكريت هؤلاء من أعداء النسطورية ، وقد قاوموا محاولة برسومة أن يحولهم إلى المذهب النسطورى عام ٤٤٩ (Bar Hebraus,nChron Ecceles., ii, 67,85) . وعند نشاة اليعقوبية أصبحوا من الأتباع المتحمسين للكنيسة اليعقوبية ، وقد حمل أكبر شخصية بين اليعاقبة الفرس لقب « أسقف تكريت » ، ولكن هؤلاء الأساقفة ظلوا زمنا يقيمون فى دير مار متاى ، وذلك إجراء اقتضاه الأمن ، لأن اليعقوبية لم تكن قد أصبحت موضع تسامح رسمى فى بلاد الفرس ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى مدينة تكريت . وأول أسقف حمل لقب مفريانوس Mafrianus هو « ماروتا » (عام ٦٢٩) . وكان هناك اثنا عشر أسقفا تحت إمرة المفريانوس التكريتى باعتباره مطرانا .

وحين غزا العرب تكريت عام ٦٣٧ ، سلمهم ما رونا حصنها ، وفى هذا الحصن بنى كاتدرائية ظلت هى الكنيسة الرئيسية للبعاقبة الفرس . وكان بريشو Barjesu مفريانوس من ٦٦٩ إلى ٦٨٣ ، فبنى كنيسة فى تكريت تكريما للقديس سرجيوس ، والقديس بكوس Bacchus ، وقد أصبحت هذه الكنيسة فيما بعد ثانى كاتدرائية . أما دنها (Den'a) الذى كان مفريانوس بعد عام ٦٨٤ فقد نصب أساقفة دون إذن من البطريق يوليان ، ولهذا عزل وسجن ، فى دير ، وأعيد إلى عمله بعد موت يوليان ، ثم بنى كنيسة للقديس أحودمة Ahudemmeh ، الذى استشهد لأنه عمد ابنا لأحد ملوك الفرس ، واعتبرت هذه الكنيسة هى الكاتدرائية الثالثة ؛ وبالإضافة إلى هذه الكاتدرائيات كان هناك عددمن الأديرة القديمةالهامة فى تكريت ، ولم يقم المفريانوس أو الرئيس الأعلا للكنيسة اليعقوبية فى تكريت بعد عام ١٥١٣ .

٧ – السنسكريتية ١٨٥

لقـــد تطورت السنسكريتية إلى لغة مقدسة ، وقد لخص پانينى (Panini) نتائج هـذا التطور فى كتـابه أشتادهيايى Astadhyayi ، ويحتمل أن يكون هذا فى القرن الرابع قبل الميلاد . إنها صناعية فى صيغها ، وقد فرض بعضهم أنها صنعة مختلفة أريد بها أن تقابل نفوذ الأدب البالى (Pali literature) ، بإعادة صياغة لغة من لغات أواسط الهند Prakritic ، فى صيغ ڤيدية (Vedie) ، ولـكن هذا مشـــكوك فيه . وقد حدثت تغييرات فى السنسكريتية فى أثناء تاريخها الأدبى الطويل ، وكثير مما

يسوقه پانينى فى تعاليمه لا دليل عليه فى الأدب . والپرقريطية Prakrit نفسها لهجة مشتقة من السنسكريتية القديمة ، وتوجد فى أشـــكال ثلاثة .

(١) البرقريطية الأولى ، وتعتبر الڤيدية والسنسكريتية شـكاين من أشكالها الأدبية .

(٢) البرقريطية الثانية وهى تشمل برقريطية النحاة ، وپالى Pali ، وتمثلها من الناحية الأدبية الأحاديث والأمثال والقصائد والقصص وقواعد السلوك الخ ، ومجموعات كبرى تسمى پيتاكا Pitaka . والقانون البوذى مكون من ثلاث مجموعات من هذه (tipitaka) ثبتت فى النهاية فى سيلان فى القرن الأول الميلادى .

(٣) البرقريطية الثالثة ، وهى المنبع الذى اشتقت منه اللهجات الحديثة .

٨ — الأنبارص ٢٢٤ :

كانت الأنبار (مخازن القمح) تقع على الشاطىء الأيسر للفرات ، وكانت من كبريات مدن العراق . وقد سيطرت على معبر هام من معابر دجلة ، وأصبحت نقطة البدء فى الطريق التجارى عبر الصحراء السورية . وقد أسس هذه المدينة شاهپور الأول ، وسماها بزرگ شاهپور أو فيروز شاهپور ، وهى أيضاً پيريسوپوراس ، التى يذكرها المؤرخ الرومانى أميانوس مارسيلينوس (٢٤ ، ٢ ، ٩ ، ٢٢) . وقد عرفت أيضاً باسم أباريون

Abbareon ، ومر بها الأمير الشاب خسرو الثانى فى طريقه إلى طلب المساعدة من الإمبراطور الرومانى موريس Maurice

وفى أخريات القرن الرابع اتخذ الراهب ماريونان سكنا له فى ضواحيها الخالية ، ومات هنالك ، فبنيت كنيسة على قبره ، ولكن جثمانه نقل بعد ذلك إلى الكنيسة الكبرى فى المدينة ،وفى خارج رقعة المدينة ، كان هناك دير القديس ماريونان المعروف بدير الغراب ، ويذهب إليه الأهلون سنويا باعتباره محجة للنزهة (أبو الفداء . طبعة Joynboll ص١ — ١٤١)،وقد أسس هذا الدير آل المسيح Al - Masih ، حوالى عام ٥٤٠ ، ثم هدمه الخليفة المتوكل عام ٨٥٢ ، وكان مسيحيو الأنبار أو فيروز شاهبور من النساطرة ، وقد اشترك أسقفهم ماشوع فى المجمع المقدس النسطورى عام ٤٨٦ J. - B. Chabot, Synodicon 53 . وكان ثمة على أى حال أسقف يعقوبى اسمه أها عام ٦٢٩ Michael the Syrian, Chronicle ed. Chabot iv, 413 . وحوالى عام ٦٠٠ ،أسس الربانى Rabban أفنى ماران Aphni-Maran دير الزعفران أو حصن الزعفران ، على جبل عال أو بقربه (جبل الجودى) بقرب فيروز شاهبور . وقد أطلق اسم الزعفران عليها العرب ، وكان الاسم الأول « دير أفنى ماران الخركمى » of Khurkma

وبعد أن أنشأ أبو العباس أول خلفاء العباسيين مسجد الكوفة ، ذهب إلى الأنبار وبنى له هناك قصراً ومات بها عام ٧٥٤ . وأقام أخوه وخليفته المنصور هناك حتى تحول إلى عاصمته الجديدة بغداد . وفى عام ٧٩٧ ، أقام هرون الرشيد بالمدينة ، ووجد أن الكثير من أهل خراسان

قد اتخذها مقراً له ، وزار الأنبار مرة أخرى عام ٨٠٣ ، فى طريق عودته من الحج ، وأقام بمسجد العمر ، القريب من دير ماريونان . وفى أثناء إقامته هناك أمر بقتل جعفر بن يحي البرمكى .

٩ — الوكالة اليهودية ص ٢٢٥

كان لليهود دور فى نشر العلم العربى ، وعلى الأخص الطب ، إلى مصر ، والغرب ، وشمال أفريقيا ، وأسبانيا . منـــذ أيام إسحق بن عمران الإسرائيلى ، الذى خدم فى بلاط زيادة الله الثالث (٩٠٢ — ٩٠٣) فى القيروان ، باعتباره طبيباً للبلاط من ناحية ، ومعلما للفلسفة من ناحية أخرى — وقد تلقى العلم فى بغداد ، وكان على صلة بالعمل الذى تم هناك ، فى ترجمة المراجع الإغريقية وعرضها . وقد فشل فى المحاضرة ، لأن زيادة الله كان يحب اللهو والتسلية ، حتى إنه لم يكن له انتباه يصرفه إلى الفلسفة . وحين خاب أمل إسحق فى هذا الاتجاه ، كرس نفسه لدراسة أعمق للطب الإغريقى ، وأصبح فى الطليعة فى جلبه إلى أفريقية ، حيث انتشر غربا إلى المغرب ، ثم إلى الأندلس . والكتاب الذى ألفه «كتاب البول» أحسن كتاب فى هذا الموضوع فى العصور الوسطى . أما كتاب منهج الأطباء (guide to Physicians) الذى لا يوجد نصه العربى الآن فقد ترجم إلى العبرية بعنوان (Manhig or Musar ha-rofe'im) وأصبح أحب متن إلى الأطباء اليهود . ويبدو أنه أول مرجع عربى وصل إلى الغرب المسيحى فى ترجمة لاتينية من وضـــع قسطنطين الإفريقى (١٠٨٧) وقد طبع من بعد فى ليدن عام ١٥١٥ .

ومن ذلك الوقت فصاعدا لعب الأطباء والفلكيون والفلاسفة من اليهود دوراً هاماً فى نقل الثقافة الإغريقية ، كما عرفت وشرحت فى بغداد ، إلى الغرب .

ولكن قبل إسحق كان ثمة بعض الأطباء اليهود فى مصر وسوريا ، ولو أننا ليس لنا علم مفصل بنشاطهم . ويبدو أنهم كانوا على صلة ببعث الثقافة الإغريقية الذى جاش به العالم الهلينى ، وكانت له آثار فى المجتمعات الآرامية (السريانية) . وربما كان لليهود نقل مستقل من الاسكندرية ، التى كانت مركزاً يهوديا هاما . وكان أبو الحسن على بن سهل بن ربان (المتوفى عام ٨٥٠)[١] ، وهو من المؤلفين فى الطب ، مسلما لكن من أب يهودى طبيب من مرو ، تتلمذ عليه محمد بن زكريا الرازى (Rhazes or Rases) ، وهكذا يتضح بجلاء أن علم الطب الإغريق وصل إلى اليهود فى شرقى بلادالفرس . ويقال إن ماشاءالله بن أثرى المتوفى (٨١٥ — ٨٢٠)[١] ، وهو من المنجمين الذين دعاهم المنصور عند إنشاء بغداد ، كان يهوديا . والنتيجة النهائية التى نصل إليها ، هى أنه كان هناك علماء من اليهود (خصوصا أطباء) ، على صلة بإحياء الثقافة الإغريقية ، الذى كان سائداً فى القرن الثامن ، ولو أن واحداً من هؤلاء لا يبدو أنه كان ذا أهمية قبل سهل بن ربان ، وإسحق بن عمران .

فهل كان هناك بعث هلينى مستقل بين اليهود ؟ لا يبدو أن الأمر كان كذلك . لقد كان هناك نسق متتابع من المعلمين اليهود ، والمدارس ، منذ أخريات أيام أورشليم ، ولكن هؤلاء كانوا يهتمون بقانون موسى ،

والروايات التى توضحه ، وتشرحه . وقد نشأت المدارس الربانية الممتازة فى ظل حكم الساسانيين ، فى نهارديا Nehardea . على النيهار Nehar ، بين دجلة والفرات ، وفى ماخوسة Machusa على دجلة بالقرب من طيشفون ، وفى سورا على الفرات ، على بعد ٢٠ فرسخا Parasangs من نهارديا ، وفى بومباديثا ؛ وكان لهذه المدارس تاريخ ، متقطع ، ولكنها ازدهرت فى حكم خسرو الثانى ، ويقال إنها اشتملت على بحث علمى بجانب الدراسات الربانية فى عملها . وليس الحد الذى بلغه هذا النشاط واضحاً . ويقال إن صمويل (المتوفى ٢٥٠) أحد علماء نهارديا ، كان علامة فى الفلك ولكن فى وقت مبكر لم تكن هذه المادة تعرف إلا بالإغريقية ، فكونه علامة إذاً لا يعنى كثيراً . ومن المحتمل أن علمه قصد به القدرة على حساب التواريخ ، ومعرفة الأعياد ، وأوقات الصيام ، ومثل هذا حساب عيد الفصح ، الذى يعتبر عند المسيحيين مما يدخل فى الفلك . ويبدو أن التطور الأعمق للبحث العلمى ، قد جاء بعد ذلك بكثير ، وأنه يرجع إلى مخالطة العالم السريانى الذى احتضن الثقافة الإغريقية فى صورة آرامية . ونضج فى أيام إنشاء بغداد ، أو بعد ذلك بقليل ، فى أيام هرون الرشيد . ويظهر أن سعد غاون Sa'da Gaon فى الفيوم Parhom فى مصر (٨٩٢ — ٩٤٢) الذى وضع ترجمات من العبرية إلى العربية ؛ هو المسئول عن حلول العربية محل العبرية أو الآرامية ، وكونها أصبحت لغة أدبية لليهودية . وطالما ظل هذا الاستعمال للعربية سارياً كان اليهود على صلة وثيقة ، بالفكر العلمى والفلسفى العربى المعاصر . وحينما أعيد استعمال العبرية ، ووضعت ترجمات من العربية إلى العبرية ، وكثير من البحوث العلمية العربية لا نعرفها الآن

إلا فى صورها العبرية . ويظهر من استعراض هذه البحوث أن اهتمام اليهود كان موجها أولا إلى الدراسات الطبية . ولقد لعب اليهود دوراً هاماً فى نقل المادة العلمية من العربية إلى اللاتينية ، عن طريق قرطبة وطليطلة وبرشلونة فى الغالب، وهناك صلة بين النسخ اللاتينية السابقة لهذا العهد وبين مونت كاسينو ، وصور ، وطرابلس (سوريا) ، ثم لها صلة من بعد بالإخوان الدومينيكيين Dminican frairs فى سوريا، وليس هؤلاء Gominican frairs مدينين للباحثين اليهود ، ولو أنه يبدو أنهم اختاروا بحوثا يهودية من مثل اسحق بن عمران (Amran) ، باعتباره خير الدراسات لتعليم علم الطب للغرب المسيحى .

المراجع

المراجع العربية

مسلسل	الكتاب	المؤلف	الأجزاء	الطبعة	السنة
١	ابن أبي أصيبعة	عيون الأنباء فى طبقات الأطباء		كنجزبرج	١٨٨٤
٢	ابن خلكان	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان	١٣	جوتنجن	١٨٤٠ - ١٨٦٥
٣	أبو الفداء	أخبار الإسلام	٥	كوبنهاجن	١٧٨٩ - ١٧٩٤
٤	البلاذرى	كتاب فتوح البلدان(١)		لايدن	١٨٦٣
٥	الطبرى			«	١٨٧٩ - ١٨٩٢
٦	الكندى	دفاع عن النصرانية			
٧	المسعودى	مروج الذهب	٩	باريس	١٨٦١ - ١٨٧٨
٨	حمزة الأصفهانى	تاريخ ملوك الأرض	٢	سان بطرسبرج(٢)	١٨٤٤

(١) يسميه إدوارد فانديك ، فى كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، باسم « فتح الأمصار » .

(٢) يقول فانديك فى ليبزج ١٨٤٤ — ١٨٤٨

٢ – المراجع غير العربية

---

1 — Ahudemmeh. "Life" ed. Nau in Po., iii fasc I, Paris. 1906.

2 — Allman, G. J. Greek Geometry from Thales to Euclid, Dublin, 1889.

3 — Ammianus Marcellinus. Tauchnitz edit., Leibzig, 1876.

4 — Arnold T. W. Preaching of Islam 2nd edit., London, 1913.

5 — Arnold T. W. The caliphate, London 1924.

6 — Assemani, J. S. Bibliotheca Orientalis, i · iii, Rome, 1719—1728.

7 — Bar Hebraeus, Chronicon Ecclestasticum, ed. J. B. Abbeloos et T. J. Lamy, Louvain, 1872· 7.

8 — Bar Hebraeus, Chronicon Syriacum, ed, P. Bedjan, Paris, 1890.

9 — Baumstark, A. Geschichte der syrischen Literatur, Bonn, 1922.

10 — Bergesträsser, G. رسالة حنين بن اسحق Leipzig, 1925 (Analysis by Meyerh of in Isis, viii (1926), 685· 724).

11 — Bevan, E. R. House of Seleucus, 2 Vol., London, 1902.

12 — Bevan, E. R. Hellenism and Christianity, London, 1921.

13 - DeBoer, T. J. Geschichte der Philosophie im Islam, Stüttgart, 1901.(Inadequate but the best anailable).

14 - Bouyges, A. M. Sur le de scientüs d'Alfarabi, Beyrouth, 1924.

15 — Brockelmann, C. Geschichte d. arabisch. Literatur, 2 Vols. I. Weimar, 1898; II. Berlin, 1902. Sup- plementary faciciles, 1937, etc. (Cheifly bibliography. An indispensable work of reference, but with occasional inaccuracies).

16 — Brooks, E. W. "Vitae virorum apud Monophysitrs Celeberrimorum" in CSCO., ii,25. Paris, 1907.

17 - Browne, E.G.History of Arabian Medicine, Cambridge, 1921.

18 - Browne, E. G, چهار مقالة 2 Vols., Londou, 1910.

19 — Browne, E. G. A Literary History of Persia, New York, 1902. (Introductory part gives a general account to the early cultural history of Islam).

20 — Caetani, L. Annali dell'Islam, Vols. i, ii., Milano 1905—7. (Best account of rise and spread of Islam, but in several details corrected by Musil q. v,)

21 — Cajori, F. A History of Mathematics, New York, 1924.

22 — Cajori,F. A History of Muthematics New York 1924 Cambridge Hiatory of India, Vol, i, Camridge, 1622.

23 — Cantor, M' Vorlesungen über Gesch - der Mathematik Lepzig, 1907.

24 — Carra De Vaux. Penseurs d'Islam, 5 Voles, Paris, 1921 - 8.

25 — Carra De Vaux. Avicenne, Paris, 1900.

26 Carra De Vaux, Mas'udi, le livre de l'Avertisement, tra ..
Paris, 1897.

27 — Chabot, J-B. "L'Ecole de Nisibe" in JA., 1895.

28 — Chabot, J - B. "Documenta ad origines Monophysitarum illustrandas" in CSCO., ser. ii, Vol. 37, Paris, 1903.

29 — Chabot, J - B. "Synodicon orientale" iu Notice et extraits, xxxvii, Paris, 1902.

30 — Christensen "L'empire der Sasanids" in Jour. Iran, Assoc., viii, 434.

31 — Christensen "Chronicle of Edessa" in Texte und Untersuch. IX, i, Lepzig, 1893.

32 — Chwolson. D. Die Ssabien und der Ssabismus 2 vols., St. petersburg, 1856.,

33 — Crum, W. E. "Sévère d'Antioche en Egypte" inRev. Oricnt Chrét., iii (192 - 3), q2 - 104.

34 — CSCO., Corpus Scriptorum Christianorum Orietalusm, Paris.

35 — Cumont: L'Egypt des astrolgies, Bruxelles 1937.

39 — Darmestater. "Lettre de Tansar au roi de Tabaristan" in JA., 144, 186. (Shows that nes-Platonism had penettrated into Persia,)

37 — Davies, R. Breddhist India, London, 1603.

38 — Denha. "Histoire de Marouta" in PO., III, 52 —96.

39 — Diehl. Justinien, Paris, 1901.

40 — Dieterici, F: Alfarabi's philosophische Abhandlungen, Leiden, 1890.

41 — Doughty, C. M, Travels in Arabia Deserta, 2 vols., London 1923,

42 — Dreyer, J. L, E. History of the Planetary Systems, Cambridge, 1903.

43 — Droysen J. G. Gesch. de Hellenismus, 3 vols,, 2nd edit., Gotha 1877—6.

44 — Duechesne, L. Eatly History of the Christian Church, Eng. trans. of 4th edit., 3 vols., London, 1914.

45 Duchesne, L. Eglises separées, Paris, 1906.

46 — Duchesne, L. L'églises an vie siecle., Paris, 1929.

47 — Dulsem P. La systemc du monde, pa is, 1915.

48 — "Elias of Nisibis Opus chronologicum" ed. E. W. Brooke and J-B. Chabot, in CSCO., iii vols 7, 8, Paris 1909-11.

50 — Encyclopaedia of Islm, ed. T. Houtsma and others, Leilen 1906-34. Supplement 1938.

51 — Evaguns. "Historia Ecclesiastica" in PG, lxxxvi, 2415 Sqq,

52 — Elügel, G. Al Kindi, genannt "der philosoph der Araber". Lepzig, 1857.

53 — Flügel, G, "Ueber Inhalt und Verfasser der arabischen Encyclopädie der Ikwan as - Safa" in ZDMG. Xiii,1Sqq.

54 — Goldziher, J Muhammadanische Studieu, 2 vols., Halle, 1889 - 90.

55 — Goodspeed· "Athanasius (of Antioch), Conflict of Severus' in PO., iv, 333 - 590.

56 — Hankel, H. Zur Geschichte der Mathematik, Leipzig, 1874.

57 — Harnack, A. Lehrbuch der Dogmengeschichte, 3 vols, Freiburg, 1894.

58 — Harnack, A Geschichte der alcristlichen Litteratur, Leipzig, 2 vols, 1893.

59 — Harnack, A. Die chronologie des alchristlichen Litteratur, Leipzig,2 volsi, 1897 - 1904.

60 — Haskins, C. H. "Arabic Scinse in Westren Europe" in Isis, vii (1925), 478 - 486.

61 — Haskins C.H. Studics in the History of Midieval Sciense Camb. USA., 1924. (Good account of Latin versions of Arabic Scientfic Works).

62 — Hauser Ueber das Kitab al - Hijer, Erlangen, 1922 (Account of the "Sons of Musa",etc).

63 — He. th, T. L. Aristarechus of Samos, Oxford. 1913.

64 — Heath, T. L. History of Geek Mathematics 2 vols, Oxford, 1921.

65 — Hèfele, C. J. History of the Christian Church Conciles, Eng. transl, 4 vols., Edinburgh, 1871 - 83.

66 — Haertley, C.A. De fide et symbols, Oxford 1887.

67 — Hirschberg, J. Geschichte d. Augenheilkunde, Leipzig, 1899 - 1918.

68— Heonal, A. F. R. "Studies in Ancient Indian Medicine" inTRAS. (1906), 233 - 302,915 - 941; (1907), 1 - 13;(1908), 997 - 1028.

69 — Hoffmann, J.G.E. De Hermeneuticis apud Syros Aristotelis (Syriac), Leipzig, 1873.

70 — Hogarth, D.G. The Nearer East, Lon'oa, 1905.

71 — Homstel, F. Grandriss der geog. a.Gesch, des altens O.ients, i, 1904; ii, 1926.

72 — Huarrt, C. Histoire des Arabes, Paris, 1911 - 12.

73 — Inge W. R. Philosophy of Plotinus, London, 1918.

74 — Instrenzev Iranian influences on Moslem literature, Bombay. 1918.

75 — Jorga, N. Rélations entre l'orient et l'occident au moyen âge, Paris. 1923.

76 — Isis, Periodical dealing with history of sciense; ed.G Sarton.

77 — J. A., Journal Asiatique, Periordical, Paris.

78 — Janus, Zeitschrift für Geschte und Litt. des Medizin Leidin, 1924.

79 — John of Aphthonia. Life of Severus, ed. trs. M. A. Kagener, in PO. II, iii, Paris 1905.

80 — Jogn Damascene, In Migne Patrologia Graeca, XCIV and XCVI.

81 — Joshua The Stylita the ChaoaicleofJoshna The Stylite, ed W. Wright; Cambridge, 1882.

82 — JRAS., Journal of the Royal Asiatic Society Periodical London.,

83 — Karpinski, L.C. Robert of Chester's Latin Translation Translation of Ihe Algebra of al - Khwarizmi. New York. 1915.

84 — King, L. W., and Thompsos, H. R. Scnlptwrs and Inscruptions of Darius the Geat on the Rock of Behiston London, 1907.

85 — Kohl, K. "Ueber den Aufbau der Welt nach Ibn al - Haitham" in Sitzb. d. phys. med. Soc. Erlangen,1925.

86 — Von Kremer, A. Culturgeschichte Sreifzügé auf dem Geniete des Islame, Leipzig, 1873.

87 — Von Kremer Culturgeschte Pes Orients unter den Chalifen, Wien, 1875 - 7.

88 — Von Kremer,Geschichte der herrschen Ideen des Islam, Leipzig, 1868.

89 — Labowrt, J. Lè Christiansme dans l'Empire Perse, Paris, 1904.

90 — Lammens, H. Le Chantre des Omiades, Paris, 1895.

91 — LammensH. La Mecque à la veille de l'Hégire,Beyrouth, 1924.

92 — Lammens, H. L'Arabje ccidentale owant l'Hégire Beyrouth, 1928.

93 — Lammens, H. Etude sur le régne du Calife Omayade Mo'awia, 1er, Beyrouth, 1906 - 8.

94 — La mmens, H. La Califat de Yazid, 1er, Beyrouth, 1909 - 21.

95 — Land J. P. N. Anecdota Syriaca, Leidn, 1862.

96 — Landberg Graf von. Studes, Leipzig 1909.

97 — Lane - Poole, S. The Mohammedan Dynasties, London, 1895.

98 — Lane - Poole, S. Studies in a Mosque, 2nd. edit. London, 1893.

99 — Leclerc, L. Histoire de la medicine arabe.

100 —Le Strange, E. Palestine under the Moslems (550-1500) London, 1890.

101 Le Strange, E. Pagdad, 2nd edit., Oxford, 1924.

102 — Le Strange, E. Lands of thc Eastern Khalifate, Cambridge, 1909.

103 —Von Lippmann, E. C. Gesch. der Zuckers seit der ältesten Zeiten, 2nd. edit., Berlin, 1929. (Use and spread of sugar cane as indicating culture drifo).

104 — Loew Aramaisthe Pflanzennamen, 1881.

105 — Lyde, L. W. The Continent of Asia, London, 1923.

106 — Macdonald, D. B. Development of Muslim Theology, London, 1903.

107 — McCrindle, J. W. Topography of Cosmas, Hakloyt Society, 1897.

108 — Maneckji Nusservanji Dhulla. Zoroastrian Civilization, New York 1922.

109 — Maspero - Fortescue - Wiet. Histoire des petriarches d'Alexandris depuis la mort de l'empreur Anastase jusqu'a la réconciliation des églises Jacobites, Paris, 1923.

110 — Merivale, C. History of the Romans under the Empire, 8 vols. Lo don, 1896.

111 - Meyer, E. Von. Gesch. der Botanik, Keipzig, 1856.

112 — Meyer, E. Von Gesch. der Chemie, Leipzig. 1914.

113 — Meyer — Steineg und Sudhoff. K. Gesch. der Medizin, Jena, 1922.

114 — Meyerhof, H. "New Light on Hunayn ibn Ishaq" in Isis, viii, (1926), 685 - 724,

115 — Meyerhof, H. The Book of the Ten Treatises on the Eye ascriber to Hunayn ibn Ishaq, Cairo, 1928.

116 — Meyerhof, H. "An-Arabic Compendium of Medico-Philosophical Difintions" in Isis, x (1926), 340 - 9.

117 — Mieli, A. Pagine di Storia della Chimica, Roma, 1922,

118 — Mommsen, T. Provinces of the Roman Empire, Eng. trans. Vol. 2, London, 1909.

119 — Muir, Sir William. The Caliphate, its Rise Decline, and Fall. London 1891.

120 — Müller, A. Der Islam im Morgen-und Abenland, 2 vols., Berlin 1885 - 7.

121 — Müller, A. Die Beherrscher der Glaubigen, Berlin, 1882

122 — Müller, M. Die Quaestiones naturales des Abelardus von Bath, Münster, 1934.

123 — Musil, A. The Manners and Customs of the Rwala Bedaunis, New York, 1928.

124 — Musil; A. Arabia Deserta, New York, 1927.

125 — Musil, A, Palmyrine, New York, 1928.

126 — Musil A. Northern Negde, New York 1928.

127 — Nalinaksha Dutt. Early Monastic Buddhism, ii, Calcutta, 1941.

128 — Nan, F. "Documents pour servir à l'histoire de l'Église Nestorienne" in PO., xiii, fasc. 2, Paris.

129 — Neuberger, M, Gesch. der Médizin, Stuttgart, 1908. Eng. trans., Oxford, 1925.

130 — Nicholson, R. A. Litterary History of the Arabs, 4th ed., London 1922.

131 - Nöldeke, Th. Gesch. der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden Berlin 1879.

132 — Nöldeke, Th. Die Ghassaniden Fürsten, Berlin, 1887,

133 — Pagel Einfuhrung in die Gesch. der Medizin, Berlin 1898.

134 — Purgiter Ancient Indian Historical Tradition, 1922.

135 — PG., Migne's, Patrologia Graeca.

136 — Pine, S, Beiträge zur Islamischen Atomenlehre, Berlin 1936.

137 — PO., Patrologia Orientalis, ed. Mgr, Graffin, Paris

138 — Procopius. Ed. Dindorf, Corpus Script. Hist, Byzant. Bonn, 1833 - 8,

139 — Ray, Sir Praphulla Chandra. A History of Hindu Chemistry, 2nd ed., Calcutta, n. d.

140 — Raymond, A, Histoire des sciences exactes et Naturelles, Paris, 1924.

141 — Schwartz, E. Concilium universale Chalcedonense, Berlin, 1932.

142 - Sédilldt. Prolégomèns des tables astroPaminues d' Oloug-Béy Paris, 1853,

143 — Seeman, H., und Mittelbaum, T. Das Kugelfärmige Astrolab, Erlangen, 1925.

144 — Sewell, A. "Roman Coins found in India" in JRAS. (1003), 541sqq.

145 — Smith, D. E. History of Mathematics, 2 vols., New-York, 1923 - 5.

146 — Smith, D. E. and Karpinski, L. C. Hindu - Arabic Numerals, New York, 1911.

147 — Smith, V. A. Early History of India, 3rd ed., Oxford, 1914.

148 — Smith, V. A. Asoka, 3rd ed., Oxford, 1920.

149 — Socrates. Ecclesiastica Historia, ed., Oxford, 1844.

150 — Sozoman Ecclesiastica Historia, ed., Migne, PG., Lxvii.

151 — Stapleton & Azo - Hussain, Chemistry in Iraq and Persia in the Tenth Century, Calcutta, 1927,

152 — Sreele, R. "Practical Chemistry in the twelfth Century (Rasis de aluminibus et salibus)" in Isis, xii (1929), 10 — 96.

153 — Steines, H. Die Mu'taziliten oder die Freidenker in Islam, Leipzig, 1865.

154 — Steinschneider, M. Die europäischen übersstz. dem arabischen bis Mitte des xvii Jahrhund., Wein (Sitz. des Akad.) cxlix, 22 — 44.

155 — Steinschneider Die hebräischen Uebersetzungen der Mittelalars, Berlin, 1893.

156 — Strzygowski, J. Der Ursprung des Christlishen Kirchen Kunst, 1910, Eng. transl. Dalton, Origin of Christian Church Art, 1923.

157 — Suter, H. Die Mathematiker und Astranomen der Araber and ihre Werke, Leipzig, 1900 — 4.

158 — Süter, H. Das Buck der geom. Konstutionen der Abu'l - Wafa', Erlangen, 1922.

159 — Suter, H. Und Wiedemann, E. "Ueber al Biruni und Seine Schriften" in Sitz. d. Physik - Mediz. Gesell. (1920), 55, 66.

160 — Tannery, P. Recherche sur l'histoire de l'astronomie ancienne, Paris, 1893.

161 — Tarn, W. W. The Greeks in Bactria and India, Cambridge, 1938. (very useful.)

162 — Tarn, W. W, Hellenistic Civilization, London, 1930

163 — Thomas, J. Selections illustrating the History of Greek Mathematics (Loeb Classical Library), 1941.

164 — Tropfke, J. Geschichte der Elementar - Mathematik, 3 vols., Berlin, 1921 2.

165 — Warmington, E. H. The Commerce between the Roman Empire and India, 1928.

166 — Weinberg, J. Die Algebra des Abu Kāmil Soga ben Aslam. Munich, 1935.

167 — Wiberg, J. "The anatomy of the brain in the works of Galen and 'Ali 'Abbas" in Janus, xix (1914), 17-32, 84 — 104.

168 — Wiedemann, E. Uber Thabit ibn Aurra, sein Leben und Wirken, Erlangen, 1922.

169 — Wiedemann, E. "Zur nabat. Landwirt-schaft von Ibn Wahschija" in Zeit-f. Samit., i (1922), 201.

170 — Wiedemann, E. und Frank, J. Ueberd ie Konstruction der Sehattenlinien von Tabir ibn Qurra, Köpenhagen, 1922.

171 — Wieleitner, H. Gesch. der Mathematik, i, 1921, Berlin.

172 — Winer, L. Constructions towards a history of Arabics-Gathic Culture, New Yotk 1917. (Arguments rash and unproved).

173 — Woepke Sur l'introdüction de l'arithmaticue indien en Occident, Paris, 1859.

174 — Wüstenfeld, F. Gesch. der arab. Aertze u. Naturforscher, Göttingen, 1840.

175 — Wüstenfeld, F. Die Academien der Araber, Göttingen, 1837.

176 — Wright, W. History of Syriac Leterature, London, (cf. also Joshua).

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ى)

فهرس الكتاب


مطبعة الرسالة

مطبعة الرسالة
شارع عبده المتناول ٣ عابدين